كتاب ادب الدين والدنيا

كتاب ادب الدنيا والدين عدد ١٧

عالى وقار في تهذيب الاخلاق

كتاب في ادب الدين والدنيا
من قبيل التصوف

بسم الله الرحمن الرحيم وبالله ثقتي واعتصامي
قال أقضى القضاة أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي
رضي الله عنه الحمد لله ذي الطول والآلاء وصلى الله على محمد خاتم الرسل
والأنبياء وعلى آله وصحابته الأتقياء. أما بعد فإن شرف المطلوب
بشرف نتائجه وعظم خطره بكثرة منافعه وبحسب منافعه تجب العناية
به وعلى قدر العناية به والاجتهاد يكون اجتناء ثمرته. وأعظم الأمور خطرا
وقدرا وأعمها نفعا ورفدا ما استقام به الدين والدنيا وانتظم به صلاح
الآخرة والأولى لأن باستقامة الدين تصح العبادة وبصلاح الدنيا
والآخرة تتم السعادة. وقد توخيت بهذا الكتاب الإشارة إلى آدابهما
وتفصيل ما أجمل من أحوالهما على أعدل الأمرين من إيجاز وبسط أجمع
فيه بين تحقيق الفقهاء وترقيق الأدباء فلا ينبو عن فهم ولا يدق في وهم
مستشهدا من كتاب الله تعالى بما يقتضيه ومن سنن رسول الله صلى الله عليه
وسلم بما يضاهيه ثم متبعا ذلك بأمثال الحكماء وآداب البلغاء وأقوال
الشعراء لأن القلوب ترتاح إلى الفنون المختلفة وتسأم الفن الواحد
وقد قال علي بن أبي طالب رضوان الله عليه إن القلوب تمل كما تمل الأبدان
فاهدوا إليها طرائف الحكمة. وكان المأمون يتنقل كثيرا من مكان إلى
مكان وينشد قول أبي العتاهية

في داره

لا يصلح النفس إذ كانت مدبرة إلا التنقل من حال إلى حال
وجعلت ما تضمنه هذا الكتاب من ذلك خمسة أبواب

فالباب الأول
في فضل العقل وذم الهوى

والباب الثاني
في أدب العلم

والباب الثالث
في أدب الدين

والباب الرابع
في أدب الدنيا

والباب الخامس
في أدب النفس

وأنا أستمد الله حسن توفيقه ومعونته وأستودعه حفظ موهبته
بطوله ومشيئته وهو حسبي من معين وحفيظ

باب فضل العقل وذم الهوى

اعلم أن لكل فضيلة أسا ولكل أدب ينبوعا وأس الفضائل وينبوع
الآداب هو العقل الذي جعله الله سبحانه للدين أصلا وللدنيا عمادا

فاوجب التكليف بكمالهم وجعل الدنيا مدبرة بمكانه والف بين
خلقه مع اختلاف هممهم ومآربهم وتباين اغراضهم ومقاصدهم
وجعل ما تعبدهم به قسمين قسما وجب بالعقل فوكده الشرع
وقسما في العقل فاوجبه الشرع وكان العقل عليهم عيارا ❁
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما اكتسب المرؤ
مثل عقل يهدي به صاحبه الى هدى او يرده عن ردى ❁ وروي
عنه عليه السلام انه قال لكل شي دعامة ودعامة عمل المرئ
عقله فبقدر عقله تكون عبادته لربه • اما سمعتم قول الفاجر
لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في اصحاب السعير • وقال عمر بن
الخطاب رضي الله عنه اصل الرجل عقله وحسبه دينه ومروته
خلقه • وقال الحسن البصري رضي الله عنه ما استودع
الله احدا عقلا الا استنقذه به يوما ما • وقال بعض الحكماء
العقل افضل مرجو والجهل انكى عدو • وقال بعض الادباء
صديق كل امرئ عقله وعدوه جهله • وقال بعض البلغاء خير
المواهب العقل وشر المصائب الجهل • وقال بعض الشعراء
وهو ابرهيم بن حسان ❁

يزين الفتى في الناس صحة عقله • وان كان محظورا عليه مكاسبه

يشين الفتى في الناس قلة عقله • وان كرمت اعراقه ومناسبه •
يعيش الفتى بالعقل في الناس انه • على العقل يجري علمه وتجاربه •
وافضل قسم الله للمرء عقله • فليس من الاشياء شي يقاربه •
اذا اكمل الرحمن للمرء عقله • فقد كملت اخلاقه ومآربه •

واعلم ان بالعقل تعرف حقائق الامور وتفصل بين الحسنات
والسيئات وقد ينقسم الى قسمين غريزي ومكتسب فالغريزي
هو العقل الحقيقي وله حد يتعلق به التكليف لا يجاوز الى
زيادة ولا يقصر عنه الى نقصان وبه يمتاز الانسان عن سائر
الحيوان فاذا تم في الانسان سمي عاقلا وخرج به الى حد
الكمال كما قال صالح بن عبد القدوس ❁

❁ اذا تم عقل المرء تمت اموره • وتمت اياديه وتم بناؤه ❁

وروي عن الضحاك في قوله تعالى لينذر من كان حيا اي من
كان عاقلا • واختلف الناس فيه وفي صفته على مذاهب شتى
فقال قوم هو جوهر لطيف يفصل به بين حقائق المعلومات
ومن قال بهذا القول اختلفوا في محله • فقالت طائفة منهم
محله الدماغ لان الدماغ محل الحس • وقالت طائفة اخرى
منهم محله القلب لان القلب معدن الحياة ومادة الحواس

وهذا القول في العقل بأنه جوهر لطيف فاسد من وجهين أحدهما
أن الجوهر متماثلة فلا يصح أن يوجب بعضها ما لا يوجب سايرها
ولو أوجب سايرها ما لا يوجبه بعضها لاستغنى العاقل بوجود
نفسه عن وجود عقله والثاني أن الجوهر يصح قيامه بذاته
فلو كان العقل جوهرا لجاز أن يكون عقل بغير عاقل كما جاز
أن يكون جسم بغير عقل فامتنع بهذين أن يكون العقل جوهرا.
وقال آخرون العقل هو المدرك للأشياء على ما هي عليه في
حقايق المعنى وهذا القول وإن كان أقرب مما قبله فبعيد
من الصواب من وجه واحد وهو أن الإدراك من صفات الحي
والعقل عرض يستحيل ذلك منه كما يستحيل منه أن يكون ملتذا
وللماء مشتهيا. وقال آخرون من المتكلمين هو جملة علوم ضرورية
وهذا الحد غير محصور لما تضمنه من الإجمال وتناوله من الاحتمال
والحد إنما هو بيان المحدود بما ينفي عنه الإجمال والاحتمال. وقال
آخرون وهو القول الصحيح أن العقل بالمدركات الضرورية وذلك
نوعان أحدهما ما وقع عن درك الحواس. والثاني ما كان مبتدأ
في النفوس فأما ما كان واقعا عن درك الحواس فمثل المرئيات
المدركة بالنظر والأصوات المدركة بالسمع والطعوم المدركة

العقل

هو العلم

بالذوق والروائح المدركة بالشم والأجسام المدركة باللمس
فإذا كان الإنسان ممن لو أدرك بحواسه هذه الأشياء ثبت له
هذا النوع من العلم لأن خروجه في حال تغميض عينيه من
أن يدرك بهما لا يخرجه من أن يكون كامل العقل من حيث علم
من حاله أنه لو أدرك لعلم. وأما ما كان مبتدأ في النفوس
فكالعلم بأن الشيء لا يخلو من وجود أو عدم وأن الموجود لا يخلو
من حدوث أو قدم وأن من المحال اجتماع الضدين وأن الواحد
أقل من الاثنين. وهذا النوع من العلم لا يجوز أن ينتفي عن العاقل
مع سلامة حاله وكمال عقله فإذا صار عالما بالمدركات الضرورية
من هذين النوعين فهو كامل العقل وسمي بذلك تشبيها بعقال الناقة
لأن العقل يمنع الإنسان من الإقدام على شهواته إذا قبحت كما يمنع
العقال الناقة من الشرود إذا نفرت. ولذلك قال عامر بن عبد
قيس. إذا عقلك عقلك عما لا ينبغي فأنت عاقل. وقد جاءت السنة
بما يؤيد هذا القول في العقل وهو ما روي عن النبي عليه السلام
أنه قال العقل نور في القلب يفرق به بين الحق والباطل. ودل من
نفى أن يكون العقل جوهرا أثبت محله في القلب لأن القلب محل العلوم
كلها كما قال الله تعالى. أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب

يعقلون بها. فدلت هذه الآية على أمرين أحدهما أن العقل علم والثاني أن محله القلب وفي قوله تعالى يعقلون بها تأويلان أحدهما يعلمون بها والثاني يعتبرون بها فهذا جملة القول في العقل الغريزي. فأما العقل المكتسب فهو نتيجة العقل الغريزي وهو نهاية المعرفة وصحة السياسة وإصابة الفكر وليس لهذا حد لأنه ينمي إن استعمل وينقص إذا أهمل ونماؤه يكون بأحد وجهين إما بكثرة الاستعمال إذا لم يعارضه مانع من هوى ولا صاد عن شهوة كالذي يحصل لذوي الأسنان من الحنكة وصحة الروية بكثرة التجارب وممارسة الأمور ولذلك حمدت العرب آراء الشيوخ حتى قالوا المشايخ أشجار الوقار ومنابع الأخبار لا يطيش لهم سهم ولا يسقط لهم وهم إن رأوك في قبيح صدوك وإن أبصروك في جميل أمدوك. وقالوا عليكم بآراء الشيوخ فإنهم إن فقدوا ذكاء الطبع فقد مرت على عيونهم وجوه العبر وتصدت لأسماعهم آثار الغير. وقيل في منثور الحكم من طال عمره نقصت قوة بدنه وزادت قوة عقله. وقيل فيه لا تدع الأيام جاهلا إلا أدبته. وقال بعض الحكماء كفى بالتجارب تأدبا وبتقلب الأيام عظة. وقال بعض البلغاء التجربة مرآة العقل والغرة ثمرة الجهل. وقال بعض الأدباء كفى مخبرا عما بقي ما مضى

وكفى عبرا لأولي الألباب ما جربوا. وقال بعض الشعراء

ألم تر أن العقل زين لأهله ... وأن تمام العقل طول التجارب

وقال آخر

إذا طال عمر المرء في غير آفة ... أفادت له الأيام في كرها عقلا

وأما الوجه الثاني فقد يكون بفرط الذكاء وحسن الفطنة وذلك جودة الحدس في زمان غير مهمل للحدس فإذا امتزج بالعقل الغريزي صارت نتيجتهما نمو العقل المكتسب كالذي يكون في الأحداث من وفور العقل وجودة الرأي حتى قال هرم بن قطبة حين سافر إليه عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة عليكم بالحدث السن الحديد الذهن ولعل هرما أراد أن يدفعهما عن نفسه فاعتذر بما قال لكن لم ينكر قوله إذ دعانا للحق فصار إلى أبي جهل لحداثة سنه وحدة ذهنه فأبى أن يحكم بينهما فرجعا إلى هرم فحكم وفيه يقول لبيد

يا هرم ابن الأكرمين منصبا ... إنك قد أوتيت حكما معجبا

وقد قالت العرب عليكم بمشاورة الشباب فإنهم ينتجون رأيا لم يبله طول القدم ولا استولت عليه رطوبة الهرم وقال الشاعر

رأيت العقل لم يكن انتهابا ... ولم يقسم على عدد السنينا

ولو أن السنين تقاسمته ... حوى الآباء أنصبة البنينا

حكى الأصمعي قال قلت لغلام حدث من أولاد العرب كان

أراد

يحادثني فامتعني بفصاحته وملاحته. ايسرك ان تكون لك
مائة الف درهم وانك احمق قال لا والله قلت ولم قال اخاف ان
يجني علي حمقي جناية تذهب بمالي ويبقى علي حمقي. فانظر الى هذا
الصبي كيف استخرج بفرط ذكائه واستنبط بجودة قريحته
ما العلة يدق على من هو اكبر منه سنا واكثر تجربة واحسن
من هذا الذكاء والفطنة ما حكى ابن قتيبة ان عمر بن الخطاب
رضي الله عنه مر بصبيان يلعبون وفيهم عبد الله بن
الزبير فهربوا منه الا عبد الله فقال له عمر ما لك لم تهرب
مع اصحابك فقال يا امير المؤمنين لم اكن على ريبة فاخافك
ولم يكن بالطريق ضيق فاوسع لك. فانظر الى ما تضمنه هذا
الجواب من الفطنة وقوة المنة وحسن البديهة كيف نفى عنه
اللوم واثبت له الحجة وليس للذكاء غاية ولا لجودة القريحة
نهاية وحكي ان سليمان بن عبد الملك امر الفرزدق
ليضرب اعناق الاسارى من الروم فاستعفاه الفرزدق
فلم يفعل واعطاه سيفا لا يقطع شيئا فقال الفرزدق بل
اضربهم بسيف ابي رغوان مجاشع يعني سيف نفسه فقام
فضرب به عنق رومي منهم فنبا السيف عنه فضحك سليمان

ومن حوله فقال الفرزدق

ايعجب الناس ان اضحكت سيدهم   خليفة الله يستسقى به المطر
لم ينب سيفي من رعب ولا دهش   عن الاسير ولكن اخر القدر
ولا نقدم نفسا قبل ميتتها   جمع اليدين ولا الصمصامة الذكر

ثم غمد سيفه وهو يقول   ما ان يعاب سيد اذا صبا
ولا يعاب صارم اذا نبا   ولا يعاب شاعر اذا كبا

ثم جلس وهو يقول كاني بابن المراغة قد هجاني فقال

بسيف ابي رغوان سيف مجاشع   ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم

وقام فانصرف وحضر جرير مخبر بالخبر ولم ينشد الشعر فانشا

بسيف ابي رغوان سيف مجاشع   ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم

ثم قال يا امير المؤمنين كاني بابن القين وقد اجابني فقال

ولا نقتل الاسرى ولكن نفكهم   اذا اثقل الاعناق حمل المغارم

فاستحسن سليمان تحدس الفرزدق على جرير ثم اخبر الفرزدق
بشعر جرير ولم يخبر بحدسه فقال الفرزدق

كذاك سيوف الهند تنبو ظباتها   وتقطع احيانا مناط التمائم
ولن نقتل الاسرى ولكن نفكهم   اذا احمل الاعناق حمل المغارم
وهل ضربة الرومي جاعلة لكم   ابا عن كليب او ابا مثل دارم

فسار حديث الفرزدق بهذا حتى حكى ان المهدي اتي باسرى
من الروم فامر بقتلهم وكان عنده شبيب بن شيبة فقال اضرب
عنق هذا العلج فقال يا امير المؤمنين قد عرفت ما ابتلي به
الفرزدق فعيرته قومه الى اليوم فقال انما اردت تشريفك
وقد اعفيتك وكان ابو الهول الشاعر حاضرا فقال

• جزعت من الرومي وهو مقيد فكيف ولو لاقيته وهو مطلق
• دعاك امير المؤمنين لقتله فكاد شبيب عند ذلك يزرق
• فنح شبيبا عن قراع كتيبة وادن شبيبا من كلام يلفق

وليس كل العجب من خبر الفرزدق ان صح من جودة القريحتين ولكن من
اتفاق الخاطرين ولمثل ذلك قالت الحكماء آية العقل سرعة
الفهم وغايته اصابة الوهم وليس يمنع من جودة القريحة وسرعة
الخاطر عجز عن جوابه وان لمعضل كما قيل لعلي بن ابي طالب
رضي الله عنه كيف يحاسب الله العباد على كثرة عددهم قال كما
يرزقهم الله على كثرة عددهم • وقيل لعبد الله بن عباس رضي الله
عنه اين تذهب الارواح اذا فارقت الاجساد قال اين تذهب
نار المصابيح عند فناء الادهان وهذان الجوابان اسكتا
تضمنا دليلي اذعان وحجتي قهر • ومن غير هذا الفن وان كان مسكتا

ما حكي عن ابليس لعنه الله انه ظهر لعيسى بن مريم صلوات الله عليه
فقال له الست تقول انه لن يصيبك الا ما كتب الله عليك قال نعم
قال فارم بنفسك من ذروة هذا الجبل فانه ان يقدر لك السلامة
تسلم قال له يا ملعون ان الله تعالى ان يختبر عباده وليس للعبد
ان يختبر ربه ومثل هذا الجواب لا يستغرب من انبياء الله
تعالى الذين امدهم بوحيه وايدهم بنصره وانما يستغرب ممن
يلجا الى خاطره ويعول على بديهته • وروى قثم بن العباس رضي
الله عنه قال قيل لعلي بن ابي طالب كرم الله وجهه كم بين
السماء والارض فقال دعوة مستجابة • وقيل له فكم بين المشرق
والمغرب قال مسيرة يوم للشمس • وكان هذا السوال من سائله
اما اختبارا واما استبصارا فصدر عنه من الجواب ما اسكت
فاما اذا اجتمع هذان الوجهان في العقل المكتسب وهو مما
ينميه فرط الذكاء بجودة الحدس وصحة القريحة لحسن البديهة
معما ينميه الاستعمال بطول التجارب ومرور الزمان بكثرة الاختبار
فهو العقل الكامل على الاطلاق في الرجل الفاضل بالاستحقاق •
روى انس بن مالك رضي الله عنه قال اثني على رجل عند النبي
عليه السلم بخير فقال كيف عقله قالوا يا رسول الله ان من

عبادته ان من خلقه ان من ادبه قال كيف عقله قالوا يا رسول الله
ان من عبادته ان من خلقه ان من فضله ان من ادبه قال كيف
عقله قالوا يا رسول الله نثني عليه بالعبادة واصناف الخير
وتسألنا عن عقله قال عليه السلم ان الاحمق العابد يصيب
بجهله اكثر من فجور الفاجر وانما يقرب الناس من ربهم بالزلف
على قدر عقولهم • واختلف الناس في العقل المكتسب اذا تناهى
وزاد هل يكون فضيلة ام لا فقال قوم لا يكون فضيلة لان
الفضائل هيآت متوسطة بين فضيلتين ناقصتين كما ان
الخير متوسط بين رذيلتين فما جاوز التوسط خرج عن حد
الفضيلة وقد قالت الحكماء للاسكندر ايها الملك عليك بالاعتدال
في كل الامور فان الزيادة عيب والنقصان عجز هذا مع ما وردت
به السنة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خير الامور
اوسطها وقال صلى الله عليه وسلم خير الامور النمط الاوسط
اليه يرجع العالي وبه يلحق التالي • قال الشاعر

لا تذهبن في الامور فرطا • لا تسألن ان سألت شططا
وكن من الناس جميعا وسطا

قالوا ولان زيادة العقل تفضي بصاحبها الى الدهاء والمكر وذلك
مذموم وصاحبه ملوم وقد امر عمر بن الخطاب رضوان الله عليه
ابا موسى الاشعري ان يعزل زيادا عن ولايته فقال زياد يا امير
المؤمنين اعن موجدة او عن خيانة فقال لا عن واحدة منهما ولكن
خفت ان احمل الناس فضل عقلك • ومن اجل هذا المحكي عن عمر
رضي الله عنه ما قيل قديما افراط العقل مضر بالجد • وقد قال
بعض الحكماء كفاك من عقلك ما دلك على سبيل رشدك • وقد
قال بعض البلغاء قليل يكفي خير من كثير يطغي • وقال
آخرون وهو اصح القولين • زيادة العقل فضيلة لان المكتسب
غير محدود وانما تكون زيادة الفضائل المحدودة نقصا مذموما
لان ما جاوز الحد لا يسمى فضيلة كالشجاع اذا زاد على الشجاعة
نسب الى التهور والسخي اذا زاد على حد السخاء نسب الى التبذير
وليس كذلك حال العقل المكتسب لان الزيادة فيه زيادة علم بالامور
وحسن اصابة بالظنون ومعرفة ما لم يكن الى ما يكون وذلك فضيلة
لا نقص • وقد روي عن النبي عليه السلم انه قال افضل الناس
اعقل الناس • وروي عنه عليه السلم انه قال العقل حيث كان
الوف مألوف • وقد قيل في تأويل قوله تعالى قل كل يعمل
على شاكلته اي بحسب عقله وقال القسم بن محمد كانت العرب

جد

قال أصحاب الشافعي رضي الله عنه فيمن أوصى بثلث ماله لأعقل
الناس أنه يكون مصروفاً في الزهاد لأنهم انقادوا للعقل ولم
يغتروا بالأمل. وروى لقمان بن عامر عن أبي الدرداء رضي
الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يا عويمر
ازدد عقلاً تزدد من ربك قرباً وبه عزاً فقلت فداك أبي وأمي
من لي بالعقل قال اجتنب محارم الله تعالى وأد فرائضه
تكن عاقلاً ثم تنفل صالحات الأعمال تزدد في الدنيا عقلاً
وتزدد من ربك (قرباً) وأنشدني بعض أهل الأدب هذه الأبيات
وذكر أنها لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ∴

إن المكارم أخلاق مطهرة • فالعقل أولها والدين ثانيها •
والعلم ثالثها والحلم رابعها • والجود خامسها والعرف ساد بها •
والبر سابعها والصبر ثامنها • والشكر تاسعها واللين عاشيها •
والنفس تعلم أني لا أصدقها • ولست أرشد إلا حين أعصيها •
والعين تعلم في عيني محدثها • من كان من حزبها أو من أعاديها •

واعلم أن العقل المكتسب لا ينفك عن العقل الغريزي لأنه نتيجة
منه وقد ينفك العقل الغريزي عن العقل المكتسب فيكون
صاحبه مسلوب الفضائل موفور الرذائل كالأنوك الذي

تقول من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان حتفه في أغلب
خصال الخير عليه. وقيل في منثور الحكم كل شيء إذا (كثر) رخص
إلا العقل فإنه إذا كثر غلا. وقال (بعض) البلغاء إن العاقل من
عقله في إرشاد ومن رأيه في إمداد فقوله سديد وفعله حميد
والجاهل من جهله في إغواء ومن هواه في إغراء فقوله سقيم
وفعله ذميم. وأنشدني ابن لنكك لأبيه ∴

من لم يكن أكثر عقله أهلكه أكثر ما فيه ∴

وأما الدهاء والمكر فهو مذموم لأن صاحبه صرف فضل عقله إلى الشر
ولو صرفه إلى الخير لكان محموداً وقد ذكر المغيرة عمر بن الخطاب
رضي الله عنه فقال كان والله أفضل من أن يخدع وأعقل من
أن يُخدع. وقال عمر رضي الله عنه لست بالخب ولا الخب يخدعني.
واختلف الناس فيمن صرف فضل عقله إلى الشر كزياد
وأشباهه من الدهاة هل يسمى الداهية منهم عاقلاً أم لا فقال
بعضهم أسميه عاقلاً لوجود العقل فيه وقال آخرون لا أسميه
عاقلاً حتى يكون خيراً ديناً لأن الخير والدين من موجبات
العقل. فأما الشرير فلا أسميه عاقلاً وإنما أسميه صاحب
روية وفكر. وقد قيل العاقل من عقل عن الله أمره ونهيه حتى

لا يوجد له فضيلة والاحمق الذي ما يخلو منه رذيلة وقد روى
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الاحمق ابغض خلق الله تعالى
اليه اذ حرمه اعز الاشياء عليه وروى عن عيسى عليه السلم انه قال
الاحمق كالفخار لا يرقع ولا يشعب • وقال بعض الحكماء الحاجة
الى العقل اقبح من الحاجة الى المال • وقال بعض البلغاء دولة
الجاهل عبرة العاقل • وقال انوشروان لبزرجمهر • اي الاشياء
خير للمرء قال عقل يعيش به قال فان لم يكن قال فاخوان يسترون
عيبه قال فان لم يكن قال فمال يتحبب به الى الناس • قال فان لم يكن
فعي صامت قال فان لم يكن قال فموت جارف • وقال سابور بن
اردشير العقل نوعان احدهما مطبوع والآخر مسموع ولا يصلح واحد
منهما الا بصاحبه فاخذه بعض الشعراء فقال

رايت العقل نوعين ❁ فمسموع ومطبوع ❁
ولا ينفع مطبوع ❁ اذا لم يك مسموع ❁
كما لا تنفع العين ❁ وضوء الشمس ممنوع ❁

وقد وصف بعض الادباء العاقل بما فيه من الفضايل والاحمق
بما فيه من الرذايل فقال العاقل اذا والى بذل في المودة نصره
واذا عادى رفع عن الظلم قدره فيسعد مواليه بعقله ويعتصم معاديه
بعدله ان احسن الى احد ترك المطالبة بالشكر وان اساء اليه
مسيء سبب له اسباب العذر او منحه الصفح والعفو • والاحمق
ضال مضل ان اونس تكبر وان اوحش تكدر وان استنطق
تخلف وان ترك تكلف مجالسته مهنة ومعاتبته محنة ومحاورته
تعر وموالاته تضر ومقاربته عمى ومقارنته شقاء • وكانت
ملوك الفرس اذا غضبت على عاقل حبسته مع جاهل • والاحمق
يسيء الى غيره ويظن انه قد احسن اليه فيطالبه بالشكر ويحسن اليه
فيظن انه قد اساء اليه فيطالبه بالوتر فمساوي الاحمق لا تنقضي
وعيوبه لا تتناهى ولا يقف النظر منها الى غاية الا لوحت بما وراءها
بما هو ادنى منها واردى وامر وادهى فما اكثر العبر لمن نظر
وانفعها لمن اعتبر • وقال الاحنف بن قيس من كل شيء يحفظ
الاحمق الا من نفسه • وقال بعض البلغاء ان الدنيا ربما اقبلت
على الجاهل بالاتفاق وادبرت عن العاقل بالاستحقاق فان اتتك
منها سهمة مع جهل او فاتتك منها بغية مع عقل فلا يحملنك ذلك
في الجهل والزهد في العقل فدولة الجاهل من الممكنات ودولة
العاقل من الواجبات • وليس من امكنه شيء من ذاته كمن استوجبه
بآلته واداته وبعد فدولة الجاهل كالغريب الذي يحن الى النقلة

ودولة العاقل كالنسيب الذي يحن الى الوصلة فلا يفرح المرء
بحال جليلة نالها بغير عقل او منزلة رفيعة حلها بغير فضل
فان الجهل ينزله منها ويزيله عنها ويحطه الى رتبته ويرده الى
قيمته بعد ان يظهر عيوبه ويكثر ذنوبه ويصير مادحه
هاجيا ووليه معاديا واعلم ان بحسب ما ينتشر من فضايل
العاقل كذلك يظهر من رذايل الجاهل حتى يصير مثلا في
الغابرين وحديثا للاخرين مع هتكته في عصره وقبح ذكره
في دهره كالذي رواه عطاء عن جابر قال كان في بني اسرايل
رجل له حمار فقال يا رب لو كان لك حمار لعلفته مع حماري
فهم به نبي من انبياء الله سبحانه فاوحى اليه انما اثيب كل
انسان على قدر عقله • واستعمل معوية رجلا من كلب فذكر
المجوس يوما عنده فقال لعن الله المجوس ينكحون امهاتهم
والله لو اعطيت عشرة الاف درهم ما نكحت امي فبلغ ذلك
معوية فقال قبحه الله اترونه لو زادوه فعل وعزله • وولى
الربيع العامري وكان من النوكى منابر اليمامة فافاد كلبا
بكلب فقال فيه الشاعر • شهدت بان الله حق لقاؤه ❁
وان الربيع العامري رقيع   افاد لنا كلبا بكلب ولم يدع ❁

دماء كلاب المسلمين تضيع ❁ وليس لعار الجهل غاية ولا
لمضار الحمق نهاية وقد قال الشاعر ❁ ❁
لكل داء دواء يستطب به ❁ الا الحماقة اعيت من يداويها

فصل فاما الهوى فهو عن الخير صاد وللعقل مضاد
لانه ينتج من الاخلاق قبايحها ويظهر من الافعال فضايحها
ويجعل ستر المروة مهتوكا ومدخل الشر مسلوكا قال
عبد الله بن العباس رضي الله عنه الهوى اله يعبد من دون الله
تعالى ثم تلا افرايت من اتخذ الهه هواه • وقال عكرمة في قوله
سبحانه ولكنكم فتنتم انفسكم • يعني بالشهوات وتربصتم يعني
بالتوبة وارتبتم يعني في امر الله وغرتكم الاماني يعني بالتسويف
حتى جاء امر الله يعني الموت وغركم بالله الغرور يعني الشيطان
وروي عن النبي عليه السلم انه قال طاعة الشهوة داء وعصيانها
دواء • وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه اقدعوا هذه النفوس
شهواتها فانها طلاعة تنزع الى شر غاية ان هذا الحق ثقيل مري
وان الباطل خفيف وبي وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة
رب نظرة زرعت شهوة وشهوة ساعة اورثت حزنا طويلا •
وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه اخاف عليكم اثنين اتباع

الهوى وطول الامل فان اتباع الهوى يصد عن الحق وطول الامل
ينسي الآخرة. وقال اعرابي الهوى هوان ولكن غلط باسمه
فاخذه الشاعر فقال. ان الهوى هو الهوان قلب اسمه
فاذا هويت فقد لقيت هوانا. وقيل في منثور الحكم من اطاع
هواه اعطى عدوه مناه. وقال بعض الحكماء العقل صديق
مقطوع والهوى عدو متبوع. وقال بعض البلغاء افضل الناس
من عصى هواه وافضل منه من رفض دنياه. وقال هشام بن
عبد الملك بن مروان. اذا انت لم تعص الهوى قادك الهوى
الى كل ما فيه عليك مقال. قال ابن المعتز ولم يقل هشام
غير هذا البيت. وقال الشاعر. اذا ما رايت المرء يقتاده الهوى
فقد ثكلته عند ذاك ثواكله. وقد اشمت الاعداء جهلا بنفسه
وقد وجدت فيه مقالا عواذله. وما ينزع النفس اللجوج عن الهوى
من الناس الا حازم الراي كامله. فلما كان الهوى غالبا والى سبيل
المهالك موردا جعل العقل عليه رقيبا مجاهدا يلاحظ عثرة
غفلته ويدفع سطوة بادرته ويوضح خداع حيلته لان سلطان
الهوى قوي ومدخل مكره خفي. ومن هذين الوجهين يؤتى العاقل
حتى تنفذ احكام الهوى عليه اعني باحد الوجهين قوة سلطانه

واردا

وبالآخر خفاء مكره. فاما الوجه الاول فهو ان يقوى سلطان الهوى
بكثرة دواعيه حتى يستولي عليه مغالبة الهوى والشهوات فيكل
العقل عن دفعهما ويضعف عن منعهما مع وضوح قبحهما في العقل
المقهور بهما وهذا يكون في الاحداث اكثر وعلى الشباب اغلب
لقوة شهواتهم وكثرة دواعي الهوى المتسلطة عليهم وانهم ربما جعلوا
الشباب عذرا لهم كما قال محمد بن بشير
كل يرى ان الشباب له في كل مبلغ لذة عذر
ولذلك قال بعض الحكماء الهوى ملك غشوم ومتسلط ظلوم
وقال بعض الادباء الهوى عسوف والعدل مالوف. وقال
بعض الشعراء. يا عاقلا اردى الهوى عقله ما لك قد سدت عليك الامور
اتجعل العقل اسير الهوى. وانما العقل عليه امير
وحسم ذلك ان يستعين العقل بالنفس النفور فيشعرها ما في
عواقب الهوى من شدة الضرر وقبح الاثر وكثرة الاجرام وتراكم
الآثام فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم حفت الجنة بالمكاره
وحفت النار بالشهوات. اخبر ان الطريق الى الجنة احتمال
المكاره والطريق الى النار اتباع الشهوات. وقال علي بن ابي
طالب كرم الله وجهه. اياكم وتحكيم الشهوات على انفسكم فان عاجلها

ذميم وآجلها وخيم فان لم ترها تنقاد لذلك بالتحذير والارهاب فسوفها
بالتأميل والارغاب فان الرغبة والرهبة اذا اجتمعتا على النفس
ذلت لهما وانقادت ● وقد قال ابن السماك كن لهواك مسوفا
ولعقلك مسعفا وانظر ما تسوء عاقبته فوطن نفسك على مجانبته
فان ترك النفس وما تهوى داؤها وترك ما تهوى دواؤها فاصبر
على الدواء لما تخاف من الداء ● وقال الشاعر

صبرت على الايام حتى تولت والزمت نفسي صبرها فاستمرت
وما النفس حيث يجعلها الفتى فان اطعمت تاقت والا تسلت

الا

فاذا انقادت النفس للعقل بما قد اشعرت من عواقب الهوى ولم يلبث
الهوى ان يصير بالعقل مزجورا وبالنفس مقهورا ثم له الحظ الاوفى
من ثواب الخالق وثناء المخلوقين قال الله سبحانه واما من
خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى
وقال الحسن البصري رحمة الله عليه افضل الجهاد جهاد
الهوى ● وقال بعض الحكماء اعز العز الامتناع من تملك
الهوى ● وقال بعض البلغاء خير الناس من اخرج الشهوة
من قلبه وعصى هواه في طاعة ربه ● وقال بعض الادباء من امات
شهوته احيى مروته ● وقال بعض العلماء ركب الله تعالى الملائكة
من عقل بلا شهوة وركب البهائم من شهوة بلا عقل وركب ابن آدم
من كليهما فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة ومن
غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم ● وقيل لبعض الحكماء
من اشجع الناس واحراهم بالظفر في مجاهدته قال من جاهد
الهوى طاعة لربه واحترز من ورود خواطر الهوى على قلبه ● وقال
بعض الشعراء ● قد يدرك الحازم ذو الرأي المنى بطاعة الحزم وعصيان الهوى
واما الوجه الثاني فهو ان يخفى الهوى مكره حتى تتموه افعاله
على العقل فيتصور له القبيح حسنا والضرر نفعا وهذا يدعو
اليه احد شيئين اما ان يكون للنفس ميل الى ذلك الشيء فيخفى عنها
القبيح لحسن ظنها وتتصوره حسنا لشدة ميلها ولذلك
قال النبي صلى الله عليه وسلم حبك الشيء يعمي ويصم اي
يعمي عن الرشد ويصم عن الموعظة ● وقال علي رضي الله عنه الهوى عمى
وقال الشاعر حسن في كل عين من تود وقال عبد الله
ابن معوية بن عبد الله بن جعفر بن ابي طالب رضا

ولست براء عيب ذي الود كله ولا بعض ما فيه اذا كنت راضيا ●
فعين الرضى عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا ●

واما السبب الثاني فهو استثقال الفكر في تمييز ما اشتبه وطلب الراجح

في اتباع ما استسهل حتى يظن أن ذلك أوفق أمريه وأحمد حاليه
اغترارا بأن الأسهل محمود والأعسر مذموم فلن يعدم أن
يتورط بخدع الهوى وزينة المكر في كل مخوف حذر ومكروه عسر
ولذلك قال عامر بن الظرب الهوى يقظان والعقل راقد فمن
ثم غلب • وقال سليمان بن وهب الهوى أمتع والرأي أنفع •
وقيل في المثل العقل وزير ناصح والهوى وكيل فاضح • وقال
إذا المرء أعطى نفسه كلما اشتهت ولم ينهها تاقت إلى كل باطل
وساقت إليه الإثم والعار الذي دعته إليه من حلاوة عاجل •
وحسم السبب الأولى أن يجعل فكر قلبه حكما على نظر عينه فإن
العين رائدة الشهوة والشهوة من دواعي الهوى والقلب رائد الحق
والحق من دواعي العقل • وقال بعض الحكماء نظر الجاهل
بعينه وناظره ونظر العاقل بقلبه وخاطره • ثم يتهم نفسه في
صواب ما أحبت وتحسين ما اشتهت ليصح له الصواب ويتبين
له الحق فإن الحق أثقل محملا وأصعب مركبا فإن أشكل عليه
أمران اجتنب أحبهما إليه وترك أسهلهما عليه فإن النفس عن الحق
أنفر وللهوى آثر • وقال العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه
إذا اشتبه عليك أمران فدع أحبهما إليك وخذ أثقلهما عليك

الشاعر

أولى

وعلة هذا القول هو أن التثقيل يبطئ النفس عن التسرع إليه
فيصح مع الإبطاء وتطاول الزمان صواب ما استنجم وظهور ما
استبهم • وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه • من تفكر أبصر
والمحبوب السهل تسرع النفس إليه وتعجل بالإقدام عليه فيقصر
الزمان عن تصفحه ويفوت استدراكه لتقضي فعله فلا ينفع التصفح
بعد العمل ولا الاستدراك بعد الفوت • وقد قال بعض الحكماء
من كان عنك معرضا فلا تكن به متعرضا • وقال الشاعر
البس طلاب ما قد فات جهلا وذكر المرء ما لا يستطيع
ولقد وصف بعض البلغاء حال الهوى وما يقارنه من محن الدنيا
فقال الهوى مطية الفتنة والدنيا دار المحنة فانزل عن الهوى
تسلم وأعرض عن الدنيا تغنم ولا يغرنك هواك بطيب الملاهي
ولا تفتننك دنياك بحسن العواري فمدة اللهو تنقطع وعارية
الدهر ترتجع ويبقى عليك ما ترتكبه من المحارم وتكتسبه من
المآثم • وقال علي بن عبد الله الجعفري سمعتني امرأة في
الطواف وأنا أنشد • أهوى هوى الدين واللذات تعجبني
فكيف لي بهوى اللذات والدين • فقالت هما ضرتان فخذ أيتهما
شئت وذر الأخرى • فأما فرق ما بين الهوى والشهوة مع

المحنة

اجتماعهما في العلة والمعلول واتفاقهما في الدلالة والمدلول فهو
ان الهوى يختص بالآراء والاعتقادات والشهوة تختص بنيل المستلذات
فصارت الشهوة من نتائج الهوى وهي اخص والهوى اصل وهو
اعم ونحن نسأل الله تعالى ان يكفينا دواعي الهوى ويصرف عنا
سبل الردى ويجعل التوفيق لنا قائدا والعقل لنا مرشدا فقد
حكي عن الله تعالى انه اوحى الى عيسى بن مريم عليه السلم عظ
نفسك فان اتعظت فعظ الناس والا فاستحي مني • وقال
محمد بن كناسة • ما من روى ادبا فلم يعمل به ويكف عن زيغ الهوى باديب

حتى يكون بما تعلم عاملا • من صالح فيكون غير معيب
ولقل ما تغني اصابة صائب • افعاله افعال غير مصيب

وقال آخر

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها • فاذا انتهت عنه فانت حكيم
فهناك تعذر ان وعظت ويقتدى • بالقول منك ويقبل التعليم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله • عار عليك اذا فعلت عظيم

حكى ابو فروة ان طارقا صاحب شرطة خالد بن عبد الله القسري
مر بابن شبرمة وطارق في موكبه فقال ابن شبرمة

اراها وان كانت تحب فانها • سحابة صيف عن قليل تقشع

اللهم لي ديني ولهم دنياهم فاستعمل ابن شبرمة بعد ذلك على القضاء
فقال له ابنه اتذكر قولك يوم كذا اذ مر بك طارق في موكبه فقال
يا بني انهم يجدون مثل ذلك ولا يجد ابوك مثلهم ان اباك اكل من
حلوائهم فخبط في اهوائهم اما ترى هذا الدين الفاضل كيف عجل
بالتقريع وقوبل بالتوبيخ من اخص ذويه ولعله من ابر بنيه فكيف
بنا ونحن طلق منمحنتنا وافلوح جناننا اذا ارمقتنا اعين المتتبعين
ونثتنا السن المتعنتين هل نجد غير توفيق الله ملاذا وسوى
عصمته معاذا

باب ادب العلم

ان العلم اشرف ما رغب فيه الراغب وافضل ما طلب وجد فيه
الطالب وانفع ما كسبه واقتناه الكاسب لان شرفه ينم على
صاحبه وفضله ينمي عند طالبه • قال الله سبحانه وتعالى
قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون • فمنع سبحانه
من المساواة بين العالم والجاهل لما قد خص به العالم من فضيلة
العلم • وقال الله تعالى وما يعقلها الا العالمون • فنفى ان يكون
غير العالم يعقل عنه امرا او يفهم عنه زجرا • وروي عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال اوحى الله الى ابرهيم اني عليم احب كل
عليم • وروى ابو امامة قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم
عن رجلين احدهما عالم والآخر عابد فقال عليه السلم فضل

العالم على العابد كفضلي على ادناكم رجلا • وقال علي بن ابي طالب رضوان الله عليه الناس ابناء ما يحسنون • وقال مصعب بن الزبير لابنه • تعلم العلم فان يكن لك مال كان لك جمالا وان لم يكن لك مال كان لك العلم مالا • وقال عبد الملك بن مروان لبنيه تعلموا العلم فان كنتم سادة فقتم وان كنتم وسطا سدتم وان كنتم سوقة عشتم • وقال بعض الحكماء العلم شرف لا قدر له والادب مال لا خوف عليه • وقال بعض الادباء العلم افضل خلف والعمل به اكمل شرف • وقال بعض البلغاء تعلم العلم فانه يقومك ويسددك صغيرا ويقدمك ويسودك كبيرا ويصلح زيغك وفاسدك ويرغم عدوك وحاسدك ويقوم عوجك وميلك ويصحح همتك واملك • وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه • قيمة كل امرئ ما يحسن فاخذه الخليل فنظمه شعرا فقال

لا يكون العلي مثل الدني ... لا ولا ذو الذكاء مثل الغبي

الغبي

قيمة المرء قدر ما يحسن المرء ... قضاء من الامام علي

وليس يجهل فضل العلم الا اهل الجهل لان فضل العلم انما يعرف بالعلم وهو ابلغ في فضله لان فضله لا يعلم الا به فلما عدم الجهال العلم الذي به يتوصلون الى فضل العلم جهلوا فضله واسترذلوا اهله

وتوهموا ان ما تميل اليه نفوسهم من الاموال المقتناة والطرف المشتهاة اولى ان يكون اقبالهم عليها واحرى ان يكون اشتغالهم بها وقد قال ابن المعتز في منثور الحكم • العالم يعرف الجاهل لانه كان جاهلا والجاهل لا يعرف العالم لانه لم يكن عالما وهذا صحيح ولاجله انصرفوا عن العلم انصراف الزاهدين وانحرفوا عنه وعنهم انحراف المعاندين لان من جهل شيئا عاداه انشدني ابن لنكك [illegible]

جهلت فعاديت العلوم واهلها • كذاك يعادي العلم من هو جاهله •

ومن كان يهوى ان يرى متصدرا • ويكره لا ادري اصيبت مقاتله •

وقيل لبزرجمهر العلم افضل ام المال فقال بل العلم قال فما بالنا نرى العلماء على ابواب الاغنياء ولا نكاد نرى الاغنياء على ابواب العلماء فقال ذلك لمعرفة

العلماء

بمنفعة المال وجهل الاغنياء بفضل العلم وقيل لبعض الحكماء لم لا يجتمع العلم والمال فقال لعز الكمال وانشدت لبعض اهل العصر

وفي الجهل قبل الموت موت لاهله • فاجسامهم قبل القبور قبور •

وان امرأ لم يحي بالعلم ميت • فليس له حتى النشور نشور •

ووقف عن المتعلمين بباب عالم ثم نادى تصدقوا علينا بما لا يتعب ضرسا ولا يسقم نفسا فاخرج له طعاما ونفقة فقال فاقتي الى

كلامكم اشد من حاجتي الى طعامكم اني طالب هدى لا سائل ندى
فاذن له العالم وافاده من كل ما سال عنه فخرج جذلان فرحا
وهو يقول علم اوضح لبسا خير من مال اغنى نفسا. واعلم ان كل
العلوم شريفة ولكل علم منها فضيلة والاحاطة بجميعها محال
قيل لبعض الحكماء من يعرف كل العلم قال كل الناس.
وروي عن النبي عليه السلم انه قال من ظن ان للعلم غاية فقد
بخسه حظه ووضعه في غير منزلته التي وضعه الله بها حيث
يقول وما اوتيتم من العلم الا قليلا. وقال بعض الحكماء لو كنا
نطلب العلم لنبلغ غايته لكنا قد بدانا العلم بالتقصير ولكنا
نطلبه لننتقص في كل يوم من الجهل ونزداد في كل يوم من العلم
وقال بعض العلماء المتعمق في العلم كالسابح في البحر ليس
يرى ارضا ولا يعرف طولا ولا عرضا. وقيل لحماد الراوية اما
تشبع من هذه العلوم فقال استفرغنا فيها المجهود فلم نبلغ منها
المحدود فنحن كما قال الشاعر. اذا قطعنا علما بدا علم.
وانشدني الرشيد عن المهدي بيتين وقال اراهما له.
يا نفس خوضي بحار العلم او غوصي. فالناس ما بين معموم ومخصوص
لا شيء في هذه الدنيا نحيط به. الا احاطة منقوص بمنقوص

واذا لم يكن الى معرفة العلوم سبيل وجب صرف الاهتمام الى معرفة
اهمها والعناية باولاها وافضلها واولى العلوم وافضلها علم الدين
لان الناس بمعرفته يرشدون وبجهله يضلون اذ لا يصح اداء عبادة
جهل فاعلها صفات ادائها ولم يعلم شروط اجزائها ولذلك قال
النبي صلى الله عليه وسلم فضل العلم خير من فضل العبادة وانما
كان كذلك لان العلم يبعث على فعل العبادة والعبادة مع خلو فاعلها
بها قد لا تكون عبادة فلزم علم الدين كل مكلف. وقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم. وفيه تاويلان
احدهما علم ما لا يسع جهله من العبادات والثاني جملة العلم
اذا لم يقم بطلبه من فيه كفاية. واذا كان علم الدين قد اوجب الله
تعالى فرض بعضه على الاعيان وفرض جميعه على الكافة كان اولى
مما لم يجب فرضه على الاعيان ولا على الكافة. قال الله تعالى
فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا
قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون. روي عن عبد الله بن عمر
رضي الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد
فاذا هو بمجلسين احدهما يذكرون الله والاخر يتفقهون فقال
صلى الله عليه وسلم كلا المجلسين على خير واحدهما احب الي

ابن جناح

من صاحبه. اما هولاء يذكرون الله تعالى ويسألونه فان شاء اعطاهم
وان شاء منعهم. واما المجلس الآخر فيتعلمون الفقه ويعلمون الجاهل
وانما بعثت معلما وجلس الى اهل الفقه. وروى مروان عن يونس
ابن ميسرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال الخير عادة
والشر لجاجة ومن يرد الله تعالى به خيرا يفقهه في الدين. وروى
عن النبي عليه السلم انه قال خيار امتي علماؤها وخيار علمائها فقهاؤها
روى معاذ بن رفاعة عن ابرهيم بن عبد الرحمن العدوي قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله
ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين
وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال على خلفاى قالوا
ومن خلفاؤك قال الذين يحيون سنتي يعلمونها عباد الله. وروى
حميد عن انس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال الفقه في الدين
حق على كل مسلم الا فتعلموا وعلموا وتفقهوا ولا تموتوا جهالا.
وروى سليمان بن يسار عن ابي هريرة ان النبي عليه السلم.
قال ما عبد الله بشيء افضل من فقه في الدين ولفقيه واحد اشد
على الشيطان من الف عابد ولكل شيء عماد وعماد الدين الفقه وربما
مال بعض المتهاونين بالدين الى العلوم العقلية ورأى انها احق

بالفضيلة واولى بالتقدمة استثقالا لما تضمنه الدين من التكليف
واسترذالا لما جاء به الشرع من التعبد والتوقيف والكلام مع مثل
هذا في اصل لا يتسع له هذا الفصل وان يرى ذلك فيمن سلمت فطرته
وصحت رويته لان العقل يمنع من ان يكون الناس هملا او سدى
يعتمدون على آرائهم المختلفة وينقادون لاهوائهم المتشعبة
لما تؤول اليه امورهم من الاختلاف والتنازع وتفضي اليه احوالهم
من التباين والتقاطع فلم يستغنوا عن دين يتألفون به ويتفقون
عليه ثم العقل موجب له او متابع له ولو تصور هذا المختل التصور
ان الدين ضرورة في العقل وان العقل للدين اصل لقصر عن
التقصير واذعن للحق ولكن اهمل نفسه فضل واضل وقد يتعلق
بالدين علوم قد بين الشافعي رضي الله عنه فضيلة كل واحد
منها فقال من تعلم القرآن عظمت قيمته ومن تعلم الفقه نبل
مقداره ومن كتب الحديث قويت حجته ومن تعلم الحساب جزل
رأيه ومن تعلم الغريب رق طبعه ومن لم يصن نفسه لم ينفعه
علمه ولعمري ان صيانة النفس اصل الفضائل لان من اهمل
صيانة نفسه ثقة بما منحه العلم من فضيلته وتوكلا على ما يلتزم
الناس من صيانته سلبوه فضيلة علمه ووسموه بقبيح تبذله فلم

يكف ما اعطاه العلم بما سلبه التبذل لان القبيح اشهر من الجميل
والرذيلة اشهر من الفضيلة اذ الناس لما في طباعهم من بغضه الحسد
ونزاع المنافسة تنصرف عيونهم عن المحاسن الى المساوي فلا ينصفون
محسنا ولا يحابون مسيئا لا سيما من كان بالعلم موسوما واليه
منسوبا فان زلته لا تقال وهفوته لا تعذر. اما القبيح اثرها
واغترار كثير من الناس بها وقد قيل في منثور الحكم زلة العالم
كالسفينة تغرق ويغرق معها خلق كثير وقيل لعيسى بن مريم
عليه السلم من اشد الناس فتنة قال زلة العالم اذا زل هلك
بزلته عالم كثير فهذا وجه واما لان اهل الجهل بذمه اغرى
وعلى تنقصه اجرى ليسلبوه فضيلة التقدم ويمنعوه مباينة
التخصص عنادا لما جهلوه ومقتا لما باينوه لان الجاهل يرى
العلم تكلفا ولوما كما ان العالم يرى الجهل تخلفا وذما وانشد
عن الربيع للشافعي رضي الله عنه

ومنزلة السفيه من الفقيه كمنزلة الفقيه من السفيه
فهذا زاهد في قرب هذا وهذا ازهد منه فيه
اذا غلب الشقاء على سفيه تنقطع في مخالفة الفقيه

وقال يحيى بن خالد لابنه عليك بكل نوع من العلم فخذ منه فان

المرء عدو ما جهله وانا اكره ان تكون عدو شيء من العلم وانشد
وانت عدو للذي انت جاهل به ولعلم انت تتقنه سلم
واذا صان ذو العلم نفسه حق صيانتها ولازم فعل ما يلزمها
امن تعيير الموالي وتنقيص المعادي وجمع الى فضيلة العلم جمال
الصيانة وعز النزاهة صار بالمنزلة التي يستحقها بفضله. وروى
ابو الدرداء رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال العلماء
ورثة الانبياء ان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وانما ورثوا
العلم. وروى ابو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
للانبياء على العلماء فضل درجتين وللعلماء على الشهداء فضل
درجة. وقال بعض البلغاء ان من الشريعة ان تجل اهل الشريعة
ومن الصنيعة ان ترب حسن الصنيعة فينبغي لمن استدل بفطرته
على استحسان الفضائل واستقباح الرذائل ان ينفي عن نفسه
رذائل الجهل بفضائل العلم وغفلة الاهمال باستيقاظ المعاناة
ويرغب في العلم رغبة متحقق لفضائله واثق بمنافعه ولا يلهيه
عن طلبه كثرة مال وجدة ولا نفوذ امر وعلو منزلة فان من
نفذ امره فهو الى العلم احوج ومن علت منزلته فهو بالعلم احق
وروى انس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم

أنه قال إن الحكمة تزيد الشريف شرفاً وترفع العبد المملوك حتى تجلسه مجالس الملوك. وقد قال بعض الأدباء: كل عز لا يوطنه علم مذله، وكل علم لا يؤيده عقل مضلة. وقال بعض علماء السلف: إذا أراد الله بالناس خيراً جعل العلم في ملوكهم والملك في علمائهم. وقال بعض البلغاء: العلم عصمة الملوك لأنه يمنعهم من الظلم ويردهم إلى الحلم ويصدهم عن الأذية ويعطفهم على الرعية، فمن حقهم أن يعرفوا حقه ويستبطنوا أهله. فأما المال فظل زائل وعارية مسترجعة وليس في كثرته فضيلة، ولو كانت فيه فضيلة لخص الله تعالى به من اصطفاه لرسالته واجتباه لنبوته. وقد كان أكثر أنبياء الله مع ما خصهم به من كرامته وفضلهم على سائر خلقه فقراء لا يجدون بلغة ولا يقدرون على شيء حتى صاروا في الفقر مثلاً.

لا يوطده

فقال البحتري:

فقر كفقر الأنبياء وغربة ... وصبابة ليس البلاء بواحد

ولعدم الفضيلة في المال ما منحه الله الكافر وحرمه المؤمن. وقال الشاعر:

كم كافر بالله أمواله ... تزداد أضعافاً على كفره

ومؤمن ليس له درهم ... يزداد إيماناً على فقره

يا لائم الدهر وأفعاله ... مستعجلاً يزري على دهره

الدهر مأمور له آمر ... ينصرف الدهر إلى أمره

وقد بين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فضل ما بين العلم والمال فقال: العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم حاكم والمال محكوم عليه، مات خزان المال وبقي خزان العلم، أعيانهم مفقودة وأشخاصهم في القلوب موجودة. وسئل بعض الحكماء: أيما أفضل المال أم العلم؟ فقال: الجواب عن هذا أيما أفضل المال أم العقل. وقال صالح بن عبد القدوس:

لا خير فيمن كان خير ثيابه ... في الناس فهو لهم غني واجد

وربما امتنع الإنسان عن طلب العلم لكبر سنه واستحيائه من تقصيره في صغره أن يتعلم في كبره، فرضي بالجهل أن يكون موسوماً به وآثره على العلم أن يصير مبتدئاً به، وهذا من خدع الجهل وغرور الكسل، لأن العلم إذا كان فضيلة فرغبة ذوي الأسنان فيه أولى، والابتداء بالفضيلة فضيلة، ولأن يكون شيخاً متعلماً أولى من أن يكون شيخاً جاهلاً. حكي عن بعض الحكماء أنه رأى شيخاً يحب النظر في العلم ويستحي فقال: يا هذا أتستحي أن تكون في آخر عمرك أفضل مما كنت في أوله. وذكر أن إبراهيم بن المهدي دخل على المأمون وعنده جماعة يتكلمون في الفقه فقال: يا عم ما عندك فيما يقول هؤلاء؟ فقال: يا أمير المؤمنين شغلونا في

ذا

بالعلم

وقال النبي صلى الله عليه وسلم إن الملائكة لتضع أجنحتها
لطالب العلم رضى بما يطلب وربما منع السفاهة من طلب العلم
أن يتصور في نفسه حرفة أهله وتضايق الأمور مع الاشتغال به
حتى يسمهم بالادبار ويتوسمهم بالحرمان فان رأى محروما تطير منها
وإن وجد كاملا أعرض عنه وإن رأى متخلفا هرب منه كأنه لم ير
عالما مقبلا وجاهلا مدبرا ولقد رأيت من هذه الطبقة جماعة
ذوي منازل وأحوال كنت أخفي عنهم ما يصحبني من محبرة وكتاب
لئلا أكون عندهم مستثقلا وإن كان البعد منهم مونسا ومصلحا
والقرب منهم موحشا ومفسدا • وقد قال بزرجمهر الجهل في القلب
كالنز في الأرض يفسد ما حوله • ولكن اتبعت فيهم الحديث المروي
عن أبي الأشعث عن أبي عثمان عن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه
قال خالطوا الناس بأخلاقهم وخالفوهم في أعمالهم • ولذلك قال بعض
البلغاء رب جهل وقيت به علما وسفه حميت به حلما • وهذه الطبقة
ممن لا يرجى لها صلاح ولا يؤمل لها فلاح لأن من اعتقد أن العلم
شين وأن تركه زين وأن للجهل إقبالا مجديا وللعلم إدبارا مكديا
كان ضلاله مستحكما ورشاده مستبعدا وكان هو الخامس
الهالك الذي قال فيه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه • اغد عالما

أو متعلما أو مستمعا أو محبا ولا تكن الخامس فتهلك • وقد رواه خالد
الحذاء عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن النبي صلى الله عليه وسلم مسندا
وليس لمن هذه حاله في العذل نفع ولا في الاستصلاح مطمع وقد قيل
لبزرجمهر ما لكم لا تعاتبون الجهال فقال إنا لا نكلف العمي أن يبصروا
ولا الصم أن يسمعوا • وهذه الطائفة التي تنفر من العلم هذا النفور
وتعاند أهله هذا العناد ترى العقل بهذه المثابة وتنفر من العقلاء
هذا النفور وتعتقد أن العاقل محارف وأن الأحمق محظوظ وناهيك
بضلال من هذا اعتقاده في العقل والعلم هل يكون للخير أهلا
وللفضيلة موضعا • وقد قال بعض البلغاء أخبث الناس المساوي
بين المحاسن والمساوي • وعلة هذا أنهم رأوا عاقلا غير محظوظ
عالما غير مرزوق فظنوا أن العلم والعقل هما السبب في قلة رزقه
وحظه وقد انصرفت عيونهم عن حرمان أكثر النوكى وإدبار أكثر
الجهال لأن في العقلاء والعلماء قلة وعليهم من فضلهم سمة ولذلك
قيل العلماء غرباء لكثرة الجهال فإذا ظهرت سمة فضلهم وصادف
ذلك قلة حظ بعضهم توهموا بالتمييز واشتهروا بالتعيين فصاروا
مقصودين بإشارة المتعنتين ملحوظين بإيماء الشامتين والجهال
والحمقى لما كثروا ولم يتخصصوا انصرفت عنهم النفوس فلم يلحظ

والاعراض والاجسام القابا تواضعوها لمعان اتفقوا عليها ولست
تجد من العلوم علما يخلو من هذا. وهذه المواضعة العامة
تسمى عرفا. واما الخاصة فمواضعة الواحد بقصد باطن كلامه
غير ظاهره فان كانت في الكلام كانت رمزا وان كانت في الشعر
كانت لغزا فاما الرمز فلست تجده في علم معنوي ولا في كلام
لغوي وانما يختص غالبا باحد شيئين اما بمذهب شنيع يخفيه
معتقده ويجعل الرمز به سببا لتطلع النفوس اليه واحتمال
التاويل فيه سببا لدفع التهمة عنه واما لما يدعيه اربابه انه علم
معوز وان ادراكه مدفع معجز كالصنعة التي وضعها اربابها
اسما لعلم الكيمياء فرمزوا باوصافه واخفوا معانيه ليوهموا
الشح به والاسف عليه خديعة للعقول الواهية والآراء الفاسدة
وقال الشاعر
منعت شيئا فاكثرت الولوع به ∴ احب شيء الى الانسان ما منعا ∴
ثم ليكونوا براء من عهدة ما قالوا اذا جرب ولو كان ما تضمن هذان
النوعان واشباههما الرمز معنى صحيحا وعلما مستفادا لخرج
من الرمز الخفي الى العلم الجلي فان اغراض الناس مع اختلاف
اهوائهم لا تتفق على ستر سليم واخفاء مفيد. وقد قال زهير
الستر دون الفاحشات ولا ∴ يلقاك دون الخير من ستر ∴

وربما استعمل الرمز من الكلام فيما يراد تفخيمه من المعاني وتعظيمه
من الالفاظ ليكون اجلى في القلوب موقعا واجل في النفوس موضعا
فيصير بالرمز سائرا وفي الصحف مجلدا كالذي حكي عن فيثاغورس
في وصاياه المرموزة انه قال احفظ ميزانك من الندى واوزانك
من الصدى يريد بحفظ الميزان من الندى حفظ اللسان من الخنا
وبحفظ الاوزان من الصدى حفظ العقل من الهوى فصار بهذا
الرمز مستحسنا ومدونا ولو قاله باللفظ الصريح والمعنى
الفصيح لما ساوغنه ولا استحسن منه وعلة ذلك ان المحجوب
عن الافهام كالمحجوب عن الابصار فيما يحصل له في النفوس من
التعظيم وفي القلوب من التفخيم وما ظهر منها ولم يحتجب هان
واسترذل وهذا انما يصح استجلاؤه فيما قل وهو باللفظ الصريح
مستثقل. فاما العلوم المنتشرة التي تتطلع النفوس اليها فقد
استغنت بقوة الباعث عليها وشدة الاستدعاء اليها عن الاستدعاء
اليها برمز مستخرج او لفظ مستغرب بل ذلك منفر عنها لما في
الاشتغال باستخراج رموزها من الابطاء عن دركها وتصور معانيها
فهذا حال الرمز واما اللغز فهو تحري اهل الفراغ وشغل ذوي
البطالة ليتنافسوا في تباين قرائحهم ويتفاخروا في سرعة خواطرهم

قد

فيستكد الخواطر منحوا صحتها فيما لا يجدي نفعا ولا يفيد علما
فهم كأهل الصراع الذين قد صرفوا ما منحوه من صحة أجسادهم إلى
صراع الكدود بصرع عقولهم ويهد أجسامهم لا يكسبهم حمدا ولا يجدي
عليهم نفعا انظر إلى قول الشاعر حيث يقول

رجل مات وخلى رجلا ابن ام ابن اخي اخت ابيه
معه ام بني اولاده وابا اخت بني عم اخيه

أخبرني عن هذين البيتين وقد روي على صعوبة ما تضمنها من السؤال
إذا استكد الفكر في استخراجه فعلمت أنه أراد ميتا خلف أبا
وزوجة وعما أما الذي أفادك من العلم ونفى عنك من الجهل أليس
بعد علمه تجهل ما كنت جاهلا من قبله ولو أن السائل قلب لك
السؤال فأخر ما قدم وقدم ما أخر لكنت في الجهل به قبل استخراجه
كما كنت في الجهل بالأول وقد كد فكرك وأتعبت خاطرك ثم لا
تعدم أن يرد عليك مثل هذا مما تجهله فتكون فيه كما كنت فيما قبله
فاصرف نفسك تولى الله رشدك عن علوم التوكي وتكلف البطالين
فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن من حسن إسلام
المرء تركه ما لا يعنيه ثم اجعل ما من الله به عليك من صحة
القريحة وسرعة الخاطر مصروفا إلى علم ما يكون إنفاق خاطرك

فيه مذخورا وكد فكرك فيه مشكورا فقد روى سعيد بن هند عن
ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعمتان مغبون
فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ ونحن نستعيذ الله من
أن نغبن فضل نعمته علينا ونجهل نفع إحسانه إلينا وقد قيل
في منثور الحكم في الفراغ تكون الصبوة وقال بعض البلغاء
من مضى يومه في غير حق قضاه أو فرض أداه أو مجد أثله أو حمد
حصله أو خير أسسه أو علم اقتبسه فقد عق يومه وظلم نفسه

وقال الشاعر

لقد هاج الفراغ عليك شغلا وأسباب البلاء من الفراغ

فهذا تعليل ما في الكلام من الأسباب المانعة من فهم معانيه حتى
خرج بنا الاستيفاء إلى الإطالة والكشف إلى الإغماض وأما
القسم الثاني وهو أن يكون السبب المانع من فهم السامع لعلة في المعنى
المستودع فلا تخلو حال المعنى من ثلاثة أقسام إما أن يكون مستقلا
بنفسه أو يكون مقدمة لغيره أو يكون نتيجة من غيره فأما المستقل
بنفسه فضربان جلي وخفي فأما الجلي فهو يسبق إلى فهم
متصوره من أول وهلة وليس هذا من أقسام ما يشكل على ذي
تصور وأما الخفي فيحتاج في إدراكه إلى زيادة تأمل وفضل
معاناة ليتجلى عما اخفي وينكشف عما اغمض وباستعمال الفكر فيه

يكون الارتياض به والارتياض به يسهل منه ما استصعب ويقرب
منه ما بعد فان للرياضة جراة وللدربة تأثيرا • واما ما كان
مقدمة لغيره فضربان احدهما ان تقوم المقدمة بنفسها وان
تعدت الى غيرها فتكون كالمستقل بنفسه في تصوره وفهمه وان
كان مستدعيا لنتيجه • والثاني ان تكون مفتقرة الى نتيجه
فيتعذر فهم المقدمة الا بما يتقدمها من النتيجة لانها تكون بعضا
منه وتبعيض المعنى اشكل له وبعضه لا يغني عن كله • ولما ما كان
نتيجة لغيره فهو لا يدرك الا باوله ولا يتصور الوقوف على حقيقته
الا بمقدمته والاشتغال به قبل المقدمة عناء واتعاب الفكر
في استنباطه قبل قاعدته اذاة فهذا يوضح تعليلك ما في المعاني
من الاسباب المانعة من فهمها • واما القسم الثالث وهو ان يكون
السبب المانع لعلة في المستمع فذلك ضربان احدهما من ذاته •
والثاني من طارئ طرا عليه فاما ما كان من ذاته فيتنوع نوعين
احدهما ما كان مانعا من تصور المعنى وفهمه • والثاني ما كان مانعا
من حفظه بعد تصوره وفهمه فاما المانع من تصور المعنى وفهمه
فهو البلادة وقلة الفطنة وهو الغباء وقد قال بعض العلماء اذا فقد
العالم الذهن قل على الاضداد احتجاجه وكثر الى الكتب احتياجه

اذى

الداء

وليس لمن بلي به الا الصبر والاقلال لانه على القليل اقدر وبالصبر
احرى ان ينال ويظفر وقد قال بعض الحكماء قدم لحاجتك بعض
حاجتك وليس يقدر على الصبر من هذه حاله الا ان يكون غالب
الشهوة بعيد الهمة فيستعر قلبه الصبر لقلة شهوته ويكلف مع
حد الاحتمال التعب لبعد همته فاذا تلوح له المعنى بمساعدة الشهوة
اعقبه ذلك الحاح الآملين ونشاط المدركين فقل عنده كل كثير
وسهل عليه كل عسير • وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم انكم لا
تنالون ما تحبون الا بالصبر على ما تكرهون ولا تبلغون ما تهوون
الا بترك ما تشتهون • وقيل في منثور الحكم اتعب قدمك فكم تعب
قدمك • وقال بعض البلغاء اذا اشتد الكلف هانت الكلف
وانشد بعض اهل الادب مما ذكر انه لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه

لا تعجزن ولا يدخلك مضجرة ❁ فالنجح يهلك بين العجز والضجر ❁

المانع من حفظه بعد تصوره وفهمه فهو النسيان الحادث عن غفلة
التقصير واهمال التواني فينبغي لمن بلي به ان يستدرك تقصيره
بكثرة الدرس ويوقظ غفلته بادامة النظر فقد قيل لن يدرك
العلم من لا يطيل درسه ويكد نفسه وكثرة الدرس كدود لا يصبر
عليه الا من يرى العلم مغنما والجهالة مغرما فيحتمل تعب الدرس

ليدرك راحة العلم وينفي معرة الجهل فان نيل العظيم بامر عظيم
وعلى قدر الرغبة يكون الطلب وبحسب الراحة يكون التعب وقد قيل
علة الراحة قلة الاستراحة. وقال بعض الحكماء اكمل الراحة
ما كانت عن كد التعب واعز العلم ما كان عن ذل الطلب وربما
استثقل المتعلم الدرس والحفظ واتكل بعد فهم المعاني على
الرجوع الى الكتب والمطالعة فيها عند الحاجة اليها فلا يكون الا كمن
اطلق ما صاده ثقة بالقدرة عليه بعد الامتناع منه فلا تعقبه
الثقة الا خجلا والتفريط الا ندما وهذه حال قد يدعو اليها احد
ثلثة اشياء اما الضجر من معاناة الحفظ ومراعاته او طول الامل
في التوفر عليه عند نشاطه او فساد الراي في عزيمته وليس يعلم ان
الضجور خايب وان الطويل الامل مغرور وان الفاسد الراي مصاب
والعرب تقول في امثالها حرف في قلبك خير من الف في كتبك.
وقالوا لا خير في علم لا يعبر معك الوادي ولا يعمر بك النادي
وانشدت عن الربيع للشافعي رضي الله عنه

علمي معي حيثما يممت ينفعني. قلبي وعاء له لا بطن صندوق.
ان كنت في البيت كان العلم فيه معي. او كنت في السوق كان العلم في السوق.

وربما اعتنى المتعلم بالحفظ من غير تصور ولا فهم حتى يصير حافظا

لالفاظ المعاني قيما بتلاوتها وهو لا يتصورها ولا يفهم ما تضمنته
يروي بغير روية ويخبر عن غير خبرة فهو كالكتاب الذي لا يدفع
شبهة ولا يويد حجة. وقد روي عن النبي عليه السلم انه قال
همة السفهاء الرواية وهمة العلماء الرعاية. وقال ابن مسعود
كونوا للعلم رعاة ولا تكونوا رواة فقد يرعوي من لا يروي ويروي من
لا يرعوي. وحدث الحسن البصري بحديث فقال له رجل يا ابا سعيد
عمن قال ما تصنع بعمن اما انت فقد نالتك عظته وقامت عليك حجته
وربما اعتمد على حفظه وتصوره واغفل تقييد العلم في كتبه ثقة
بما استقر في نفسه وهذا خطا منه لان الشك معترض
والنسيان طاري. وقد روى انس بن مالك عن النبي صلى الله
عليه وسلم انه قال قيدوا العلم بالكتاب. وروي ان رجلا
شكا الى النبي عليه السلم النسيان فقال استعمل يدك اي
اكتب حتى ترجع اذا نسيت الى ما كتبت. وقال الخليل بن احمد
اجعل ما في الكتب راس المال وما في قلبك النفقة. وقال مهبود
لولا ما عقدته الكتب من تجارب الاولين لانحل مع النسيان
عقود الاخرين. وقال بعض الادباء ان هذه الاداب نوافر
تند عن عقل الاذهان فاجعلوا الكتب عنها حماة والاقلام لها رعاة

وأما الطارئ فنوعان أحدهما شبهة تعترض المعنى فتمنع من
تصوره وتدفع عن إدراك حقيقته فينبغي أن يزيل تلك الشبهة
عن نفسه بالسؤال والنظر ليصل إلى تصور المعنى وإدراك حقيقته
ولذلك قال بعض العلماء لا تخل قلبك من المذاكرة فيعود عقيما
ولا تعف طبعك من المناظرة فيصير سقيما. وقال بشار بن برد
شفاء العمى طول السؤال وإنما ... دوام العمى طول السكوت على الجهل
والثاني أفكار تعارض الخاطر فيذهل عن تصور المعنى وهذا
سبب قل ما يعرى منه أحد لا سيما من انبسطت آماله واتسعت
أمانيه وقد يقل فيمن لم يكن له في غير العلم أرب ولا فيما سواه همة
فإن طرأت على الإنسان لم يقدر على مكابرة نفسه على الفهم وغلبة
قلبه على التصور لأن القلب مع الإكراه أشد نفورا وأبعد قبولا
وقد جاء في الأثر أن القلب إذا أكره عمي ولكن يعمل في دفع ما طرأ
عليه من هم مذهل أو فكر قاطع ليستجيب له القلب مطيعا وقد قال
الشاعر وليس بمغن في المودة شافع ... إذا لم يكن بين الضلوع شفيع
وقال بعض الحكماء إن هذه القلوب تنافر كتنافر الوحش فتألفوها
بالاقتصاد في التعليم والتوسط في التقويم لتحسن طاعتها ويدوم
نشاطها فهذا تعليل ما في المستمع من الأسباب المانعة من فهم

طرأت

المعاني وهاهنا قسم رابع يمنع من معرفة الكلام وفهم معانيه
ولكنه قد يعرى من بعض الكلام فلذلك لم ندخله في جملة أقسامه ولم
نستجز الإخلال بذكره وهو الخط لأن في الكلام ما كان مسموعا
لا يحتاج في فهمه إلى تأمل الخط به والمانع من فهمه هو على ما ذكرنا
من أقسامه ومنه ما كان مستودعا بالخط محفوظا بالكتابة
مأخوذا بالاستخراج فكان الخط حافظا له ومعبرا عنه وقد
روي عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى أو أثارة من علم
قال الخط وعن مجاهد في قوله تعالى يؤتي الحكمة من يشاء ومن
يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا يعني الخط والعرب تقول
الخط أحد اللسانين وحسنه إحدى الفصاحتين. وقال
جعفر بن يحيى الخط سمط الحكمة به تفصل شذورها وينظم
منثورها. وقال ابن المقفع اللسان مقصور على القريب الحاضر
والقلم على الشاهد والغائب وهو للغابر الكائن مثله للقائم
الراهن. وقال حكيم الروم الخط هندسة روحانية وإن
ظهر بآلة جسدانية. وقال حكيم العرب الخط أصل في
الروح وإن ظهر بحواس الجسد. واختلف في أول من كتب الخط
فذكر كعب الأحبار أن أول من كتب آدم عليه السلم كتب سائر الكتب

قبل موته بثلثمائة سنة في طين ثم طبخه فلما غرقت الارض في زمان نوح
بقيت الكتابة فاصاب كل قوم كتابهم وبقي الكتاب العربي الى ان خص
الله تعالى به اسمعيل فاصابها وتعلمها وحكى ابن قتيبة ان اول
من كتب ادريس وكانت العرب تعظم قدر الخط وتعده من اجل نفع
حتى قال عكرمة بلغ فداء اهل بدر اربعة الاف درهم حتى ان الرجل
ليفادي على ان يعلم الخط لما هو مستقر في نفوسهم من عظم خطره
وجلالة قدره وظهور اثره ونفعه وقد قال الله تعالى لنبيه عليه
السلم اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم فوصف نفسه بان علم بالقلم
كما وصف نفسه بالكرم واعتد بذلك من نعمه العظام ومن اياديه
الجسام حتى اقسم به في كتابه فقال سبحانه ن والقلم وما يسطرون
واقسم بالقلم كما اقسم بما يخط بالقلم واختلف في اول من كتب بالعربية
فذكر كعب الاحبار ان اول من كتب بها آدم عليه السلم ثم وجدها
بعد الطوفان اسمعيل عليه السلم على لفظه ومنطقه وحكى
عروة بن الزبير ان اول من كتب بها قوم من الاوايل اسماؤهم ابجد
وهوز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت وكانوا ملوك مدين
وحكى ابن قتيبة في المعارف ان اول من كتب بالعربي مرامر بن مروة
من اهل الانبار ومن الانبار انتشر وحكى المدايني ان اول من

كتب بها مرامر بن مروة واسلم ابن سدرة وعامر بن جدرة فمرامر وضع
الصور واسلم فصل وعامر وضع الاعجام ولما كان الخط بهذه
الحال وجب على من اراد العلم ان يعتني بامرين احدهما تقويم الحروف
على اشكالها الموضوعة لها والثاني ضبط ما اشتبه منها بالنقط
والاشكال المميزة لها ثم ما زاد على هذين من تحسين الخط وملاحة نظمه
فانما هو زيادة حذق بصنعته وليس بشرط في صحته وقد قال
علي بن عبيدة حسن الخط لسان اليد وبهجة الضمير وقال
ابو العباس المبرد رداءة الخط زمانة الادب وقال عبد الحميد
البيان في اللسان والبنان وانشدني بعض اهل العلم لاحد شعراء البصرة

اعذر اخاك على رداءة خطه • واغفر رداءته لجودة ضبطه •
واعلم بان الخط ليس يراد من • تركيبه الا تبين سمطه •
فاذا ابان عن المعاني لم يكن • تحسينه الا زيادة شرطه •

ومحل ما زاد على الخط المفهوم من تصحيح الحروف وحسن الصور
محل ما زاد على الكلام المفهوم من فصاحة الالفاظ وصحة الاعراب
ولذلك قالت العرب حسن الخط احدى الفصاحتين وكما انه
لا يعذر من اراد التقدم في الكلام ان يطرح الفصاحة والاعراب
وان فهم وافهم كذلك لا يعذر من اراد التقدم في الخط ان يطرح تصحيح

الحروف وتحسين الصور وان فهم وافهم وربما تقدم بالخط من كان
الخط جل فضايله واشرف خصايله حتى صار علماً مشهوراً وسنداً
مذكوراً غير ان العلماء اطرحوا صرف الهمة الى تحسين الخط لانه
يشغلهم من العلم ويقطعهم عن التوفر عليه وكذلك تجد خطوط العلماء
في الاغلب رديه الا من اسعده القضاء وقد قال الفضل
ابن سهل من سعادة المرء ان يكون ردي الخط لان الزمان
الذي يفنيه بالكتابة يشغله بالحفظ والنظر وليست رداءة الخط
هي السعادة وانما السعادة ان لا يكون له صارف عن العلم وعادة
ذي الخط الحسن ان يتشاغل بتحسين خطه عن العلم فمن هذا الوجه
صار برداءة خطه سعيداً وان لم تكن رداءة الخط سعادة فاذا
كان ذلك كذلك يعرض للخط اسباب تمنع من قراءته ومعرفته
كما يعرض للكلام اسباب تمنع من فهمه وصحته والاسباب المانعة
من قراءة الخط وفهم ما تضمنه قد يكون من ثمانية اوجه احدها
اسقاط الفاظ من اثناء الكلام يصير الباقي بها مبتوراً لا يعرف
استخراجه ولا يفهم معناه وهذا يكون اما من سهو الكاتب واما
من فساد نقله وهذا يسهل استنباطه على من كان مرتاضاً
بذلك النوع فيستدل بحواشي الكلام وما سلم منه على ما سقط او فسد

لا سيما اذا قل لان الكلمة تستدعي ما يليها ومعرفة المعنى توضح
عن الكلام المترجم عنه فاما من كان قليل الارتياض بذلك النوع
فانه يصعب عليه استنباط المعنى منه لا سيما اذا كان كثيراً لانه
يحتاج في فهم المعاني الى الفكر والروية فيما قد استخرجه بالكتبة واذا
هو لم يعرف تمام الكلام المترجم عن المعاني قصر فهمه عن ادراكه وضل
فكره عن استنباطه والوجه الثاني زيادة الفاظ في اثناء الكلام
تشكل بها معرفة الصحيح عن الزايد من معرفة السقيم الزايد فيصير
الكل مشكلاً وهذا لا يكاد يوجد كثيراً الا ان يقصد الكاتب تعمية
كلامه فيدخل في اثنائه ما يمنع من فهمه فيصير ذلك رمزاً يعرف
بالمواضعة • فاما وقوعه سهواً فقد يكون بالكلمة والكلمتين
وذلك لا يمنع من فهمه على المرتاض وغيره • والوجه الثالث
اسقاط حروف من اثناء الكلمة يمنع من استخراجها على الصحة وقد
يكون هذا تارة من السهو فيقل وتارة من ضعف الهجاء فيكثر والقول
فيه كالقول في الوجه الاول • والوجه الرابع زيادة حروف في
اثناء الكلمة يشكل بها معرفة الصحيح من حروفها وهذا يكون
تارة من سهو الكاتب فيقل ولا يمنع من استخراج الصحيح • ويكون
تارة لتعمية ومواضعة يقصد بها الكاتب اخفاء غرضه فيكثر

كالتراجم ويكون القول فيه كالقول في الوجه الثاني والوجه الخامس
وصل الحروف المفصولة وفصل الحروف الموصولة فيدعو ذلك الى
الاشكال لان الكلمة يتنبه عليها وصل حروفها ويمنع فصلها من
مشاركة غيرها فان كان ذلك من سهو فسهل استخراجه وان
كان ذلك قلة معرفة بالخط او مشقا يسبق به اليد كثر فصعب
استخراجه الا على المرتاض به ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله
عنه شر الكتابة المشق كما شر القراءة الهذرمة وان كان للتعمية
والرمز لم يعرف الا بالمواضعة والوجه السادس تغيير الحروف
عن اشكالها وابدالها باغيارها حتى يكتب الحاء على شكل الباء والصاد على
شكل الراء وهذا يكون في رموز التراجم لا يوقف عليه الا بالمواضعة
الا لمن زاد فيه الذكاء فيقدر على استخراج المعمى والوجه السابع
ضعف الخط عن تقويم الحروف على الاشكال الصحيحة واثباتها على
الاوصاف الحقيقية حتى لا تكاد الحروف تمتاز عن اغيارها حتى
تصير الموصولة كالفاء والمفصولة كالجاء وهذا يكون من رداءة الخط
وضعف اليد واستخراج ذلك ممكن بفضل المعاناة وشدة التامل
وان كان ربما اضجر قارئه واوهى معاناته ولذلك قيل ان الخط الحسن
ليزيد الحق وضوحا والوجه الثامن اغفال النقط والاشكال

قل

العين

التي تتميز بها الحروف المشتبهة وهذا ايسر امرا واخف حالا
لان من كان متميزا بصحة الاستخراج ومعرفة الخط لم يخف عليه
معرفة الخط وفهم ما تضمنه مع اغفال النقط والاشكال بل قد
استقبح الكتاب ذلك في المكاتبات ورأوه من تقصير الكاتب او سوء
ظنه بفهم المكاتب وكان استقباحهم له في مكاتبة الرؤساء اكثر
وقد حكى قدامة بن جعفر ان بعض كتاب الدواوين حاسب عاملا
فشكى العامل منه الى عبيد الله بن سليمان وكتب رقعة يذكر فيها
احتجاجا لصحة دعواه ووضوح شكواه فوقع فيها عبيد الله بن سليمان
هذا هذا فاخذها العامل وقراها فظن ان عبيد الله اراد هذا
هذا اثباتا لصحة دعواه وصدق قوله كما يقال في اثبات الشيء هو
هو فحمل الرقعة الى الديوان واراه خط عبيد الله وقال ان عبيد الله
قد صدق قولي وصحح ما ذكرت فخفي على الكاتب ذلك فاطيف به
على ارباب الدواوين فلم يقفوا على مراد عبيد الله فرد اليه ليسال
عن مراده به فشدد عبيد الله الكلمة الثانية وكتب تحتها والله
المستعان استعظاما منه لتقصيرهم في استخراج مراده حتى
احتاج الى اثباته بالشكل فهذا حال الكتاب في استقباحهم اعجام
المكاتبات بالنقط والاشكال فاما غير المكاتبات من سائر العلوم

كاتب

فلم يروه قبيحا بل استحسنوه لا سيما في كتب الادب التي يقصد بها
معرفة صيغة الالفاظ وكيفية مخارجها مثل كتب النحو واللغة
والشعر والغريب فان الحاجة الى ضبطها بالشكل والاعجام
اكثر وهي مما سواه من العلوم ايسر • وقد قال الثوري الخطوط
المعجمة كالبرود المعلمة وقال بعض البلغاء اعجام الخط يمنع
من استعجامه وشكله يومن من اشكاله • وقال بعض الادباء
رب علم لم تعجم فصوله فاستعجم محصوله وكما استقبح الكتاب
الشكل والاعجام في المكاتبات وان كان في كتب العلوم مستحسنا
فكذلك استحسنوا مشق الخط في المكاتبات وان كان في العلوم
مستقبحا وسبب ذلك انهم لفرط ادلالهم بالصنعة وتقدمهم في
الكتابة يكتفون بالاشارة ويقتصرون على التلويح ويرون الحاجة
الى استيفاء شروط الابانة تقصيرا والفضل ما يعتقدونه من
التقدم بهذه الحال وراوا ما نبه عليه من سواد المداد اثرا جميلا
وعلى الفضل والتخصيص دليلا • وحكي ان عبيد الله بن سليمان
رأى على بعض ثيابه اثر صفرة فاخذ من مداد الدواة فطلاه ثم
قال المداد بنا احسن من الزعفران وانشد •••

••• إنما الزعفران عطر العذارى ومداد الدواة عطر الرجال •••

فهذه جملة كافية في الابانة عن الاسباب المانعة من فهم الكلام ومعرفة
معانيه لفظا كان او خطا والله ولي التوفيق • فينبغي لطالب العلم
ان يكشف عن الاسباب المانعة ان تعذر عليه المعنى ليسهل عليه
الوصول اليه ثم يكون من بعد ذلك سائسا لنفسه مدبرا لها في حال
التعلم فان للنفس نفورا يفضي الى تقصير ووفورا يؤول الى سرف
وقيادها عسر ولها احوال ثلث حال عدل وانصاف وحال
غلو واسراف وحال تقصير واجحاف • فاما حال العدل والانصاف
فهي ان تختلف قوى النفس من وجهين متقابلين طاعة مستعدة
وشفقة كافة فطاعتها تمنع من التقصير وشفقتها تصد عن
السرف وهذه احمد الاحوال لان ما منع من التقصير نام
وما صد عن السرف مستديم والنمو اذا استدام فاخلق به ان
يستكمل • وقال بعض الحكماء اياك ومفارقة الاعتدال فان المسرف
مثل المقصر في الخروج عن الحد • واما حال الغلو والاسراف
فهي ان تختص النفس بقوى الطاعة وتعدم قوى الشفقة فيبعثها اختصاص
الطاعة على افراغ الجهد ويفضي الى الترك والاهمال فيصير الزيادة
نقصانا والربح خسرانا وقد قالت الحكماء طالب العلم وعامل البر
كآكل الطعام ان اخذ منه قوتا عصمه وان اسرف فيه ابشمه وربما

فهم

فاخلق

بما افرغ الجهد الى عجز الكلال
فيؤديه بما اعجز الى الكلال

كانت فيه منيته كالآخذ للأدوية التي القصد فيها الشفاء ومجاوزة
الحد فيها السم المميت • وأما حال التقصير والإجحاف فهي أن
تخص النفس بقوى الشفقة وتعدم قوى الطاعة فيدعوها
الإشفاق إلى المعصية وتمنعها المعصية من الإجابة فلا تطلب
شاردًا ولا تقبل عائدًا ولا تحفظ مستودعًا ومن لم يطلب الشارد
ويقبل العائد ويحفظ المستودع فقد الموجود ولم يجد المفقود
ومن فقد ما وجد فهو مصاب محزون ومن لم يجد ما فقد فهو
خائب مغبون • وقد قال بعض الحكماء العجز مع الواني والفوت
مع التواني وقد تكون للنفس مع الأحوال الثلث حالتان مشتركتان
بغلبة إحدى القوتين فيكون للنفس طاعة وإشفاق وإحداهما
أغلب من الأخرى فإن كانت الطاعة أغلب كانت إلى الوفور المجاوز
أميل وإن كان الإشفاق أغلب كانت إلى التقصير المقصر به أقرب
فإذا عرف من نفسه قدر طاعتها وخبر منها كنه شفقتها راض نفسه
ليلبث على أحمد حالاتها وقد أشار إلى ما وصفناه من حال الفرزدق
في قوله
• لكل امرئ نفسان نفس كريمة وأخرى يعاصيها الفتى ويطيعها •
• ونفسك من نفسيك تشفع للندى إذا قل من أحرارهن شفيعها •
فإن أهمل سياستها وأغفل رياضتها ورام أن يأخذها بالعنف ويقهرها

بالعسف استشاطت نافرة ولجت معاندة فلم تنقد إلى طاعة ولم
تكف عن معصية • وقد قال سابق البربري
❀ إذا جرت لجوجًا ردته علقًا ولجت النفس منه في تماديها ❀
❀ فعد عليه إذا ما نفسه جمحت باللين منك فإن اللين يثنيها ❀
فإن استصعب عليه قياد نفسه ودام منه نفور قلبه مع سياستها
ومعاناة رياضتها تركها ترك إراحة ثم عاد بها بعد الاستراحة
فإن إجابتها أسرع وطاعتها أرجع • وقد روي عن النبي عليه
السلم أنه قال إن القلوب تموت وتحيى ولو بعد حين • وقال ابن
مسعود للقلوب شهوة وإقبال وفترة وإدبار فأتوها من قبل شهوتها
ولا تأتوها من قبل فترتها • وقد قال الشاعر
❀ وما سمي الإنسان إلا لأنسه ولا القلب إلا أنه يتقلب ❀
وأما الشروط التي تتوفر بها علم الطالب وينتهي معها كمال الراغب
معما يلاحظ به من التوفيق ويمد به من المعونة فتسعة شروط
أحدها العقل الذي يدرك به حقائق الأمور • والثاني الفطنة
التي يتصور بها غوامض العلوم • والثالث الذكاء الذي يستقر به
حفظ ما تصوره وفهم ما علمه • والرابع الشهوة التي يدوم بها الطلب
ولا يسرع إليه الملل • والخامس الاكتفاء بمادة تغنيه عن كلف

الطلب • والسادس الفراغ الذي يكون معه التوفر ويحصل به الاستكثار
والسابع عدم القواطع المذهلة من هموم واشغال وامراض • والثامن
طول العمر واتساع المدة لينتهي بالاستكثار الى مراتب الكمال
والتاسع الظفر بعالم سمح بعلمه متأن في تعليمه • فاذا استكمل
هذه الشروط التسعة فهو اسعد طالب وانجح متعلم وقد قال
الاسكندر يحتاج طالب العلم الى اربع مدة وجدة وقريحة وشهوة
وتمامها في الخامس معلم ناصح

جدة

فصل

وسأذكر طرفا مما يتأدب
به المتعلم ويكون عليه العالم • اعلم ان للمتعلم في زمان تعلمه تملقا
وتذللا ان استعملهما غنم وان تركهما حرم لان تملق العالم يظهر
مكنون علمه والتذلل له سبب لادامة صبره وباظهار مكنونه
تكون الفائدة وباستدامة صبره يكون الاكثار • وقد روى معاذ
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ليس من اخلاق المؤمن
الملق الا في طلب العلم • وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنه ذللت
طالبا فعززت مطلوبا • وقال بعض الحكماء من لم يتحمل ذل التعلم
ساعة بقي في ذل الجهل ابدا • وقال بعض حكماء الفرس اذا قعدت
وانت صغير حيث تحب قعدت وانت كبير حيث لا تحب ثم ليعرف
له فضل علمه وليشكر له جميل فعله • فقد روت عائشة رضي الله عنها

عن النبي عليه السلام انه قال من وقر عالما فقد وقر ربه • وقال علي
ابن ابي طالب كرم الله وجهه لا يعرف فضل اهل الفضل الا اهل
الفضل • وقال بعض الشعراء •

ان المعلم والطبيب كلاهما • لا ينصحان اذا هما لم يكرما •
فاصبر لدائك ان جفوت طبيبه • واصبر لجهلك ان جفوت معلما •

ولا يمنعه من ذلك علو منزلة ان كانت له وان كان العلم خاملا
فان العلماء بعلمهم استحقوا التعظيم لا بالقدرة والمال • انشدني
بعض اهل الادب لابي بكر بن دريد رحمه الله •

لا تحقرن عالما وان خلقت • اثوابه في عيون رامقه •
وانظر اليه بعين ذي ادب • مهذب الرأي في طرائقه •
فالمسك بينا تراه ممتهنا • بفهر عطاره وساحقه •
حتى تراه بعارضي ملك • وموضع التاج من مفارقه •

وليكن مقتديا بهم في رضى اخلاقهم متشبها بهم في جميع افعالهم ليصير
لها آلفا وعليها ناشئا وللمخالفة لها مجانبا فقد قال النبي عليه السلام خيار
شبابكم المتشبهون بشيوخكم وشرار شيوخكم المتشبهون بشبابكم
وروى ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من تشبه
بقوم فهو منهم • وانشدني بعض اهل العلم لابي بكر بن دريد •

عليهم

العالم العاقل ابن نفسه ❊ اغناه جنس علمه عن جنسه
كن ابن من شئت وكن مؤدبا ❊ فانما المرء بفضل كيسه
وليس من تكرمه لغيره ❊ مثل الذي تكرمه لنفسه

وليحذر المتعلم التبسط على من يعلمه وان آنسه والادلال عليه وان تقدمت صحبته فقد قيل لبعض الحكماء من اذل الناس قال عالم يجري عليه حكم جاهل • وكلمت رسول الله صلى الله عليه وسلم جارية من السبي فقال لها من انت فقالت بنت الرجل الجواد حاتم فقال النبي عليه السلم ارحموا عزيزا ذل ارحموا غنيا افتقر ارحموا عالما ضاع بين الجهال • ولا يظهر له الاستكفاء منه والاستغناء عنه فان في ذلك كفرا لنعمته واستخفافا بحقه وربما وجد بعض المتعلمين قوة في نفسه لجودة ذكائه وحدة خاطره فيقصد من يعلمه بالاعنات له والاعتراض عليه ازدراء به وتبكيتا له فيكون كمن تقدم فيه المثل السائر لابن البطحاء

اعلمه الرماية كل يوم ❊ فلما استد ساعده رماني

وهذا من مصايب العلماء وانعكاس حظوظهم ان يصيروا عند من علموه مستجهلين وعند من قدموه مسترذلين • وقال صالح بن عبد القدوس

وان عناء ان تعلم جاهلا ❊ فيحسب جهلا انه منك افهم
متى يبلغ البنيان يوما تمامه ❊ اذا كنت تبنيه وغيرك يهدم
متى ينتهي عن سيئ من اتى به ❊ اذا لم يكن منه عليه تندم

وقد حج كثير من الناس حق العالم على حق الوالد حتى قال بعض شعرائهم

يا فاخرا للسفاه بالسلف ❊ وتاركا للعلاء والشرف
اما اجسادنا هم سبب ❊ لان جعلنا غرايض التلف
من علم الناس كان خير اب ❊ ذاك ابو الروح لا ابو النطف

ولا ينبغي ان يبعثه معرفة الحق له على قبول الشبهة منه ولا يدعوه ترك الاعنات له على التقليد فيما اخذ عنه فانه ربما غلا بعض الاتباع في عالمهم حتى يروا ان قوله دليل وان لم يستدل وان اعتقاده حجة وان لم يحتج فيفضي به الامر الى التسليم له فيما اخذوا عنه ويؤول به ذلك الى التقصير فيما يصدر منه لانه يجتهد بحسب اجتهاد من ياخذ عنه فلا يبعد ان تبطل تلك المقالة ان انفردت او يخرج اهلها من عداد العلماء فيما شاركت لانه قد لا يرى لهم من ياخذ عنهم ما كانوا يرونه لمن اخذوا عنه فيطالبهم بما قصروا فيه فيضعفوا عن ابانته ويعجزوا عن نصرته فيذهبوا ضايعين ويصيروا عجزة مضعوفين ولقد رايت من هذه الطبقة رجلا يناظر في مجلس حفل وقد استدل عليه الخصم بدلالة صحيحة فكان جوابه عنها ان قال هذه دلالة فاسدة ووجه

آباء اجسادنا هم سبب

ابو السفه

فسادها ان شيخي لم يذكرها وما الا بذكر الشيخ فلا اخبر به فامسك
عليه المستدل تعجبا ولان شيخه كان محتشما وقد حضر طائفة
يرون فيه مثل ما راى هذا الجاهل ثم اقبل المستدل علي وقال
لي والله لقد افحمني بجهله وصار سائر الناس المبرئين من هذه الجهالة
من بين مستهزئ او متعجب او مستعيذ بالله من جهل مغرب
فهل كذلك عالما او غلا في الجهل او دل على قلة العقل واذا كان
المتعلم معتدل الراي فيمن ياخذ عنه متوسط الاعتقاد فيمن
يتعلم الخلو على تسليم المقلد بين برئ المتعلم من المذمتين وسلم العالم
من المحنتين وليس كثرة السوال فيما التبس اعناتا ولا قبول ما صح
في النفس تقليدا وقد روي عن النبي عليه السلم انه قال العلم
خزائن ومفتاحه المسالة فاسالوا رحمكم الله فانما يوجر في العلم
ثلثة القائل والمستمع والاخذ وقال عليه السلم هلا سالوا
اذ لم يعلموا انما شفاء العي السوال فامر بالسوال وحث عليه ونهى
آخرين عن السوال وزجر عنه فقال صلى الله عليه وسلم انهاكم عن
قيل وقال وكثرة السوال واضاعة المال وقال عليه السلم اياكم
وكثرة السوال فانما هلك من كان قبلكم بكثرة السوال وليس
مخالفا للاول وانما امر بالسوال من قصد به علم ما جهل ونهى عنه

رأيت

[illegible]

من قصد به اعنات ما سمع واذا كان السوال في موضعه ازال
الشكوك ونفى الشبه وقد قيل لابن عباس بم نلت هذا العلم
قال بلسان سوول وقلب عقول وروى نافع عن ابن عمر ان النبي
صلى الله عليه وسلم قال حسن السوال نصف العلم وانشد المبرد

عن ابي سليمان الغنوي

فسل الفقيه تكن فقيها مثله ... لا خير في علم بغير تدبر
فاذا تعسرت الامور فارجها ... وعليك بالامر الذي لم يعسر

وليأخذ المتعلم حظه ممن وجد طلبته عنده من نبيه وخامل
ولا يطلب الصيت وحسن الذكر باتباع اهل المنازل من العلماء وبعد
الذكر اذا كان النفع بغيرهم اعم الا ان يستوي النفعان فيكون الاخذ
عمن اشتهر ذكره وارتفع قدره اولى لان الانتساب اليه اجمل والاخذ
عنه اشهر وقد قال الشاعر

اذا انت لم يشهر علمك لم تجد ... لعلمك مخلوقا من الناس يقبله
وان صانك العلم الذي قد حملته ... اتاك له من يجتنيك ويحمله

فاذا قرب منك العلم لا تطلب ما بعد واذا استسهل عليك من وجه فلا
تطلب ما صعب واذا حمدت من خبرته فلا تطلب من لم تختبره
فان العدول عن القريب الى البعيد عناء وترك الاسهل بالاصعب
بلاء والانتقال عن المخبور الى غيره خطر وقد قال علي بن ابي

طالب رضي الله عنه عقبى الاخرق مضرة والمتعسف لا تدوم
له مسرة • وقال بعض الحكماء القصد اسهل من التعسف والكف
اورع من التكلف وربما تبعث نفس الانسان من بعد عنه استهانة
من قرب منه وطلب ما صعب احتقارا لما سهل عليه وانتقل الى
من خبره مللا لمن خبره فلا يدرك محبوبا ولا يظفر بطايل •
وقد قالت العرب في امثالها ان العالم كالحمة ياتيها البعداء
ويزهد فيها القرباء • وانشدنا بعض شيوخنا المسيح بن حاتم •

• لا ترى عالما يحل بقوم فيحلوه غير دار الهوان •
• قلما توجد السلامة والصحة مجموعتين في انسان •
• فاذا حلتا مكانا بعيدا فهما في النفوس معشوقتان •
• هذه مكة العزيز بيت الله يسعى لحجها الثقلان •
• وترى ازهد البرية في الحج لها اهلها لقرب المكان •

فصل

فصل فاما ما يجب ان يكون عليه العلماء من الاخلاق
التي هي بهم اليق ولهم الزم فالتواضع ومجانبة العجب لان التواضع
عطوف والعجب منفر وهو بكل احد قبيح وبالعلماء اقبح لان
الناس بهم يقتدون وكثيرا ما يداخلهم الاعجاب لتوحدهم
بفضيلة العلم ولو انهم نظروا حق النظر وعملوا بموجب العلم

لكان التواضع بهم اولى ومجانبة العجب بهم احرى لان العجب نقص
ينافي الفضل لا سيما مع قول النبي عليه السلم ان العجب ليأكل
الحسنات كما تاكل النار الحطب • فلا يفي ما ادركوا من فضيلة
العلم بما لحقهم من نقص العجب • وقد روى عبد الله بن عمرو عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال قليل الفقه خير من كثير العبادة
وكفى بالمرء علما اذا عبد الله وكفى بالمرء جهلا اذا اعجب برايه
وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه تعلموا العلم وتعلموا
للعلم السكينة والحلم وتواضعوا لمن تعلمون وليتواضع لكم من
تعلمونه ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم وقد
قال بعض السلف من تكبر بعلمه وترفع وضعه الله به
ومن تواضع بعلمه رفعه الله به • وعلة اعجابهم انصراف نظرهم
الى كثرة من دونهم من الجهال وانصراف نظرهم عمن فوقهم من العلماء
فانه ليس متناه في العلم الا وسيجد من هو اعلم منه بشي اذ العلم
اكثر من ان يحيط به بشر قال الله تعالى نرفع درجات من نشاء
يعني في العلم وفوق كل ذي علم عليم • قال اهل التاويل يعني
فوق كل عالم من هو اعلم منه حتى ينتهي ذلك الى الله تعالى • وقيل
لبعض الحكماء من يعرف كل العلم قال كل الناس • وقال الشعبي

ما رأيت مثلي وما أشاء أن ألقى رجلا أعلم مني إلا لقيته ولم يذكر
الشعبي هذا القول تفضيلا لنفسه فيستقبح منه وإنما ذكره
تعظيما للعلم عن أن يحاط به فينبغي لمن علم أن ينظر إلى نفسه بتقصير
ما قصر فيه ليسلم من عجب ما أدرك منه فقد قيل في منثور الحكم
إذا علمت فلا تفكر في كثرة من دونك من الجهال ولكن انظر إلى من
فوقك من العلماء وأنشدت لابن العميد

من شاء عيشا هنيئا يستفيد به ... في دينه ثم في دنياه إقبالا
فلينظرن إلى من فوقه أدبا ... ولينظرن إلى من دونه حالا

وقل ما تجد بالعلم معجبا وبما أدركه منه مفتخرا إلا من كان فيه مقلا
ومقصرا لأنه قد يجهل قدره ويحسب أنه نال بالدخول فيه أكثره
فأما من كان فيه متوجها ومنه مستكثرا فهو يعلم من بعد غايته
والعجز عن إدراك نهايته ما يصده عن العجب به وقد قال
الشعبي العلم ثلاثة أشبار فمن نال منه شبرا شمخ بأنفه وظن
أنه ناله ومن نال الشبر الثاني صغرت إليه نفسه وعلم أنه ناله
وأما الشبر الثالث فهيهات لا يناله أحد أبدا ومما أنذرك به من حالي
أنني صنفت في البيوع كتابا جمعت له ما استطعت من كتب الناس
وأجهدت نفسي وكددت فيه خاطري حتى إذا تهذب واستكمل

فيه

وكدت أعجب به وتصورت أنني أشد الناس اضطلاعا بعلمه حضرني
في مجلسي أعرابيان فسألاني عن بيع عقداه في البادية على شروط
تضمنت أربع مسائل لم أعرف لشيء منهن جوابا فأطرقت مفكرا وبحالي
وحالهما معتبرا فقالا أما عندك فيما سألناك جواب وأنت زعيم
هذه الجماعة فقلت لا فقالا إيها لك وانصرفا ثم أتيا من قد يتقدمه
كثير من أصحابي فسألاه فأجابهما في العلم مسرعا بما أقنعهما وانصرفا
عنه راضين بجوابه حامدين لعلمه فبقيت مرتبكا وبحالي وحالهما
معتبرا وإني لعلى ما كنت عليه في تلك المسائل إلى وقتي فكان ذلك زاجر
نصيحة ونذير عظة تذلل بهما قياد النفس وانخفض لهما جناح العجب
توفيقا منحته ورشدا أوتيته وحق على من ترك العجب بما يحسن أن
يدع التكلف لما لا يحسن فقد نهى الناس عنهما واستعاذوا بالله
منهما ومن أوضح ذلك بيانا استعاذة الجاحظ في كتاب البيان
حيث يقول اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة
العمل ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن كما نعوذ بك من عجب
ما نحسن ونعوذ بك من شر السلاطة والهذر كما نعوذ بك من العي
والحصر ونحن نستعيذ بالله بمثل استعاذته فليس لمن تكلف
ما لا يحسن غاية ينتهي إليها ولا حد يقف عنده ومن كان تكلفه غير

راضيين

مجدود فالخلق به أن يضل وأن يضل • وروى عن النبي صلى الله عليه
وسلم أنه قال من سئل فأفتى بغير علم فقد ضل وأضل • وقال
بعض الحكماء من العلم أن لا تتكلم فيما لا تعلم بكلام من يعلم فحسبك
خجلا من عقلك أن تنطق بما لا تفهم ولقد أحسن زرارة بن زيد حيث
يقول • إذا ما انتهى علمي تناهيت عنده أطال فأملى أو تناهى فأقصرا •
ويخبرني عن غائب المرء فعله كفى الفعل عما غيب المرء مخبرا •
وإذا لم يكن إلى الإحاطة بالعلم سبيل فلا عار أن يجهل بعضه وإذا
لم يكن في جهل بعضه لم يقبح به أن يقول لا أعلم فيما ليس يعلم وقد
روى أن رجلا قال يا رسول الله أي البقاع خير وأي البقاع شر
قال لا أدري حتى أسأل جبريل • قال علي بن طالب وابردها على
الكبد إذا سئل أحدكم عما لا يعلم أن يقول الله أعلم فإن العالم من
عرف أن ما يعلم فيما يعلم قليل • وقال عبد الله بن عباس إذا ترك
العالم قول لا أدري أصيبت مقاتله • وقال بعض الحكماء هلك من
لا أدري تركه • وقال بعض البلغاء من قال لا أدري علم فدرى
ومن انتحل ما لا يدري أهمل فهوى • ولا ينبغي للرجل وإن صار في
طبقة العلماء الأفاضل أن يستنكف من تعلم ما ليس عنده
ليسلم من التكلف له فقد قال عيسى بن مريم عليه السلم يا صاحب

العلم تعلم من العلم ما جهلت وعلم الجاهل ما علمت • وقال علي
ابن طالب خمس خذوهن عني فلو ركبتم الفلك ما وجدتموهن
إلا عندي ألا لا يرجون أحد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه ولا
يستنكف أن يتعلم ما ليس عنده وإذا سئل عما لا يعلم فليقل لا أعلم
ومنزلة الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد • وقال
عبد الله بن عباس لو كان أحد مكتفيا من العلم لاكتفى منه موسى
عليه السلم لما قال هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا
وقيل للخليل بن أحمد ممن أدركت هذا العلم قال كنت إذا لقيت
عالما أخذت منه وأعطيته • وقال بزرجمهر من العلم أن لا تحقر
شيئا من العلم ومن العلم تفضيل جميع العلم • قال المنصور
لشريك أنى لك هذا العلم قال لم أرغب عن قليل أستفيده ولم أبخل
بكثير أفيده على أن العلم يقتضي ما بقي منه ويستدعي ما تأخر
عنه وليس للراغب فيه قناعة ببعضه • روى عون بن عبد الله
عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال منهومان لا يشبعان طالب
علم وطالب دنيا أما طالب العلم فإنه يزداد من الرحمن قربا ثم قرأ
إنما يخشى الله من عباده العلماء وأما طالب الدنيا فإنه يزداد طغيانا
ثم قرأ كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى • وليكن مستقلا

فيهن

للفضيلة منه ليزداد منها ومستكثرا للنقيصة فيه لينتهي عنها ولا يقنع من العلم بما أدرك منه لأن القناعة زهد والزهد فيه ترك والترك له جهل. وقد قال بعض الحكماء عليكم بالعلم والإكثار منه فإن قليله أشبه شيء بقليل الخير وكثيره أشبه شيء بكثيره ولن يعيب الخير إلا القلة فأما كثرته [فإنها] أمنية. وقال بعض البلغاء من فضل علمك استقلالك لعلمك ومن كمال عقلك استظهارك على عقلك. ولا ينبغي أن يجهل من نفسه مبلغ علمها ولا أن يتجاوز بها قدر حقها ولا أن يكون بها مقصرا فيذعن بالانقياد أولى من أن يكون بها متجاوزا فيكف عن الازدياد لأن من جهل حال نفسه كان لغيرها أجهل. وقد قالت عائشة رضوان الله عليها يا رسول الله متى يعرف الإنسان ربه قال إذا عرف نفسه. وقد قسم الخليل بن أحمد أحوال الناس فيما علموه أو جهلوه [أربع] أربعة أقسام متقابلة لا يخلو حال الإنسان منها فقال الرجال أربعة: رجل يدري ويدري أنه يدري فذاك عالم فاسألوه. ورجل يدري ولا يدري أنه يدري فذاك ناس فذكروه. ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري فذاك مسترشد فعلموه. ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذاك جاهل فارفضوه. وأنشد أبو القاسم الآمدي:

إذا كنت لا تدري ولم تك بالذي ❁ تسائل من يدري فكيف إذا تدري ❁

جهلت ولم تعلم بأنك جاهل ❁ فمن لي بأن تدري بأنك لا تدري ❁

إذا جئت في كل الأمور بغمة ❁ فكن هكذا أرضا يطاك الذي يدري ❁

ومن عجب الأشياء أنك لا تدري ❁ وأنك لا تدري بأنك لا تدري ❁

وليكن من شيمته العمل بعلمه وحث النفس على أن [يأتمر] تأتمر بما تأمر به ولا يكن ممن [من] قال الله تعالى فيه مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا. وقد قال قتادة في قوله تعالى وإنه لذو علم لما علمناه إنه لعامل بما علم. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ويل لأقماع القول ويل للمصرين الذين يستمعون القول ولا يعملون به. وروى عبد الله بن وهب عن سفيان أن الخضر قال لموسى عليهما السلام يا ابن عمران تعلم العلم لتعمل به ولا تعلمه لتحدث به فيكون عليك بوره ولغيرك نوره. وقال علي رضي الله عنه إنما زهد الناس في طلب العلم لما يرون من قلة انتفاع من علم بما عمل. وقال أبو الدرداء أخوف ما أخاف إذا وقفت بين يدي الله تعالى أن يقول قد علمت فماذا عملت. وكان يقال خير من القول فاعله وخير من الصواب قائله وخير من العلم حامله. وقيل في منثور الحكم لم ينتفع بعلمه من ترك العمل به. وقال بعض العلماء العلم يهتف بالعمل فإن أجابه

والّا ارتحل • وقال بعض الحكماء خير العلم ما نفع وخير القول
ما ردع • وقال بعض الأدباء ثمرة العلوم العلم بالمعلوم • وقال
بعض العلماء ثمرة العلم العمل به وثمرة العمل به أن يؤجر عليه •
وقال بعض البلغاء من تمام العلم استعماله ومن تمام العمل استقلاله
فمن استعمل علمه لم يخل من رشاد ومن استقل عمله لم يقصر عن مراد

وقال أبو تمام الطائي

ولم يحمدوا من عالم غير عامل خلاقا ولا من عامل غير عالم
رأوا طرقات المجد عوجا قطيعة وأفظع عجز عندهم عجز حازم

ولأنه لما كان علمه حجة على من أخذ عنه واقتبسه منه حتى يلزمه
العمل به والمصير إليه كان عليه أحج وله ألزم لأن مرتبة العمل قبل
مرتبة القول كما أن مرتبة العلم قبل مرتبة العمل • قال أبو العتاهية

اسمع إلى الأحكام يحملها الرواة إليك عنكا
واعلم هديت بأنها حجج تكر إليك منكا

ثم ليجتنب أن يقول ما لا يفعل وأن يأمر بما لا يأتمر وأن يسر غير ما
يظهر ولا يجعل قول الشاعر

اعمل بقولي وإن قصرت في عملي ينفعك قولي ولا يضررك تقصيري

عذرا له في تقصير نفسه وإن لم يضر غيره فإن أعذار النفس تغريها

من
وتحسن له مساويها وإن قال ما لا يفعل فقد مكر وإن أمر بما
لا يأتمر به فقد خدع ومن أسر غير ما يظهر فقد نافق • وقد
روي عن النبي عليه السلم أنه قال المكر والخديعة صاحبهما في
النار على أن أمره بما لا يأتمر مطرح وإنكاره ما لا ينكره من نفسه
مستقبح بل ربما كان ذلك سببا لإغراء المأمور بترك ما أمر به
عنادا وارتكاب ما نهي عنه كيادا • حكي أن أعرابيا أتى ابن أبي
ذئب فسأله عن مسألة طلاق فأفتاه بطلاق امرأته فقال انظر
حسنا قال قد نظرت وقد بانت منك فولى وهو يقول

أتيت ابن ذئب أبتغي الفقه عنده فطلق حتى البت تبت أنامله
أطلق في فتيا ابن ذئب حليلتي وعند ابن ذئب أهله وحلائله

فظن بجهله أنه لا يلزمه الطلاق بقول من لم يلتزم الطلاق فالظن كل
بقول من يجب اشتراك الآمر والمأمور فيه كيف يكون متبوعا عنه
وهو غير عامل به ولا قابل له كلا • وقد قال أحمد بن يوسف

وعامل بالفجور يأمر بالبر كهاد يخوض في الظلم
أو كطبيب قد شفه سقم وهو يداوي من ذلك السقم
يا واعظ الناس غير متعظ ثوبك طهر أولا فلا تلم

وقال آخر

عوّد لسانك قلّة اللفظ واحفظ كلامك ايما حفظ

اياك ان تعظ الرجال وقد اصبحت محتاجا الى الوعظ

فاما الانقطاع عن العلم الى العمل او الانقطاع عن العمل الى العلم
اذا عمل به بموجب العلم فقد حكى الزهري فيه ما يغني عن تكلف غيره
وهو انه قال العلم افضل من العمل به لمن جهل والعمل افضل من العلم
لمن علم فاما فضل ما بين العلم والعبادة اذا لم يخل بواجب ولم يقصر
في فرض فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يبعث العالم
والعابد فيقال للعابد ادخل الجنة ويقال للعالم اثبت حتى تشفع للناس
ومن اداب العلماء ان لا يبخلوا بتعليم ما يحسنون ولا يمتنعوا من افادة
ما يعلمون فان البخل به لوم وظلم والمنع منه حسد واثم وكيف يسوغ
لهم البخل بما منحوه جودا من غير بخل واوتوه عفوا من غير بذل ام كيف
يجوز لهم الشح بما ان بذلوه زاد ونمى وان كتموه تناقص ووهى ولو استن
بذلك من تقدمهم لما وصل العلم اليهم ولانقرض عنهم بانقراضهم و
لصاروا على مرور الايام جهالا وبتقلب الاحوال وتناقصها ارذالا
وقد قال الله تعالى واذ اخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننه
للناس ولا تكتمونه وروي عن النبي عليه السلم انه قال لا تمنعوا
العلم اهله فان في ذلك فساد دينكم والتباس بصائركم ثم قرأ ان
الذين يكتمون ما انزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس
في الكتاب اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون وقد روي عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال من كتم علما يحسنه الجمه الله يوم القيامة
بلجام من نار وروي عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه انه قال
ما اخذ الله تعالى العهد على اهل الجهل ان يتعلموا حتى اخذ العهد
على اهل العلم ان يعلموا وقال بعض الحكماء اذا كان من
قواعد الحكمة بذل ما ينقصه البذل فاحرى ان يكون من قواعدها
بذل ما يزيده البذل وقال بعض العلماء كما ان الاستفادة نافلة
للمتعلم كذلك الافادة فريضة على المعلم وقد قيل في منثور الحكم
من كتم علما فكأنه جاهل وقال خالد بن صفوان اني لا افرح
بافادتي المتعلم اكثر من فرحي باستفادتي من المعلم ثم له بالتعليم
نفعان احدهما ما يرجوه من ثواب الله تعالى وقد جعل النبي عليه
السلم التعليم صدقة فقال تصدقوا على اخيكم بعلم يرشده ورأي
يسدده وروى ابن مسعود عن النبي عليه السلم انه قال تعلموا
العلم وعلموا فان اجر العالم والمتعلم سواء قيل وما اجرهما
قال معونة ومائة درجة في الجنة والنفع الثاني زيادة العلم
واتقان الحفظ فقد قال الخليل بن احمد اجعل تعليمك دراسة

مائة

لعلمك واجعل مناظرة المتعلم تنبيها على ما التبس عندك • وقال
ابن المعتز في منثور الحكم النار لا ينقصها ما اخذ منها ولكن
يخمدها ان لا تجد حطبا كذلك العلم لا يفنيه الاقتباس
ولكن فقد الحاملين له سبب عدمه فاياك والبخل بما تعلمه •
وقال بعض العلماء علم علمك وتعلم علم غيرك فاذا انت قد علمت
ما جهلت وحفظت ما علمت • واعلم ان المتعلمين ضربان مستدعي
وطالب فاما المستدعي الى العلم فهو من استدعاه العالم الى
التعليم لما ظهر له من جودة ذكائه وبان له من قوة خاطره فاذا
وافق استدعاء العالم شهوة المتعلم كانت نتيجتهما درك النجباء
وظفر السعداء لان العالم باستدعائه متوفر والمتعلم بشهوته
وذكائه مستكثر • واما الطالب للعلم لداع يدعوه وباعث يحدوه
فان كان الداعي دينيا وكان فطنا ذكيا وجب على العالم ان يكون
العالم عليه مقبلا وعلى تعليمه متوفرا لا يخفي عليه مكنونا
ولا يطوي عنه مخزونا وان كان بليدا بعيد الفطنة فينبغي
ان لا يمنع من اليسير فيحرم ولا يحمل عليه بالكثير فيظلم ولا يجعل
بلادته ذريعة لحرمانه فان الشهوة باعثة والصبر مؤثر •
وقد روي عن النبي عليه السلم انه قال لا تمنعوا العلم اهله

مستدع

فتظلموا ولا تضعوه في غير اهله فتأثموا • وقال بعض الحكماء
لا تمنعوا العلم احدا فان العلم امنع لجانبه • فاما ان لم يكن
الداعي دينيا نظر فيه فان كان مباحا كرجل دعاه الى طلب العلم
حب النباهة وطلب الرياسة فالقول فيه يقارب القول في تعليم
من قبل لان العلم يعطفه على الدين في ثاني حال وان لم يكن
مبتدا به في الحال الاول • وقد حكي عن سفيان الثوري
انه قال تعلمنا العلم لغير الله فابى ان يكون لله وقد قال
عبد الله ابن المبارك طلبنا العلم للدنيا فدلنا على ترك الدنيا
وان كان الداعي محظورا كرجل دعاه الى طلب العلم شر كامن
ومكر باطن يريد ان يستعملهما في شبه دينية وحيل فقهية
لا يجد اهل السلامة منهما مخلصا ولا عنهما مدفعا • كما قال
النبي عليه السلم اهلك امتي رجلان عالم فاجر وجاهل
متعبد فقيل يا رسول الله اي الناس شر فقال العلماء اذا
فسدوا فينبغي للعالم اذا راى من هذه حاله ان يمنعه من
طلبته ويصرفه عن بغيته ولا يعينه على امضاء مكر واكمال
شر • وقد روى عن انس بن مالك ان النبي عليه السلم قال
واضع العلم في غير موضعه كمقلد الخنازير اللؤلؤ والجوهر

الا

والذهب. وقال عيسى بن مريم لا تلقوا اللؤلؤ للخنازير فالعلم
افضل من اللؤلؤ ومن لا يستحقه شر من الخنزير. وحكي ان
تلميذا سال عالما عن بعض العلوم فلم يفده فقيل له لم منعته
فقال لكل تربة غرس ولكل بناء اس. وقال بعض البلغاء لكل
ثوب لابس ولكل علم قابس. وقال بعض الادباء ارث لروضة
توسطها خنزير وابك لعلم حواه شرير. وينبغي للعالم فراسة *(margin: ان تكون)*
يتوسم بها المتعلم ليعرف بها مبلغ طاقته وقدر استحقاقه ليعطيه
ما يتحمله بذكائه او يضعف عنه ببلادته فانه اروح للعالم وانجح
للمتعلم. وقد روى ثابت عن انس قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم ان لله عبادا يعرفون الناس بالتوسم. وقال عمر بن الخطاب
رضي الله عنه اذا انا لم اعلم ما لم ار فلا علمت ما رايت. وقال
عبد الله بن الزبير لا عاش بخير من لم ير برايه ما لم ير بعينه. وقال *(margin: ابن الرومي)*

الالمعي يرى باول رايه . آخر الامر من وراء المغيب .
لوذعي له فؤاد ذكي . ما له في ذكائه من ضريب .
لا يروي ولا يقلب طرفا . واكف الرجال في تقليب .

واذا كان العالم في توسم المتعلمين بهذه الصفة وكان بقدر استحقاقهم
خبيرا لم يضع له عناء ولم يخب على يديه صاحب وان لم يتوسمهم

وخفيت عليه احوالهم ومبلغ استحقاقهم كانوا واياه في عناء مكد
وتعب غير مجد لانه لا يعدم ان يكون فيهم ذكي يحتاج الى الزيادة
وبليد يكتفي بالقليل فيضجر الذكي ويعجز البليد ومن تردد
اصحابه بين عجز وضجر ملوه وملهم. وقد روى عبد الله بن وهب
عن سفيان قال قال الخضر لموسى عليهما السلم يا طالب العلم
ان القائل اقل ملالة من المستمع فلا تمل جلساءك اذا حدثتهم
يا موسى واعلم ان قلبك وعاء فانظر ما تحشو في وعائك. وقال
بعض الحكماء خير العلماء من لا يقل ولا يمل. وقال بعض
العلماء كل علم كثر على السمع ولم يطاوعه الفهم ازداد به القلب
عمى وانما ينفع السمع الاذان اذا قوي القلوب في الابدان وربما *(margin: فهم)*
كان لبعض السلاطين رغبة في العلم لفضيلة نفسه وكرم طبعه
فلا يجعل ذلك ذريعة في الانبساط عنده والادلال عليه بل يعطيه
ما يستحقه بسلطانه وعلو يده فان للسلطان حق الطاعة و
الاعظام وللعالم حق القبول والاكرام ثم لا ينبغي ان يبتذله
الا بعد الاستدعاء ولا يزيده على قدر الاكتفاء فربما احب بعض
العلماء اظهار علمه للسلطان فاكثر فصار ذلك ذريعة الى ملله
ومفضيا الى بعده فان السلطان منقسم الافكار مستوعب

الزمان فليس له في العلم فراغ المنقطعين اليه ولا صبر المتفردين
به ❁ وقد حكى عن الاصمعي قال قال لي الرشيد يا عبد الملك
انت اعلم منا ونحن اعقل منك فلا تعلمنا في ملأ ولا تسرع الى
تذكيرنا في خلأ واتركنا حتى نبتديك بالسوال فاذا بلغت
من الجواب قدر الاستحقاق فلا تزد الا ان نستدعي ذلك
منك انظر الى ما هو الطف في التاديب وانصف في التعليم
وبلغ باوجز لفظ غاية التقويم ولتخرج تعليمه مخرج المذاكرة
والمحاضرة لا مخرج التعليم والافادة لان لتاخير التعلم خجلة
تقصير يجل السلطان عنها فان ظهر منه خطا او زلل في قول
او عمل لم يجاهره بالرد وعرض باستدراك زلله واصلاح
خلله ❁ وحكى ان عبد الملك بن مروان قال للشعبي كم
عطاك قال الفين قال لحنت قال لما ترك امير المومنين الاعراب
كرهت ان اعرب كلامي عليه ثم ليحذر اتباعه فيما خالف الحق موافقة لرايه ومتابعة لهواه فربما زلت اقدام
العلماء في ذلك رغبة او رهبة فضلوا واضلوا ❁ وقد روى
الحسن البصري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
لا تزال هذه الامة تحت يد الله وفي كنفه ما لم يمال

قراؤها امراءها ولم تزل صلحاؤها فجارها وما لم يمال اخيارها
اشرارها فاذا فعلوا ذلك رفع عنهم يده ثم سلط عليهم جبابرتهم
فساموهم سوء العذاب وضربهم بالفقر والفاقة وملأ قلوبهم رعبا
ومن آدابهم ايضا نزاهة النفس عن شبه المكاسب والقناعة بالميسور
عن كد المطالب فان شبه المكاسب اثم وكد الطلب ذل والاجر
اجدر به من الاثم والعز احق به من الذل ❁ انشدني بعضهم لعلي بن عبد العزيز القاضي

❁ يقولون لي فيك انقباض وانما ❁ راوا رجلا عن موقف الذل احجما
❁ اذا قيل هذا منهل قلت قد ارى ❁ ولكن نفس الحر تحتمل الظما
❁ انهنهها عن بعض ما لا يشينها ❁ مخافة اقوال العدى فيم او لما
❁ وما كل برق لاح لي يستفزني ❁ ولا كل من في الارض ارضاه منعما
❁ ولم اقض حق العلم ان كان كلما ❁ بدا طمع صيرته لي سلما
❁ ااشقى به غرسا واجنيه ذلة ❁ اذا فاتباع الجهل قد كان احزما
❁ ولم ابتذل في خدمة العلم مهجتي ❁ لاخدم من لاقيت لكن لاخدما
❁ ارى الناس من داناهم هان عندهم ❁ ومن اكرمته عزة النفس اكرما
❁ ولو ان اهل العلم صانوه صانهم ❁ ولو عظموه في النفوس لعظما
❁ ولكن اذالوه فهان ودنسوا ❁ محياه بالاطماع حتى تجهما

على ان العلم عوض من كل لذة ومغن عن كل شهوة ومن كان صادق

النية فيه لم يكن له همة فيما يجد بدا منه. وقد قال بعض البلغاء
من لم تفرد بالعلم لم توحشه خلوة ومن تسلى بالكتب لم تفته سلوة
ومن آنسه قراءة القرآن لم توحشه مفارقة الاخوان. وقال
بعض الحكماء لا سمير كالعلم ولا ظهير كالحلم ومن آدابهم ان
يقصدوا وجه الله تعالى بتعليم من علموا ويطلبوا ثوابه بارشاد
من ارشدوا من غير ان يعتاضوا عليه عوضا ولا يلتمسوا عليه
رزقا فقد قال الله تعالى ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا. قال ابو
العالية لا تأخذوا عليه اجرا وهو مكتوب عندهم في الكتاب
الاول يا ابن آدم علم مجانا كما علمت مجانا. وروي عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال اجر المعلم كاجر الصائم القائم
وحسب من هذا اجره ان يلتمس اجرا. ومن آدابهم نصح من
علموه والرفق بهم وتسهيل السبيل عليهم وبذل المجهود في رفدهم
ومعونتهم فان ذلك اعظم لاجرهم واسنى لذكرهم وانشر لعلومهم
وارسخ لمعلومهم. وقد روي عن النبي عليه السلم انه قال لعلي
يا علي لان يهدي الله بك رجلا خير مما طلعت عليه الشمس
ومن آدابهم ان لا يعنفوا متعلما ولا يحقروا ناشئا ولا يستصغروا
مبتديا فان ذلك ادعى اليهم واعطف عليهم واحث على الرغبة فيما

[هامش: ويطلبوا]

لديهم. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال علموا
ولا تعنفوا فان المعلم خير من المعنف. وقد روي عن النبي
عليه السلم انه قال وقروا من تتعلمون منه ووقروا من تعلمونه
ومن آدابهم ان لا يمنعوا طالبا ولا ينفروا راغبا ولا يؤيسوا متعلما
لما في ذلك من قطع الرغبة فيهم والزهد فيما لديهم واستمرار ذلك
يفضي الى انقراض العلم بانقراضهم. وقد روي عن النبي عليه
السلم انه قال الا انبئكم بالفقيه كل الفقيه قالوا بلى يا رسول
الله قال من لم يقنط الناس من رحمة الله تعالى ولم يؤيسهم
من روح الله ولا يدع القرآن رغبة الى ما سواه الا لا خير في
عبادة ليس فيها تفقه ولا علم ليس فيه تفهم ولا قراءة ليس فيها
تدبر. فهذه جملة كافية والله ولي التوفيق

باب ادب الدين

ان الله سبحانه وتعالى انما كلف خلقه متعبداته والزمهم مفترضاته
وابتعث اليهم رسله وشرع لهم دينه لغير حاجة دعته الى تكليفهم
ولا من ضرورة قادته الى تعبدهم وانما قصد نفعهم تفضلا
منه عليهم كما تفضل بما لا يحصى عددا من نعمه بل النعمة فيما
تعبدهم به اعظم لان نفع ما سوى المتعبدات مختص بالدنيا

العاجلة ونفع المتعبد ان يشتمل على نفع الدنيا والآخرة وما
جمع نفع الدنيا والآخرة كان اعظم نعمة واكثر تفضلا وجعل
ما تعبدهم به ماخوذا من عقل متبوع وشرع مسموع فالعقل
متبوع فيما لا يمنع منه الشرع والشرع مسموع فيما لا يمنع منه
العقل لان الشرع لا يرد بما يمنع منه العقل والعقل لا يتبع
فيما يمنع منه الشرع ولذلك توجه التكليف الى من كمل عقله
فارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره
المشركون فبلغهم رسالته والزمهم حجته وبين لهم شريعته وتلا
عليهم كتابه فيما احله وحرمه واباحه وحظره واستحبه وكرهه
وامر به ونهى عنه وما وعد به من الثواب لمن اطاعه واوعد به
من العقاب لمن عصاه فكان وعده ترغيبا ووعيده ترهيبا لان
الرغبة تبعث على الطاعة والرهبة تكف عن المعصية والتكليف
يجمع امرا بطاعة ونهيا عن معصية فكذلك كان التكليف مقرونا
بالرغبة والرهبة وكان ما تخلل كتابه من قصص الامم السالفة
واخبار القرون الخالية عظة واعتبارا تقوى معهما الرغبة وتزداد
بهما الرهبة وكان ذلك من لطفه بنا وتفضله علينا فالحمد لله
الذي نعمه لا تحصى وشكره لا يؤدى ثم جعل الى رسوله بيان ما

حضر

كان مجملا وتفسير ما كان مشكلا وتحقيق ما كان محتملا ليكون له
مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به ومنزلة التفويض اليه
قال الله سبحانه وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم
ولعلهم يتفكرون ثم جعل الى العلماء بعد رسوله عليه السلام
استنباط ما نبه على معانيه واشار الى اصوله ليتوصلوا بالاجتهاد
فيه الى علم المراد به فيمتازوا بذلك عن غيرهم ويختصوا بثواب اجتهاد[هم]
قال الله تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات
وقال وما يعلم تاويله الا الله والراسخون في العلم وصار الكتاب
اصلا والسنة فرعا واستنباط العلماء ايضاحا وكشفا روي
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال القرآن اصل علم الشريعة
نصه ودليله والحكمة بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم والامة
المجتمعة حجة على من شذ عنها وكان من رأفته بخلقه وتفضله على
عباده ان اقدرهم على ما كلفهم ورفع الحرج عنهم فيما تعبدهم ليكونوا
مع ما قد اعد لهم ناهضين بفعل الطاعات ومجانبة المعاصي قال
الله عز وجل لا يكلف الله نفسا الا وسعها وقال تعالى وما
جعل عليكم في الدين من حرج وجعل ما كلفهم ثلاثة اقسام
قسما امرهم باعتقاده وقسما امرهم بفعله وقسما امرهم بالكف

عنه ليكون اختلاف جهات التكليف أبعث على قبوله وأعون على
فعله حكمة منه ولطفا وجعل ما أمرهم باعتقاده قسمين قسما
إثباتا وقسما نفيا فأما الإثبات فإثبات توحيده وصفاته وبعثة
رسله وتصديق محمد صلى الله عليه وسلم فيما جاء به وأما النفي
فنفي الصاحبة والولد والحاجة والقبائح أجمع وهذان القسمان
مما أول ما كلفه العاقل وجعل ما أمرهم بفعله ثلاثة أقسام
قسما على أبدانهم كالصلاة والصيام وقسما في أموالهم كالزكوات
والكفارات وقسما على أبدانهم وفي أموالهم كالحج والجهاد ليسهل
عليهم فعله ويخف عنهم أداؤه نظرا منه تعالى لهم وتفضلا منه
عليهم وجعل ما أمرهم بالكف عنه ثلاثة أقسام قسما لإحياء
نفوسهم وصلاح أبدانهم كنهيه عن القتل وأكل الخبائث وشرب
الخمور المؤدية إلى فساد العقل وزواله وقسما لائتلافهم وصلاح
ذات بينهم كنهيه عن الغصب والغلبة والظلم والسرف المفضي
إلى القطيعة والبغضاء وقسما لحفظ أنسابهم ومحارمهم كنهيه
عن الزنى وإنكاح ذوات المحارم وكانت نعمته فيما حظر علينا
كنعمته فيما أباحه لنا وتفضله فيما كفنا عنه كتفضله فيما أمرنا
به فهل يجد العاقل في رؤيته مسارا أن يقصر فيما أمر به وهو نعمة

وتعظيم

مسارًّا

عليه أو يرى فسحة في ارتكاب ما نهي عنه وهي تفضل عليه وهل يكون
من أنعم عليه بنعمة فأهملها مع شدة فاقته إليها إلا مذموما في
العقل معما جاء من وعيد السمع ثم من لطفه بخلقه وتفضله على
عباده أن جعل لهم من جنس كل فريضة نفلا وجعل لهم من الثواب
قسطا وندبهم إليه ندبا وجعل لهم بالحسنة عشرا ليضاعف ثواب
فاعله ويضع العقاب عن تاركه ومن لطيف حكمته أن جعل لهم
لكل عبادة حالين حال كمال وحال جواز رفقا منه بخلقه لما
سبق في علمه أن فيهم العجل المبادر والبطيء المتثاقل ومن لا
صبر له على أداء الأكمل ليكون ما أخل به من هيئات عبادته غير
قادح في فرض ولا مانع من أجر وكان ذلك من نعمه علينا وحسن
نظره إلينا فكان أول ما فرض بعد تصديق نبيه عليه السلم عبادات
الأبدان وقدمها على ما يتعلق بالأموال لأن النفوس على ذلك أشح
وبما يتعلق بالأبدان أسمح وذلك الصلاة والصيام فقدم فرض
الصلاة على الصيام لأن الصلاة أسهل فعلا وأيسر عملا وجعلها
مشتملة على خضوع وابتهال إليه فالخضوع له رهبة منه
والابتهال إليه رغبة فيه ولذلك قال عليه السلم إذا قام أحدكم
إلى صلاته فقد يناجي ربه فلينظر أحدكم بمن يناجيه وروي

النبي

عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه كان إذا دخل عليه وقت
الصلاة اصفرّ مرة واحمرّ أخرى فقيل له في ذلك فقال أتتني الأمانة
التي عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن
منها وحملتها ولا أدري أسيء فيها أم أحسن ثم جعل لها شروطا
لازمة من رفع حدث وإزالة نجاسة ليستديم النظافة القاربة
والطهارة لأداء فرضه ثم ضمنها تلاوة كتابه المنزل ليتدبر ما فيه
من أوامره ونواهيه ويعتبر إعجاز ألفاظه ومعانيه ثم علقها
بأوقات متدانية وأزمان مترادفة ليكون ترادف أزمانها وتتابع
أوقاتها سببا لاستدامة الخضوع له والابتهال إليه فلا تنقطع
الرهبة منه ولا الرغبة فيه وإذا لم تنقطع الرهبة والرغبة استدام
صلاح الخلق وبحسب قوة الرغبة والرهبة يكون استيفاؤها
على الكمال والتقصير فيها عن حال الجواز ۝ وقد قال النبي عليه
السلم الصلاة مكيال فمن وفى وفي له ومن طفف فقد علمتم
ما قال الله في المطففين ۝ وروي عنه عليه السلم أنه قال من
هانت عليه صلاته كانت على الله أهون ۝ وأنشدت لبعض الشعراء
الصالحين

۝ أقبل على صلواتك الخمس ۝ كم مصبح وعساه لا يمسي ۝
۝ واستقبل اليوم الجديد بتوبة ۝ تمحو ذنوب صحيفة الأمس ۝

۝ فليفعلن بوجه الغض البلى ۝ فعل الظلام بصورة الشمس ۝

ثم فرض الله تعالى الصيام وقدمه على زكاة الأموال لتعلق الصيام
بالأبدان فكان في إيجابه حث على رحمة الفقراء وإطعامهم وسد
جوعاتهم لما قد عانوه من شدة المجاعة في صومهم ۝ وقد قيل ليوسف
صلوات الله عليه لم تجوع وأنت على خزائن الأرض قال أخاف
أن أشبع وأنسى الجائع ۝ ثم لما في الصوم من قهر النفس وإذلالها
وكسر الشهوة المستولية عليها وإشعار النفس ما هي عليه من
الحاجة إلى يسير من الطعام والشراب والمحتاج إلى الشيء ذليل
به وبهذا احتج الله تعالى على من اتخذ عيسى وأمه إلهين من دونه
فقال ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة
كانا يأكلان الطعام ۝ فجعل حاجتهما إلى الطعام نقصا فيهما
عن أن يكونا إلهين ۝ وقد وصف الحسن البصري رح في قصصه نقص
الإنسان بالطعام وغيره فقال مسكين ابن آدم محتوم الأجل
مكتوم الأمل مستور العلل يتكلم بلحم وينظر بشحم ويسمع بعظم
أسير جوعة صريع شبعة تؤذيه البقة وتنتنه العرقة وتقتله
الشرقة لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا
فانظر إلى لطفه بنا فيما أوجبه من الصيام علينا كيف أيقظ العقول

عنه

له وقد كانت غافلة او متغافلة ونفع النفوس به ولم تكن لولاه منتفعة
ولا نافعة ثم فرض زكوات الاموال وقدمها على فرض الحج لان في الحج
مع انفاق المال سفرا شاقا فكانت النفس الى الزكاة اسرع اجابة
منها الى الحج وكان في ايجابها مواساة للفقراء ومعونة لذوي الحاجات
يكفهم عن البغضاء ويمنعهم من التقاطع ويبعثهم على التواصل لان
الاصل وصول والراجي هايب واذا زال الامل وانقطع الرجاء
واشتدت الحاجة وقعت البغضاء واشتد الحسد فحدث
التقاطع بين ارباب الاموال والفقراء ووقعت العداوة بين
ذوي الحاجات والاغنياء حتى يفضي الى التغالب على الاموال
والتغرير بالنفوس هذا مع ما في اداء الزكاة من تمرين النفس
على السماحة المحمودة ومجانبة الشح المذموم لان السماحة تبعث
على اداء الحقوق والشح يصد عنها وما بعث على اداء الحقوق
فاجدر به حمدا وما صد عنها فاخلق به ذما وقد روى ابو هريرة
رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال شر ما اعطي
العبد شح هالع وجبن خالع فسبحان من دبرنا بلطيف حكمته
واخفى عن فطنتنا جزيل نعمته حتى استوجب من الشكر
باخفائها اعظم مما استوجبه بابدائها ثم فرض الحج وكان آخر

اهل

لانه يجمع عملا على بدن وحقا في مال فجعل فرضه بعد استقرار
فروض الابدان وفروض الاموال ليكون استيناسهم بكل واحد من
النوعين ذريعة الى تسهيل ما جمع النوعين وكان في ايجابه تذكيرا
ليوم الحشر في مفارقة المال والاهل وخضوع العزيز والذليل
في الوقوف بين يديه واجتماع المطيع والعاصي في الرهبة منه
والرغبة اليه واقلاع المعاصي عما اجترحوه وندم المذنبين على
ما اسلفوه فقل من حج الا واحدث توبة عن ذنب واقلاعا عن
معصية ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم من علامة
الحجة المبرورة ان يكون صاحبها بعدها خيرا منه قبلها وهذا
صحيح لان الندم على الذنوب مانع من الاقدام عليها والتوبة منها
مكفرة لما سلف منها فاذا كف عما كان يقدم عليه انبا عن صحة
توبته وصحة التوبة تقتضي قبول الحجة ثم نبه بما يعاني فيه من
مشاق السفر المؤدي اليه على موضع النعمة برفاهة الاقامة
وانس الاوطان ليحنوا على من سلب هذه النعمة من ابناء السبيل
ثم اعلم بمشاهدة حرمة الذي انشا منه دينه وبعث فيه رسوله
ثم بمشاهدة دار الهجرة التي اعز بها اهل طاعته واذل بنصرة
نبيه اهل معصيته حتى خضع له عظماء المتجبرين وتذلل له

زعماء المنكرين انه لم ينتشر عن ذلك المكان المنقطع ولا قوى بعد
الضعف المبين طبق الارض شرقا وغربا الا لمعجزة ظاهرة
ونصر عزيز فاعتبر الهمك الله الشكر ووفقك للتقوى انعامه
عليك فيما كلفك واحسانه اليك فيما تعبدك فقد وكلك الى
فطرتك واحالك على بصيرتك بعد ان كنت لك رايدا صدوقا
وناصحا شفيقا هل يحسن نهوضا لشكره اذا فعلته ما امرك
وتقبلته ما كلفك كلا لانه لا يوليك نعمة توجب الشكر الا وصلها
قبل شكر ما سلف بنعمة توجب الشكر في المؤتنف ولذلك قال
الحسن بن علي رضوان الله عليه نعم الله اكثر من ان تشكر
الا ما اعان عليه وذنوب ابن ادم اكثر من ان تغفر الا ما عفا
عنه ❀ وانشدت لمنصور بن اسمعيل الفقيه المصري ❀

❀ شكر الاله نعمة موجبة لشكره فكيف شكري بره من شكره من بره ❀
واذا كنت عن شكر نعمته عاجزا فكيف بك اذا قصرت فيما امرك
او فرطت فيما كلفك ونفعه اعود عليك لو فعلته هل تكون
لسوابغ نعمه الا كفورا ولبداية العقول الا مزجورا فقد قال
الله تعالى يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها قال مجاهد اي
يعرفون ما عدد الله عليهم من نعمه وينكرونها بقولهم انهم ورثوا

حتى

ذلك عن ابائهم او اكتسبوها بافعالهم • وروي عن النبي صلى الله عليه
وسلم انه قال يقول الله تعالى يا ابن ادم ما انصفتني اتحبب اليك
بالنعم وتتمقت الي بالمعاصي خيري اليك نازل وشرك الي صاعد
كم من ملك كريم يصعد الي منك بعمل قبيح • وقال بعض صلحاء
السلف قد اصبح بنا من نعم الله تعالى ما لا نحصيه مع كثرة ما
نعصيه فلا ندري ايهما نشكر اجميل ما ينشر ام قبيح ما يستر
فحق على من عرف موقع النعمة ان يقبلها ممتثلا لما كلف منها و
قبولها يكون باداها ثم يشكر الله تعالى على ما انعم به من اسدائها
فان بنا من الحاجة الى نعمه اكثر مما كلفنا من شكر نعمه فان نحن
ادينا حق النعمة في التكليف تفضل باسداء النعمة من غير جهة التكليف
فلزمت النعمتان ومن لزمته النعمتان فقد اوتي حظ الدنيا والاخرة
وهذا هو السعيد بالاطلاق وان قصرنا في اداء ما كلفنا من
نعمه قصر عنا ما لا تكليف فيه من نعمه فتعرت الدنيا والاخرة
فلم يكن له في الحياة حظ ولا في الموت راحة وهذا هو الشقي
بالاستحقاق وليس يختار الشقوة على السعادة ذو لب صحيح
ولا عقل سليم وقد قال الله تعالى ليس بامانيكم ولا اماني
اهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به • فقد روى الاعمش عن

ومن تعرت عنه النعمتان
فقد سلب حظه صح

مسلم قال قال ابو بكر رضوان الله عليه يا رسول الله ما اشد
هذه الآية من يعمل سوءا يجز به فقال يا ابا بكر ان المصيبة
في الدنيا جزاء واختلف المفسرون في قوله تعالى سنعذبهم
مرتين فقال بعضهم احد العذابين الفضيحة في الدنيا والثاني
عذاب القبر وقال عبد الرحمن بن زيد احد العذابين مصائبهم
في الدنيا في اموالهم واولادهم والثاني عذاب الآخرة في النار وليس
وان نال اهل المعاصي لذة من عيش او ادركوا امنية من الدنيا
كانت عليهم نعمة بل قد يكون ذلك استدراجا ونقمة وقد روى
ابن لهيعة عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر ان رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال اذا رايت الله تعالى يعطي العباد ما يشاؤون على
معاصيهم اياه فانما ذلك استدراج منه ثم تلا فلما نسوا ما ذكروا
به فتحنا لهم ابواب كل شي حتى فرحوا بما اوتوا اخذناهم بغتة فاذا هم
مبلسون فاما سائر المحرمات التي منع الشرع منها واستقر
التكليف عقلا او سمعا بالنهي عنها فتنقسم قسمين منها ما تكون النفوس
داعية اليها والشهوات باعثة عليها كالسفاح وشرب الخمر فقد
زجر الله تعالى لقوة الباعث عليها وشدة الميل اليها بنوعين
من الزجر احدهما حد عاجل يرتدع به الجريء والثاني

اذا

والزجر عنها والشهوات مصروفة
عنه لعطب بالطبع منه

وعيد آجل يزدجر به التقي ومنها ما تكون النفوس نافرة منها و
الشهوات مصروفة عنها كاكل الخبائث والمستقذرات
وشرب السموم المتلفات فاقتصر الله سبحانه في الزجر عنها
بالوعيد وحده دون الحد لان النفوس مسعدة ثم اكد الله تعالى
زواجره بانكار المنكرين لها فاوجب الامر بالمعروف والنهي
عن المنكر ليكون الامر بالمعروف تاكيدا للاوامر والنهي تاكيدا
للزواجر لان النفوس الاشرة قد الهتها الصبوة عن اتباع الاوامر
واذهلتها الشهوة عن تذكار الزواجر وكان انكار المجاهرين
ازجر لها وتوبيخ المخالطين ابلغ فيها ولذلك قال النبي عليه السلم
ما اقر قوم المنكر بين اظهرهم الا عمهم الله تعالى بعذاب محتضر
واذا كان ذلك كذلك فلا يخلو حال فاعلي المنكر من حالتين احدهما
ان يكونوا احادا متفرقين وافرادا متبددين لم يتحزبوا فيه ولم
يتظافروا عليه وهم رعية مقهورون واشذاذ مستضعفون
فلا خلاف بين الناس ان امرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر مع
المكنة وظهور القدرة واجب على من شاهد ذلك من فاعليه او
سمعه من قائليه وانما اختلفوا في وجوب ذلك على منكريه هل
وجب عليهم بالعقل او بالشرع فذهب بعض المتكلمين الى وجوب

عن الامر

مقهورون

ذلك بالعقل لانه لما وجب بالعقل ان يمتنع من القبيح وجب ايضا
بالعقل ان يمنع غيره منه لان ذلك ادعى الى مجانبته وابلغ في مفارقته
وقد روى عبد الله بن المبارك قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم ان قوما ركبوا سفينة في البحر فاقتسموا فاخذ كل واحد
منهم موضعا فنقر رجل منهم موضعه بفاس فقالوا ما تصنع
قال هو مكاني اصنع به ما شئت فلم ياخذوا على يديه فهلك وهلكوا
وذهب آخرون الى وجوب ذلك بالشرع دون العقل لان العقل
لو اوجب النهي عن المنكر ومنع غيره من القبيح لوجب مثله على
الله تعالى ولما جاز ورود الشرع باقرار اهل الذمة على الكفر وترك
النكير عليهم لان واجبات العقول لا يجوز ابطالها بالشرع وفي
ورود الشرع بذلك دليل على ان العقل غير موجب لانكاره فاما
اذا كان في ترك انكاره مضرة لاحقة بمنكره وجب انكاره بالعقل
على القولين معا فاما ان لحق المنكر مضرة من انكاره ولم تلحقه
مضرة من تركه واقراره لم يجب عليه الانكار لا بالعقل ولا بالشرع
اما العقل فلانه يمنع من اجتلاب المضار التي لا يوازيها نفع
واما الشرع فقد روى ابو سعيد الخدري عن النبي عليه السلم
انه قال انكر المنكر بيدك فان لم تستطع فبلسانك فان لم تستطع

فبقلبك وذلك اضعف الايمان فان اراد الانكار مع لحوق المضرة
به نظر فان لم يكن اظهار النكير فيما يتعلق باعزاز دين الله ولا
اظهار كلمة الحق لم يجب عليه النكير اذا خشي بغالب الظن تلفا
او ضررا ولم يحسن منه النكير ايضا وان كان في اظهار النكير
اعزاز دين الله تعالى واظهار لكلمة الحق حسن منه النكير مع
خشية الاضرار والتلف وان لم يجب اذا كان الغرض قد يحصل
له بالنكير وان استضر او قتل وعلى هذا الوجه قال النبي عليه
السلم ان افضل الاعمال كلمة حق عند سلطان جابر فاما ان
كان يقتل قبل حصول الغرض قبح في العقل ان يتعرض لانكاره
وكذلك الانكار يزيد المنهي اغراء بفعل المنكر ولجاجا في الاستكثار
منه قبح في العقل انكاره. والحال الثانية ان يكون فعل المنكر
من جماعة قد تظافرت عليه وعصبة قد تحزبت ودعت اليه
فقد اختلف الناس في وجوب انكاره على مذاهب شتى فقالت طائفة
من اصحاب الحديث واهل الآثار لا يجب انكاره والاولى بالانسان
ان يكون كافا ممسكا وملازما لبيته وادعا غير منكر ولا مستنفر
وقالت طائفة اخرى ممن يقول بظهور المنتظر لا يجب انكاره
ولا التعرض لازالته الى ان يظهر المنتظر فيتولى انكاره بنفسه

عليه

لو كان

ويكونون حينئذ اعوانه وقالت طائفة اخرى منهم الاصم لا يجوز
للناس انكاره الا ان يجتمعوا على امام عادل فيجب عليهم الانكار
معه وقال جمهور المتكلمين ان انكار ذلك واجب عليه والدفع عنه
لازم على شروطه في وجود اعوان يصلح زواله اما مع فقد الاعوان
فعلى الانسان الكف لان الواحد قد يقتل قبل بلوغ الغرض فيه
وذلك قبيح في العقل ان يتعرض له فهذا الحكم ما اكد الله تعالى
به اوامره وابد به زواجره من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر
وما اختلف من احوال الامرين به والناهين عنه ثم ليس يخلو
حال الانسان فيما امروا به ونهوا عنه من فعل الطاعات واجتناب
المعاصي من اربعة احوال فمنهم من يستجيب الى فعل الطاعات
ويكف عن ارتكاب المعاصي وهي اكمل احوال اهل الدين وافضل
صفات المتقين فمن فعل هذا منهم استحق جزاء العاملين وثواب
المطيعين وروى محمد بن عبد الملك المدني عن نافع عن ابن
عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الذنب لا ينسى والبر
لا يبلى والديان لا يموت فكن كما شئت فكما تدين تدان وقد قيل
كل يحصد ما يزرع ويجزى بما يصنع بل قالوا ازرع يوما تحصد
غدا ومنهم من يمتنع من فعل الطاعات ويقدم على ارتكاب المعاصي

وهو اخبث احوال المكلفين وشر صفات المتعبدين فهذا يستحق
عقاب اللاهي عن فعل ما امر به من طاعته وعذاب المجتري على ما
اقدم عليه من معصيته وقد قال ابن شبرمة عجبت لمن يحتمي
من الطيبات مخافة الداء كيف لا يحتمي من المعاصي مخافة
النار فاخذ ذلك بعض الشعراء فقال

جسمك قد افنيته بالحمى دهرا من البارد والحار
وكان اولى بك ان تحتمي من المعاصي حذر النار

وقال ابن ضبارمة انا نظرنا فوجدنا الصبر على طاعة الله
تعالى اهون من الصبر على عذاب الله وقال اخر اصبروا
عباد الله على عمل لا غنا بكم عن ثوابه واصبروا عن عمل لا صبر
لكم على عقابه وقيل للفضيل بن عياض رضي الله عنك فقال
كيف يرضى عني ولم ارضه ومنهم من يستجيب الى فعل الطاعات
ويقدم على ارتكاب المعاصي فهذا يستحق عقاب المجتري لانه
تورط بغلبة الشهوة على الاقدام على المعصية وان سلم من التقصير
في فعل الطاعة وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه
قال اقلعوا عن المعاصي قبل ان ياخذكم الله فيدعكم
هتا بتا ولذلك قال بعض العلماء افضل الناس من لم تفسد

الشهوة دينه ولم تزل الشبهة يقينه • وقال حماد بن زيد عجبت
لمن يحتمي من الاطعمة لمضرتها كيف لا يجتنب الذنوب لمعرتها
وقال بعض الصلحاء اهل الذنوب مرضى القلوب • وقيل
للفضيل بن عياض ما اعجب الاشياء فقال قلب عرف الله ثم
عصاه • وقال بعض الادباء يدل بالطاعة العاصي وينسى
عظيم المعاصي • وقال رجل لابن عباس ايما احب اليك
رجل قليل الذنوب قليل العمل او رجل كثير الذنوب كثير العمل
فقال ابن عباس لا اعدل بالسلامة شيئا • وقيل لبعض
الزهاد ما تقول في صلاة الليل فقال خف الله تعالى بالنهار
ونم بالليل • وسمع بعض الزهاد رجلا يقول لقوم اهلككم
النوم فقال بل اهلككم اليقظة • وقيل لابي هريرة ما
التقوى فقال اجزت في ارض فيها شوك قال نعم قال فكيف
كنت تصنع قال اتوقاه قال فتوق الخطايا كذلك • وقال عبد الله
ابن المبارك • ابصر لي فتى ترك المعاصي وارهنه الكفالة بالخلاص •
اطاع الله قوم فاستراحوا ولم يتجرعوا غصص المعاصي •
ومنهم من يمتنع من فعل الطاعات ويكف عن ارتكاب المعاصي
فهذا يستحق عقاب اللاهي عن دينه المبذر بتلف يقينه • روى ابو

ادريس الخولاني عن ابي ذر الغفاري عن النبي عليه السلم انه
قال كانت صحف موسى عليه السلم كلها عبرا عجبت لمن ايقن بالنار
ثم هو يضحك وعجبت لمن ايقن بالموت ثم هو يفرح وعجبت لمن ايقن
بالقدر ثم هو ينصب وعجبت لمن راى الدنيا وتقلبها باهلها ثم يطمئن
اليها وعجبت لمن ايقن بالحساب غدا ثم لا يعمل • روي عن النبي
عليه السلم انه قال اجتهدوا في العمل فان قصر بكم ضعف
فكفوا عن المعاصي وهذا واضح المعنى لان الكف عن المعاصي
ترك وهو اسهل وعمل الطاعات فعل وهو اثقل ولذلك لم يبح الله
تعالى ارتكاب معصية بعذر ولا عذر لانه ترك والترك لا يعجز
المعذور عنه • وقال بكر بن عبد الله رحمه الله من كان قويا فاعمل
قوته في طاعة الله او كان ضعيفا فكف عن معصية الله • قال
عبد الله الاعلى بن عبد الله الشامي •
العمر ينقص والذنوب تزيد • وتقال عثرة الفتى فيعود
هل يستطيع جحود ذنب واحد • رجل جوارحه عليه شهود
والمرء يسأل عن سنيه ويشتهي • تنفيسها وعن الممات يحيد
واعلم ان لاعمال الطاعات ومجانبة المعاصي آفتين احدهما
تكسب الوزر والاخرى توهن الاجر فاما المكتسب للوزر فالاعجاب

غير

بعمله

بما سلف من عمله وقدّم من طاعته لأنّ الإعجاب به يفضي إلى حالتين
مذمومتين أحدهما أنّ المعجب بعمله ممتنّ به والممتنّ على الله تعالى
جاحد لنعمه قال ابن عباس أوحى الله تعالى إلى نبيّ من أنبيائه أمّا
زهدك في الدنيا فقد استعجلت به الراحة وأمّا انقطاعك إليّ
فهو عزّ لك فهذا ذلك وبغيت أنا • والثانية أنّ المعجب مدلّ به والمدلّ
مجترئ والمجترئ على الله عاص ❁ وقد قال مورّق العجلي ❁
خير من العجب بالطاعة أن لا تأتي بالطاعة • وقال بعض السلف
ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدلّ على ربّه وباك نادم على
ذنبه خير من ضاحك معترّ بلهوه ❁ وأمّا الموهنة للأجر فالثقة
بما أسلف والركون إلى ما قدّم لأنّ الثقة تؤول إلى أمرين أحدهما
أنها تحدث اتّكالا على ما مضى وتقصيرا فيما يستقبل ومن قصّر
واتّكل لم يرج أجرا ولم يؤدّ شكرا • والثاني أنّ الواثق آمن
والآمن من الله تعالى غير خائف ومن لم يخف الله تعالى هانت عليه
أوامره وسهل عليه زواجره • وقد قال الفضيل بن عياض
رهبة المرء من الله تعالى على قدر علمه بالله تعالى ❁ وقال مورّق
العجلي لأن أبيت نائما وأصبح نادما أحبّ إليّ من أن أبيت قائما
وأصبح ناعما • وقالت الحكماء ما بينك وبين أن لا يكون فيك خير

إلّا أن ترى أنّ فيك خيرا • وقيل لرابعة هل عملت عملا قطّ ترين
أن يقبل منك قالت إن كان شيء فخوفي من أن يردّ عليّ عملي • وقال
ابن السمّاك إنّا لله فيما مضى ما أعظم فيه الخطر وإنّا لله فيما بقي
ما أقلّ منه الحذر • وحكي أنّ بعض الزهّاد وقف على جمع فنادى
بأعلى صوته يا معشر الأغنياء لكم أقول استكثروا من الحسنات
فإنّ ذنوبكم كثيرة ويا معشر الفقراء لكم أقول أقلّوا من الذنوب
فإنّ حسناتكم قليلة • فينبغي أحسن الله لك التوفيق أن لا تضيع صحّة
جسمك وفراغ وقتك بالتقصير في طاعة ربّك والثقة بسالف عملك
واجعل الاجتهاد غنيمة صحّتك والعمل فرصة فراغك فليس
كلّ الزمان مسعدا ولا ما فات مستدركا وللفراغ زيغ أو ندم
وللخلوة ميل أو أسف • وقد قال عمر رضي الله عنه الراحة للرجال
غفلة وللنساء غلمة • وقال بزرجمهر إن يكن الشغل مجهدة
فإنّ الفراغ مفسدة • وقال بعض الحكماء إيّاكم والخلوات
فإنها تفسد المعقود وتعقد المحلول • وقال بعض البلغاء
لا تمض يومك في غير منفعة ولا تضع مالك في غير صنيعة
فالعمر أقصر من أن ينفد في غير المنافع والمال أقلّ من أن يصرف
في غير الصنائع والعاقل أجلّ من أن يفني أيّامه فيما لا يعود

عليه نفعه وخيره، وينفق أمواله فيما لا يحصل له ثوابه وأجره،
وأبلغ من ذلك قول عيسى بن مريم عليه السلام: البر ثلاثة: المنطق
والنظر والصمت، فمن كان منطقه في غير ذكر فقد لغا،
ومن كان نظره في غير اعتبار فقد سها، ومن كان صمته في
غير فكر فقد لها. واعلم أن للإنسان فيما كلف من عباداته
ثلاثة أحوال: أحدها أن يستوفيها من غير تقصير فيها ولا زيادة
عليها، والثانية أن يقصر فيها، والثالثة أن يزيد عليها. فأما
الحالة الأولى وهو أن يأتي بها على حال الكمال من غير تقصير
فيها ولا زيادة تطوع على غايتها فهي أوسط الأحوال وأعدلها لأنه لم
يكن منه تقصير فيذم ولا تكثير فيعجز. وقد روى سعيد بن أبي
سعيد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم
قال: سددوا وقاربوا ويسروا واستعينوا بالغدوة والروحة
وشيء من الدلجة. وقال الشاعر:

عليك بأوساط الأمور فإنها نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا

فأما الحال الثانية وهو أن يقصر فيها فلا يخلو حال تقصيره من
أربعة أحوال: أحدها أن يكون تقصيره لعذر أو عجز عنه أو مرض
أضعفه عن أداء ما كلف منه فهذا يخرج عن حكم المقصرين ويلحق

إحداها — ثلث

بأحوال العاملين لاستقرار الشرع على سقوط ما دخل تحت العجز،
وقد جاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ما من عامل
كان يعمل عملا فيقطعه عن ذلك العمل مرض إلا وكل الله تعالى به من
يكتب له ثواب عمله. والحال الثالثة أن يكون تقصيره اغترارا
بالمسامحة فيه ورجاء للعفو عنه فهذا مخدوع العقل مغرور
بالجهل، قد جعل الظن ذخرا والرجاء عدة، فهو كمن قطع سفرا
بغير زاد ظنا منه بأنه يجده في المفاوز الجدبة فيفضي به الظن
إلى الهلكة، وهذا لأن الجدب أغلب عليه، وقد ندب الله تعالى
إليه. حكي عن إسرائيل بن محمد القاضي قال: لقيني مجنون
كان يكون في الخرابات فقال: يا إسرائيل خف الله خوفا يشغلك
عن الرجاء، فإن الرجاء يشغلك عن الخوف، وفر إلى الله تعالى ولا
تفر منه. وقيل لمحمد بن واسع: إنك لتتكئ؟ فقال: تلك جلسة
الآمنين. وحكي أن أبا حازم الأعرج أخبر سليمان بن
عبد الملك بوعيد الله عز وجل للمذنبين، فقال سليمان: فأين
رحمة الله؟ قال: قريب من المحسنين. وقال عبد الله بن عباس:
ما انتفعت ولا اتعظت بعد رسول الله بمثل كتاب كتبه إلي
علي بن أبي طالب رضوان الله عليه: أما بعد فإن الإنسان يسر

درك ما لم يكن ليفوته وبسوءه فوت ما لم يكن ليدركه فلا تكن بما نلت من دنياك فرحا ولا لما فاتك منها ترحا ولا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ويؤخر التوبة بطول أمل فكأن قد والسلام. وقال محمد الوراق:

أخاف على المحسن المتقي ... وأرجو الذي الهفوات المسي

فذلك خوفي على محسن ... فكيف على الظالم المعتدي

على أن ذا الزيغ قد يستفيق ... ويستأنف الزيغ قلب المتقي

والحال الثالث أن يكون تقصيره فيه ليسوفه ما أخل به من بعد فيبدأ بالسيئة في التقصير قبل الحسنة في الاستيفاء اغترارا بالأمل في إمهاله ورجاء لتلافي ما أسلف من تقصيره وإخلاله فلا ينتهي به الأمل إلى غاية ولا يفضي به إلى نهاية لأن الأمل في ثاني حال كهو في أول حال. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من كان يأمل أن يعيش غدا فإنه يأمل أن يعيش أبدا. ولعمري إن هذا صحيح لأن لكل غد غدا فإذا يفضي به الأمل إلى الفوت من غير درك ويؤديه الرجاء إلى الإهمال من غير تلاف فيصير الأمل خيبة والرجاء إياسا. وقد روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال أول صلاح هذه الأمة باليقين والزهد وفسادها بالبخل والأمل. قال

الحسن البصري ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل. وقال رجل لبعض الزهاد بالبصرة ألك حاجة ببغداد قال ما أحب أن أبسط أملي حتى تذهب إلى بغداد وتجيء. وقال بعض الحكماء الجاهل يعتمد على أمله والعاقل يعتمد على عمله. وقال بعض البلغاء الأمل كالسراب غر من رآه وخاب من رجاه. وقال محمد بن يزداد دخلت على المأمون وكان يومئذ وزيره فرأيته قائما وبيده رقعة فقال يا محمد أقرأت ما فيها فقلت هي في يد أمير المؤمنين قال فرمى بها إلي فإذا فيها مكتوب:

إنك في دار لها مدة ... يقبل فيها عمل العامل

أما ترى الموت محيطا بها ... يقطع فيها أمل الآمل

تعجل الذنب لما تشتهي ... وتأمل التوبة من قابل

والموت يأتي بعد ذا غفلة ... ماذا بفعل الحازم العاقل

فلما قرأتها قال المأمون هذا من أحكم شعر قرأته. وقال أبو حازم الأعرج نحن لا نريد أن نموت حتى نتوب ونحن لا نتوب حتى نموت. وقال بعض البلغاء الإمهال رائد الإهمال. والحال الرابع أن يكون تقصيره فيهما استثقالا للاستيفاء وزهدا في التمام واقتصارا على ما سنح وقلة اكتراث فيما بقي فهذا

على ثلاثة أضرب أحدها أن يكون ما أخل به وقصر فيه غير
قادح في فرض ولا مانع من إجزاء عبادة كمن اقتصر من العبادة
على فعل واجباتها ومفروضاتها وأخل بمسنوناتها وهيئاتها
فهذا مسيء فيما ترك إساءة من لا يستحق وعيدا ولا يستوجب
عقابا لأن أداء الواجب يسقط عنه العقاب والإخلال بالمسنون
يمنع من كمال الثواب • وقد قال بعض الحكماء من تهاون بالدين
هان ومن غالب الحق لان • وقال الشاعر

واحق ما صان الفتى ورعى امانته ودينه •
ويصون ثوبه ويترك غير ذلك ان يصونه •

والضرب الثاني أن يكون ما أخل به من مفروض عباداته لكن
لا يقدح ترك ما بقي فيما مضى كمن أكمل عبادة وأخل بغيرها فهذا
أسوأ حالا مما تقدمه لما استحقه من الوعيد واستوجبه من
العقاب • والضرب الثالث أن يكون ما أخل به من مفروض
عباداته وهو قادح فيما عمل منها كالعبادة التي يرتبط بعضها
ببعض فيكون مقصرا في بعضها تاركا لجميعها فلا يحتسب له
بما عمل للإخلال بما بقي وهذه أسوأ حالات المقصرين ولاحقة
بأحوال التاركين بل قد تكلف ما لا يسقط فرضا ولا يؤدي حقا

المقصر

فقد ساوى التاركين في استحقاق الوعيد وزاد عليهم في تكلف
ما لا يفيد فصار من الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في
الحيوة الدنيا وهم في الآخرة • ثم لعله لا يفطن لشأنه ولا
يشعر بخسرانه وقد خسر الدنيا والآخرة ويفطن لليسير
من ماله إن وهى واختل • وأنشدني بعض أهل الأدب

• ابنيّ ان من الانام بهيمة في صورة الرجل السميع المبصر •
• فطن لكل مصيبة في ماله واذا يصاب بدينه لم يشعر •

وأما الحالة الثالثة وهو أن يزيد فيما كلف فهذا على ثلاثة أقسام
أحدها أن تكون الزيادة رياء للناظرين وتصنعا للمخلوقين
حتى يستعطف به القلوب النافرة ويخدع به العقول الواهية
فيتبهرج بالصلحاء وليس منهم ويتدلس في الأخيار وهو ضدهم
وقد ضرب النبي عليه السلام للمرائي بعمله مثلا فقال المتشبع
بما لا يملك كلابس ثوبي زور • يريد بالمتشبع بما لا يملك المتزين بما
ليس فيه وقوله كلابس ثوبي زور هو الذي يلبس ثياب الصلحاء
ويفعل أفعال الطلحاء فهو برياءه محروم الأجر مذموم الذكر
لأنه لم يقصد به وجه الله تعالى فيؤجر عليه ولا تخفى الزيادة
على الناس فيحمد به • وقد قال الله تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه

فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه احداً • اي لا يرائي
بعمله احداً فجعل الرياء شركاً لانه ما يقصد به وجه الله تعالى
مقصوداً به غير الله تعالى • وقال الحسن البصري رحمه الله
في قوله تعالى • ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها قال لا تجهر بها
رياء ولا تخافت بها حياء • وكان سفين بن عيينة يتاول قوله تعالى
ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن
الفحشاء والمنكر والبغي • ان العدل استواء السريرة والعلانية
في العمل لله تعالى والاحسان ان تكون سريرته احسن من علانيته
والفحشاء والمنكر ان تكون علانيته احسن من سريرته وكان
غيره يقول العدل شهادة ان لا اله الا الله والاحسان الصبر
على امره ونهيه وطاعة الله في سره وجهره وايتاء ذي القربى
صلة الارحام وينهى عن الفحشاء يعني الزنا والمنكر القبائح
والبغي الكبر والظلم وليس يخرج الامر من هذا التاويل ايضاً
لانه من جملة القبائح • وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال اخوف ما اخاف على امتي الرياء الظاهر والشهوة الخفية
وروي عن النبي عليه السلام انه قال اشد الناس عذاباً يوم القيامة
من يرى ان فيه خيراً ولا خير فيه • وقال علي بن ابي طالب

كرم الله وجهه لا تعمل شيئاً من الخير رياء ولا تتركه حياء • وقال
بعض البلغاء كل حسنة لم يرد بها وجه الله تعالى فعلتها قبح
الرياء وثمرتها سوء الجزاء • وقد يفضي الرياء بصاحبه الى
استهزاء الناس به كما حكي ان طاهر بن الحسين قال
لابي عبد الله المروزي منذ كم صرت الى العراق يا ابا عبد الله
قال دخلت العراق منذ عشرين سنة وانا منذ ثلثين سنة
صايم فقال يا ابا عبد الله سالناك عن مسئلة فاجبتنا عن مسئلتين
وحكى الاصمعي ان اعرابياً صلى فاطال والى جانبه قوم فقالوا
ما احسن صلاتك فقال وانا مع ذلك صايم فقال اعرابي كان فيهم

صلى فاعجبني وصام فرابني ❁ نح القلوص عن المصلي الصايم

فانظر الى هذا الرياء مع قبحه ما ادله على سخف عقل صاحبه وربما
ساعد الناس لظهور ريائه على الاستهزاء بنفسه كالذي حكي
ان زاهداً نظر الى رجل في وجهه سجادة كبيرة واقفاً على باب
السلطان فقال مثل هذا الدرهم بين عينيك وانت ها هنا فقال
انه ضرب على غير السكة وهذا من اجوبة الخلاعة التي يدفع
بها تهجين المذمة ولقد استحسن الناس من الاشعث بن قيس
وقد خفف صلاته مرة فقال له بعض اهل المسجد خففت

صلاتك جدا فقال انه لم يخالطها ريآء فخلص من نقصهم وسلم
من تعنتهم ونفى الريآء ورفع التصنع من صلاته ومر ابو امامة
ببعض المساجد فاذا برجل يصلي وهو يبكي فقال انت انت لو كان
هذا في بيتك فلم ير ذلك منه حسنا لانه اتهمه بالريآء ولعله كان
بريا منه فكيف من صار الريآء اغلب صفاته واشهر سماته مع انه
من هبوب النسيم بما حمل ولذلك قال عبد الله بن المبارك افضل
الزهد اخفآء الزهد وربما احس ذو الفضل من نفسه ميلا الى
المراآة فبعثه الفضل على هتك ما نازعته النفس في المراآة به
وكان ذلك ابلغ في فضله كالذي حكي عن عمر بن الخطاب رضي الله
عنه انه احس على المنبر بريح خرجت منه فقال ايها الناس اني قد
مثلت بين ان اخافكم في الله تعالى وبين ان اخاف الله تعالى فيكم فكان
ان اخاف الله فيكم احب الي الا واني قد فسوت وها انا ذا انزل
لاعيد الوضوء وكان ذلك منه زجرا لنفسه لتكف عن نزاعها
الى مثله. وقال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كعب القرظي عظني
فقال لا ارضى نفسي لك لاني اجلس بين الفقير والغني فاميل على
الفقير واوسع للغني ولان طاعة الله تعالى في العمل لوجهه
لا لغيره. حكي ان قوما ارادوا سفرا فحادوا عن الطريق

فانتهوا الى راهب فقالوا قد ضللنا فكيف الطريق قال ها هنا
واومى الى السمآء. والقسم الثاني ان يفعل الزيادة اقتدآء بغيره
وهذا قد تثمره مجالسة الاخيار الافاضل وتحدثه مكاثرة
الاتقيآء الاماثل ولذلك قال النبي عليه السلم المرء على دين
خليله فلينظر احدكم من يخالل. فاذا كاثرهم المجالس وطاولهم
المواطن احب ان يقتدي بهم في افعالهم ويتاسى بهم في اعمالهم ولا
يرضى لنفسه ان يقصر عنهم ولا ان يكون في الخير دونهم فتبعثه
المنافسة على مساواتهم وربما دعته الحمية الى الزيادة عليهم
والمكاثرة لهم فيصيروا سببا لسعادته وباعثا على استزادته
والعرب تقول لولا اللئام هلك الانام اي لولا ان الناس
يرى بعضهم بعضا فيقتدي به في الخير لهلكوا ولذلك قال بعض
البلغآء ان من خير الاختيار صحبة الاخيار ومن شر الاختيار
مودة الاشرار وهذا صحيح لان للمصاحبة تاثيرا في
اكتساب الاخلاق فتصلح اخلاق المرء بمصاحبة اهل
الصلاح وتفسد بمصاحبة اهل الفساد. وقال الشاعر

رايت صلاح المرء يصلح اهله ... ويعديهم عند الفساد اذا فسد
يعظم في الدنيا بفضل صلاحه ... ويحفظ بعد الموت في الاهل والولد

وأنشد بعض أهل الأدب لأبي بكر الخوارزمي

لا تصحب الكسلان في حاجاته ... كم صالح بفساد آخر يفسد

عدوى البليد إلى الجليد سريعة ... والجمر يوضع في الرماد فيخمد

والقسم الثالث أن يفعل الزيادة ابتداء من نفسه التماسا لثوابها ورغبة في الزلفة بها فهذا من نتائج النفس الزكية ودواعي الرغبة الوافية الدالين على خلوص الدين وصحة اليقين وذلك أفضل أحوال العاملين وأعلى منازل العابدين. وقد قيل الناس في الخير أربعة منهم من يفعله ابتداء ومنهم من يفعله اقتداء ومنهم من يتركه استحسانا ومنهم من يتركه حرمانا فمن فعله ابتداء فهو كريم ومن فعله اقتداء فهو حكيم ومن تركه استحسانا فهو ردي ومن تركه حرمانا فهو شقي. ثم لما يفعله من الزيادة حالتان إحداهما أن يكون مقتصدا فيها وقادرا على الدوام عليها فهي أفضل الحالتين وأعلى المنزلتين عليها انقرض أخيار السلف وتبعهم فيها فضلاء الخلف وقد روت عائشة رضي الله عنها أن النبي عليه السلام قال أيها الناس اكلفوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل من الثواب حتى تملوا من العمل وخير الأعمال ما دمتم عليه. والعرب تقول

القصد والدوام وأنت السابق الجواد ولأن من كان صحيح الرغبة في ثواب الله تعالى لم تكن له مسرة إلا في طاعته قال عبد الله بن المبارك قلت لراهب متى عيدكم قال كل يوم لا أعصي الله فيه فهو يوم عيد انظر إلى هذا القول منه وإن لم يكن من مقاصد الطاعة ما أبلغه من حب الطاعة وأحثه على بذل الاستطاعة. وخرج بعض الزهاد في يوم عيد في هيئة رثة فقيل له أتخرج في مثل هذه الهيئة والناس يتزينون فقال ما يتزين لله تعالى بمثل طاعته. والحال الثانية أن يستكثر منها استكثار من لا ينهض بدوامها ولا يقدر على اتصالها فهذا ربما كان بالمقصر أشبه لأن الاستكثار من الزيادة إما أن يمنع من أداء اللازم فلا يكون إلا تقصيرا لأنه تطوع بزيادة أحدثت نقصا ومنع فرضا وإما أن يعجز عن استدامة الزيادة ويمتنع من ملازمة الاستكثار من غير إخلال بلازم ولا تقصير في فرض فهي إذا قصيرة المدى قليلة اللبث وقليل العمل في طويل الزمان أفضل عند الله من كثير العمل في قصير الزمان لأن المستكثر من العمل في الزمان القصير قد يعمل زمانا ويترك زمانا فربما صار في زمان تركه لاهيا أو ساهيا

والمقلل في الزمان الطويل مستيقظ الافكار مستديم التذكار
وقد روى ابو صالح عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
ان للاسلام شرة وللشرة فترة فمن سدد وقارب فارجوه ومن
اشير اليه بالاصابع فلا تعدوه فجعل للاسلام شرة وهي
الافعال في الاستكثار وجعل للشرة فترة وهي الاهمال
بعد الاستكثار فلم تخل بما اثبت من ان تكون هذه الزيادة
تقصيرا او اخلالا ولا خير في واحد منهما • واعلم جعل الله
العلم لك وعليك والحق فابدا لك وبك ان الدنيا اذا وصلت
تبعاتُ موبقة واذا فارقت ففجعاتُ محرقة وليس لوصلها دوام
ولا من فراقها بد فروض نفسك على قطيعتها لتسلم من تبعاتها
وعلى فراقها لتامن من فجعاتها فقد قيل المرء مفترض
من عمره المنقرض مع ان العمر وان طال قصير والفراغ
وان تم يسير • انشدت لعلي بن محمد •

جاكما

اذا كملت للمرء ستون حجة • فلم يحظ من ستين الا بسدسها •
الم تر ان النصف لليل حاصل • وتذهب اوقات المقيل بخمسها •
وتاخذ اوقات الهموم بحصة • واوقات اوجاع يميت بمسها •
فحاصل ما يبقى له سدس عمره • اذا صدقته النفس عن علم حدسها •

ورياضة نفسك لذلك تترتب على احوال ثلث وكل حال منها تتشعب
وهي لتسهيل ما يليها سبب فالحال الاولى ان تصرف حب الدنيا
عن قلبك فانها تلهيك عن آخرتك ولا تجعل سعيك لها فيمنعك
حظك منها وتوق الركون اليها ولا تكن آمنا لها فقد روي عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال من اشرب قلبه حب الدنيا وركن
اليها التاط منها بشغل لا يبلغ غناه وامل لا يبلغ منتهاه وحرص
لا يدرك مداه • وقال عيسى بن مريم عليه السلم الدنيا لابليس
مزرعة واهلها له حراث • وقال علي بن ابي طالب كرم الله
وجهه مثل الدنيا مثل الحية لين مسها قاتل سمها فاعرض
عما اعجبك منها لقلة ما يصحبك منها وضع عنك همومها لما ايقنت
من فراقها وكن احذر ما تكون لها آنس ما تكون بها فان صاحبها
كلما اطمأنت منها الى سرور اشخصه عنها مكروه فان سكن بها الى
ايناس ازاله ايحاش • وقال بعض البلغاء ان الدنيا لا تصفو

عنها صح

لشارب ولا تبقى لصاحب ولا تخلو من فتنة ولا تخلي من محنة
فاعرض عنها قبل ان تعرض عنك واستبدل بها قبل ان تستبدل
بك فان نعيمها يتنقل واحوالها تتبدل ولذاتها تفنى وتبعاتها
تبقى • وقال بعض الحكماء انظر الى الدنيا نظر الزاهد المفارق

ولا تنا ملها تامل الوامق العاشق ❀ وقال بعض الشعراء ❀

الا انما الدنيا كاحلام نايم وما خير عيش لا يكون بدايم ❀
تامل اذا ما نلت بالامس لذة فافنيتها هل انت الا كحالم ❀
فمن غافل عنه وليس بغافل ومن نايم عنها وليس بنايم ❀

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من هوان الدنيا على الله تعالى لا يعصى الا فيها ولا ينال ما عنده الا بتركها • وروى سفين ان الخضر قال لموسى يا موسى لغزف عن الدنيا وانبذها وراءك فانها ليست لك بدار ولا فيها محل قرار وانما جعلت الدنيا للعباد ليتزودوا منها للمعاد • وقال عيسى بن مريم عليه السلم يصف الدنيا اولها عناء وآخرها فناء حلالها حساب وحرامها عقاب من صح فيها امن ومن مرض فيها ندم ومن استغنى فيها افتتن ومن افتقر فيها حزن من ساعاها فاتته ومن قعد عنها اتته ومن نظر اليها اعمته ومن نظر بها بصرته • وقال بعض البلغاء ان الدنيا تقبل اقبال الطالب وتدبر ادبار الهارب وتصل وصال الملول وتفارق فراق العجول فخيرها يسير وعيشها قصير واقبالها خديعة وادبارها فجيعة ولذاتها فانية وتبعاتها باقية فاغتنم غفوة الزمان وانتهز فرصة الامكان

الآ

وخذ من نفسك لنفسك وتزود من يومك لغدك • وقال وهب ابن منبه مثل الدنيا والآخرة مثل ضرتين ان ارضيت احدهما اسخطت الاخرى • وقال عبد الحميد الدنيا منازل فراحل ونازل • وقال بعض الحكماء الدنيا اما نقمة نازلة واما نعمة زايلة • وقيل في منثور الحكم من الدنيا على الدنيا دليل • وقال

بعض الشعرا

تمتع من الدنيا ان كنت حازما فانك منها بين ناه وآمر ❀
اذا ابقت الدنيا على المرء دينه فما فات من شيء فليس بضاير ❀
فلن تعدل الدنيا جناح بعوضة ولا وزن زف من جناح لطاير ❀
فما رضي الدنيا ثوابا لمؤمن ولا رضي الدنيا جزاء لكافر ❀

روي عن النبي عليه السلم انه قال الدنيا يومان يوم فرح ويوم غم وكلاهما زايل عنك فدعوا ما يزول واتعبوا انفسكم في العمل لما لا يزول • وقال عيسى بن مريم عليه السلم لا تنازعوا اهل الدنيا في دنياهم فينازعوكم في دينكم فلا دنياهم اصبتم ولا على دينكم بقيتم • وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه لا تكن ممن يقول في الدنيا قول الزاهدين ويعمل فيها عمل الراغبين ان اعطي منها لم يشبع وان منع منها لم يقنع يعجز عن شكر ما اولي ويبتغي الزيادة فيما بقي ينهى ولا ينتهي ويامر بما لا ياتمر يحب الصالحين ولا يعمل

بعلمهم ويبغض الطالحين وهو منهم • وقال الحسن البصري
رحمة الله عليه الدنيا كلها غم فما كان فيها من سرور فهو ربح
وقال بعض العلماء ان الدنيا كثيرة التغيير سريعة التنكير
شديدة المكر دائمة الغدر فاقطع اسباب الهوى عن قلبك واجعل
ابعد املك بقية يومك كانك ترى ثواب عملك • وقال بعض
الحكماء الدنيا اما مصيبة موجعة واما منية مفجعة • وقال
بعض الشعراء

❁ كل دنيا فانها بعقب الخير شرها هي ام تعق من نسلها من برها
كل نفس فانها تبتغي ما يضرها والمنايا تسوقها والاماني تغرها
❁ واذا استحلت الخنا اعقب الحلو مرها يستوي في ضريحه عبدا ارض وحرها

فاذا رضت نفسك من هذه الحال بما وصفت لعنصت منها ثلث
خلال احداهن ان تكفي اشفاق المحب وحذر الوامق فليس لمشفق
ثقة ولا لحاذر راحة • والثانية ان تامن الاغترار بملاهيها فتسلم
من عادية دواهيها فان اللاهي بها معذور والمغرور بها مدهو
والثالثة ان تستريح من تعب السعي لها ووصب الكد فيها فان من
حب شيئا طلبه ومن طلب شيئا كده والمكدود فيها شقي ان ظفر
ومحروم ان خاب • وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال لكعب يا كعب الناس غاديان فغاد نفسه فمعتقها ومو بق
نفسه فموبقها • وقال عيسى بن مريم عليه السلم تعملون للدنيا
وانتم ترزقون فيها بغير عمل ولا تعملون للاخرة وانتم لا ترزقون
فيها الا بعمل • وقال بعض البلغاء من نكد الدنيا ان لا تبقى على
حالة ولا تخلو من استحالة تصلح جانبا بافساد جانب وتسر
صاحبا بمساءة صاحب فالكون فيها خطر والثقة بها غرر
وقال بعض الحكماء الدنيا مرتجعة الهبة والدهر حسود
لا يأتي على شيء الا غيره ولمن عاش حاجة لا تنقضي ولها بلغ
مردك من الدنيا افضل ما سمت اليه ثقة نبذها • وقال هذا
سرور لولا انه غرور ونعيم لولا انه عديم وملك لولا انه
هلك وغناء لولا انه فناء وجسيم لولا انه ذميم ومحمود لولا
انه مفقود وغنى لولا انه منى وارتفاع لولا انه اتضاع وعلاء
لولا انه بلاء وحسن لولا انه حزن وهو يوم لو وثق له بغده
وقال بعض الحكماء قد ملك الدنيا غير واحد من راغب
وزاهد فلا الراغب فيها استبقت ولا الزاهد فيها كفت • وقال ابو العتاهية

❁ هي الدار دار الاذى والقذى ودار الفناء ودار الغير
فلو نلتها بحذافيرها لمت ولم تقض منها الوطر
❁ ابا من يؤمل طول الخلود وطول الخلود عليه ضرر

إذا ما كبرت وبان الشباب ❁ فلا خير في العيش بعد الكبر ❁

وروي عن النبي عليه السلام أنه قال اللهم إني أعوذ بك من علم
لا ينفع ونفس لا تشبع وقلب لا يخشع وعين لا تدمع هل يتوقع
أحدكم إلا غناء مطغيا أو فقرا منسيا أو مرضا مفسدا
أو هرما مفندا أو الدجال فهو شر غائب ينتظر أو الساعة
والساعة أدهى وأمر. وحكي أن الله تعالى أوحى إلى عيسى
ابن مريم عليه السلام أن هب لي من قلبك الخشوع ومن بدنك
الخضوع ومن عينيك الدموع وادعني فإني قريب. وقال عيسى بن
مريم عليه الصلاة والسلام أوحى الله تعالى إلى الدنيا من خدمني
فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه. وقال بعض الحكماء
زد من طول أملك في قصر عملك فإن الدنيا ظل الغمام وحلم
النيام فمن عرفها ثم طلبها فقد أخطأ الطريق وحرم التوفيق
وقال بعض الحكماء لا يؤمننك إقبال الدنيا عليك من إدبارها
عنك ولا دولة لك من إدالة منك. وقال آخر ما مضى من الدنيا
كما لم يكن وما بقي منها كما قد مضى. وقيل لزاهد قد خلعت
الدنيا فكيف سخت نفسك عنها فقال أيقنت أني أخرج منها
كارها فرأيت أن أدعها طائعا. وقيل لحرقة بنت النعمان ما لك

تبكين فقالت رأيت لأهلي غضارة ولن تمتلي دار فرحا إلا امتلأت
ترحا. وقال ابن السماك من جرعته الدنيا حلاوتها بميله إليها
جرعته الآخرة مرارتها لتجافيه عنها. وقال صاحب كليلة
طالب الدنيا كشارب ماء البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشا
وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يتمثل بهذه الأبيات ❁

نهارك يا مغرور سهو وغفلة ❁ وليلك نوم والأسى لك لازم ❁
تسر بما يفنى وتفرح بالمنى ❁ كما سر باللذات في النوم حالم
وسعيك فيما سوف تكره غبه ❁ كذلك في الدنيا تعيش البهائم

وسمع رجل رجلا يقول لصاحبه لا أراك الله مكروها فقال كأنك
دعوت على صاحبك بالموت إن صاحبك لصاحب الدنيا فلا بد
أن يرى مكروها ❁ وقال أبو العتاهية ❁

إن الزمان وإن ألان لأهله ❁ لمخاشن
فخطوبه المتحركات ❁ كأنهن سواكن ❁

ثم الحال الثانية من أحوال رياضتك لها أن تصدق نفسك
فيما منحتك من رغائبها ونالتك من غرائبها فتعلم أن العطية
فيها مرتجعة والمنحة فيها مستردة بعد أن يبقى عليك ما احتقبت
من أوزار وصولها إليك وخسران خروجها عنك فقد روي عن

النبي صلى الله عليه وسلم • انه قال لا تزول قدما ابن آدم حتى
يسأل عن ثلث شبابه فيما ابلاه وعمره فيما افناه وماله مم كسبه
وفيم انفقه • وروي عن عيسى بن مريم عليه السلم انه قال في المال
ثلث خصال قالوا وما هن يا روح الله قال يكسبه من غير حله
قالوا فان كسبه من حله قال يضعه في غير حقه قالوا فان وضعه
في حقه قال يشغله عن عبادة ربه • ودخل ابو حازم على بشر
ابن مروان فقال له يا ابا حازم ما المخرج مما نحن فيه قال
تنظر ما عندك فلا تضعه الا في حقه وما ليس عندك فلا تأخذه
الا بحقه قال ومن يطيق هذا يا ابا حازم قال فمن اجل ذلك
ملئت جهنم من الجنة والناس اجمعين • عيّرت اليهود عيسى
ابن مريم عليه السلم بالفقر فقال من الغنى دهيتم • ودخل
قوم منزل عابد فلم يجدوا شيئا يقعدون عليه فقال لهم لو كانت
دار مقام لاتخذنا لها اثاثا • وقيل لبعض الزهاد الا توصي
فقال بماذا اوصي والله ما لنا شيء ولا عند احد شيء ولا لاحد
عندنا شيء انظر الى هذه الراحة نجلها والى السلامة كيف
صار اليها ولذلك قيل الفقر ملك ليس فيه محاسبة • وقيل
لعيسى بن مريم عليه السلام الا تتزوج فقال انما يحب التكثر

كيف

في دار البقاء • وقيل لو دعوت الله ان يرزقك حمارا فقال انا
اكرم على الله من ان يجعلني خادم حمار • وقيل لابي حازم ما مالك
فقال شيئان الرضا عن الله تعالى والغنى عن الناس • وقيل له
انك لمسكين فقال كيف اكون مسكينا ومولاي له ما في السموات
والارض وما بينهما وما تحت الثرى • وقال بعض الحكماء رب
مغبوط بمسرة هي داؤه ومرحوم من سقم هو شفاؤه • وقال بعض
الادباء الناس اشتات ولكل جمع شتات • وقال بعض البلغاء
الزهد بصحة اليقين وصحة اليقين بنور الدين فمن صح يقينه زهد
في الثراء ومن قوي دينه ايقن بالجزاء فلا تغرنك صحة نفسك
وسلامة امسك فمدة العمر قليلة وصحة النفس مستحيلة قال الشاعر

رب مغروس يعاش به عدمته عين مغترسه

وكذلك الدهر مأتمه اقرب الاشياء من عرسه

فاذا رضت نفسك من هذه الحال بما وصفت اعتضت منها ثلث
خلال احداهن نصح نفسك وقد استسلمت اليك والنظر لها
وقد اعتمدت عليك فان غاش نفسه مغبون والمنحرف عنها
مأبون • والثانية الزهد فيما ليس لك لتكفى تكلف طلبه وتسلم
من تبعات كسبه • والثالثة انتهاز الفرصة في مالك ان تضعه

في حقه وان تؤتيه لمستحقه ليكون لك ذخرا ولا يكون عليك وزرا
فقد روي ان رجلا قال يا رسول الله اني اكره الموت فقال الك مال
قال نعم قال قدم مالك فان قلب كل امرئ عند ماله • وقالت
عايشة رضي الله عنها ذبحنا شاة فتصدقنا بها فقلت يا رسول
الله ما بقي منها الا كتفها فقال كلها بقي الا كتفها • وحكي ان
عبد الله بن عتبة بن مسعود باع دارا بثمانين الفا فقيل له لو
اتخذت لولدك من هذا المال ذخرا فقال اجعل هذا المال ذخرا
لي عند الله واجعل الله ذخرا لولدي ثم تصدق بها • وعوتب
سهل بن عبد الله المروزي في كثرة الصدقة فقال لو ان رجلا
اراد ان ينتقل من دار الى دار هل كان في الاولى شيئا • وقال سليمان
ابن عبد الملك لابي حازم ما لنا نكره الموت قال لانكم خربتم آخرتكم
وعمرتم دنياكم فكرهتم ان تنتقلوا من العمران الى الخراب • وقيل
لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما ترك زيد بن خارجة مائة الف
درهم قال لكنها ما تتركه • وقال الحسن البصري رحمة الله عليه
ما انعم الله على عبد نعمة الا وعليه فيها تبعة الا سليمان فان الله
تعالى قال هذا عطاؤنا فامنن او امسك بغير حساب •••
وقال ابو حازم ان عوفينا من شر ما اعطينا لم يضرنا فقد ما

انا

يبقي

روي عنا • وقال بعض السلف قدموا كلا ليكون لكم ولا تخلفوا
كلا فيكون عليكم • وقال نعم القوم السؤال يدقون ابوابكم يقولون
توجهون الى الآخرة شيئا • وقال سعيد بن المسيب مر بي صلة
ابن اشيم فما تمالكت ان نهضت اليه فقلت يا ابا الصهباء ادع لي
فقال رغبك الله فيما يبقى وزهدك فيما يفنى ووهب لك اليقين الذي
لا تسكن النفوس الا اليه ولا يعول في الدين الا عليه • ولما ثقل
عبد الملك بن مروان رأى غسالا يلوي بيده ثوبا فقال وددت
اني كنت غسالا لا اعيش الا بما اكتسبه يوما فيوما فبلغ ذلك
ابا حازم فقال الحمد لله الذي جعلهم يتمنون عند الموت ما نحن
فيه ولا نتمنى عنده ما هم فيه • وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال يقول ابن آدم مالي مالي ما لك من مالك الا ما اكلت
فافنيت ولبست فابليت واعطيت فامضيت • وقال خالد
ابن صفوان بت ليلتي اتمنى فكبست البحر الاخضر بالذهب الاحمر
فاذا الذي يكفيني من ذلك رغيفان وكوزان وطمران • وقال
مورق العجلي • يا ابن آدم في كل يوم تؤتى برزقك وانت تحزن
وينقص عمرك وانت لا تحزن تطلب ما يطغيك وعندك ما
يكفيك • قال ابو حازم انما بيني وبين الملوك يوم واحد

اما امس فلا يجدون لذته وانا ونيم من غد على وجل وانما هو اليوم
فما عسى ان يكون . وقال بعض السلف تعرف عمر الشيء اذا منعته
لقلة ما يصحبك اذا اعطيته . وقال بعض الحكماء من ترك
نصيبه من الدنيا استوى في حظه من الآخرة . وقال آخر ترك
الدنيا قبل التلبس بها اهون من رفضها بعد ملابستها . وقال
آخر ليكون طلبك الدنيا اضطرارا وفكرتك في الامور اعتبارا
وسعيك لمعادك ابتدارا . وقال آخر الزاهد من لا يطلب المفقود
حتى يفقد الموجود . وقال آخر من امن بالآخرة لم يحرص على
الدنيا ومن ايقن بالمجازاة لم يؤثر على الحسنى . وقال آخر
من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر . وقال ابو العتاهية

ارى الدنيا لمن هي في يديه ... عذابا كلما كثرت لديه
تهين المكرمين لها بصغر ... وتكرم كل من هانت عليه
اذا استغنيت عن شيء فدعه ... وخذ ما كنت محتاجا اليه

وحكى الاصمعي قال دخلت على الرشيد يوما وهو ينظر في
كتاب ودموعه تسيل على خده فلما بصر بي قال ارأيت ما كان
مني قلت نعم يا امير المؤمنين قال اما انه لو كان لامر الدنيا
ما رأيت هذا ثم رمى القرطاس فاذا فيه شعر ابي العتاهية

هل انت معتبر بمن خربت ... منه غداة قضى دساكره
وبمن اذل الدهر مصرعه ... فتبرأت منه عساكره
ومن خلت منه اسرته ... وتعطلت منه منابره
اين الملوك وابن عزهم ... صاروا مصيرا انت صائره
يا مؤثر الدنيا للذته ... والمستعد لمن يفاخره
نل ما بدا لك ان تنال من الدنيا ... فان الموت آخره

قال الرشيد والله لكاني اطالب بهذا الشعر دون الناس فلم يلبث
بعده الا يسيرا حتى مات . ثم الحال الثانية من احوال رياضتك
لها ان تكشف لنفسك حال الاجل وتصد فيها عن غرور الامل حتى
لا يطيل لك الامل اجلا قصيرا ولا ينسيك موتا ولا نشورا وروي
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال في بعض خطبه ايها الناس
ان الايام تطوى والاعمار تفنى والابدان في الثرى تبلى وان الليل
والنهار يتراكضان تراكض البريد يقربان كل بعيد ويخلقان
كل جديد . وفي ذلك عباد الله ما الهى عن الشهوات ورغب في
الباقيات الصالحات . وقال مسعر كم من مستقبل يوما
وليس يستكمله ومنتظر غدا وليس من اجله ولو رأيتم الاجل
ومسيره لابغضتم الامل وغروره . وقال رجل من الانصار

للنبي عليه السلم من اكيس الناس قال اكثرهم ذكرا للموت واشدهم
استعدادا له اولئك الاكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الاخرة •
وقال عيسى بن مريم كما تنامون تموتون وكما تستيقظون تبعثون
وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه ايها الناس اتقوا الله الذي ان
قلتم سمع وان اضمرتم علم وبادروا الموت الذي ان هربتم ادرككم
وان اقمتم اخذكم • وقال العلاء بن المسيب ليس قبل الموت شيء
الا والموت اشد منه وليس بعد الموت شيء الا والموت ايسر منه
وقال بعض الحكماء ان للباقي بالماضي معتبرا وللآخر بالاول
مزدجرا والسعيد لا يركن الى الخدع ولا يغتر بالطمع • وقال
بعض الحكماء ان بقاءك الى فناء وفناءك الى بقاء فخذ من
فنائك الذي لا يبقى لبقائك الذي لا يفنى • وقال بعض العلماء
اي عيش يطيب وليس للموت طبيب • وقال بعض البلغاء كل
امرئ يجري من عمره الى غاية تنتهي الى مدة اجله وتنطوي
عليها صحيفة عمله فخذ من نفسك لنفسك وقس يومك بامسك
وكف عن سيئاتك وزد في حسناتك قبل ان تستوفي مدة الاجل
وتقصر عن الزيادة في السعي والعمل • وقيل في منثور الحكم
من لم يتعرض للنوائب تعرضت له • وقال ابو العتاهية

كذلك

• ما للمقابر لا تجيب اذا دعاهن الكئيب •
• حفر مسقفة عليهن الجنادل والكثيب •
• فيهن ولدان واطفال وشبان وشيب •
• كم من حبيب لم تكن نفسي بفرقته تطيب •
• غادرته في بعضهن مجدلا وهو الحبيب •
• وسلوت عنه وانما عهدي برؤيته قريب •

وعظ النبي صلى الله عليه وسلم رجلا فقال له اقلل من الدنيا
تعش حرا واقلل من الذنب يهن عليك الموت وانظر حيث
تضع ولدك فان العرق دساس • وقال الرشيد لابن السماك
رحمهما الله عظني واوجز قال اعلم انك اول خليفة تموت ∴
وعزى اعرابي رجلا على ابن له صغير فقال له الحمد لله الذي
نجاه مما ههنا من الكدر وخلصه مما بين يديه من الخطر
وقال بعض السلف من عمل للآخرة احرزها والدنيا ومن آثر الدنيا
حرمها والآخرة • وقال بعض الصلحاء اغتنم تنفس الاجل
وامكان العمل واقطع ذكر المعاذير والعلل فانك في اجل محدود
ونفس معدود وعمر غير مردود • وقال بعض الحكماء الطبيب
معذور اذا لم يدفع المحذور • وقال بعض البلغاء اعمل عمل

المرتحل فان حادي الموت يحدوك ليوم ليس يعدوك وروي عن
علي بن ابي طالب كرم الله وجهه انه قال بعد موت رسول الله صلى
الله عليه وسلم

غر جهولا امله ❁ يموت من جا اجله ❁
ومن دنا من حتفه ❁ لم تغن عنه حيله
وما بقاء آخر ❁ قد غاب عنه اوله ❁
والمرء لا يصحبه ❁ في القبر الا عمله

وقال ابو العتاهية ❁

لا تامن الموت في لحظ ولا نفس ❁ وان تمنعت بالحجاب والحرس
واعلم بان سهام الموت قاصدة ❁ لكل مدرع منا ومترس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ❁ ان السفينة لا تجري على اليبس

فاذا رضت نفسك من هذه الحال بما وصفت اعتضت منها بثلث خلال
احديهن ان تكفي تسويف امل يرديك وتسويل محال يؤذيك فان
تسويف الامل غرار وتسويل المحال اضرار والثانية ان تستيقظ
لعمل آخرتك وتغتنم بقية اجلك بخير عملك فانه من قصر امله
واستقل اجله حسن عمله • والثالثة ان يهون عليك نزول ما
ليس عنه محيص ويسهل عليك حلول ما ليس الى دفعه سبيل

فان من تحقق امرا تعطل لحلوله وهان عليه عند نزوله • روي عن
النبي عليه السلام انه قال لابي ذر نبه بالفكر قلبك وجاف عن
النوم جنبك واتق الله ربك • وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه
لابي ذر عظني فقال ارض بالقوت وخف الفوت واجعل صومك
الدنيا وفطرك الموت • وقال عمر بن عبد العزيز • ما رايت يقينا
لا شك فيه اشبه بشك لا يقين فيه من يقين نحن فيه فلئن كنا
مقرين انا لحمقى ولئن كنا جاحدين انا لهلكى • وقال الحسن
البصري نهارك ضيفك فاحسن اليه فانك ان احسنت اليه
ارتحل بحمدك وان اسات اليه ارتحل بذمك وكذلك ليلك ❁
قال الجاحظ في كتاب البيان وجد مكتوبا على حجر يا ابن آدم
انك لو رايت يسير ما بقي من اجلك لزهدت في طويل ما ترجو
من املك ولرغبت في الزيادة من عملك ولقصرت من حرصك
وحيلك وانما يلقاك غدا ندمك لو قد زلت بك قدمك واسلمك
اهلك وحشمك وتبرا منك القريب وانصرف عنك الحبيب
ولما حضر بشر بن منصور الموت فرح فقيل له اتفرح بالموت
فقال اتجعلون قدومي على خالق ارجوه كمقامي مع مخلوق
اخافه • وقيل لابي بكر رضوان الله عليه في مرضه الذي مات

فيه لو ارسلت الى الطبيب قال قد رآني فقالوا فما قال لك قال قال اني
فعال لما اريد . وقيل لربيع بن خثيم وقد اعتل ندعو لك الطبيب
قال قد اردت ذلك فذكرت عادا وثمود واصحاب الرس وقرونا بين
ذلك كثيرا وعلمت انه كان فيهم الداء والمداوي فهلكوا جميعا وسئل
انوشروان متى يكون عيش الدنيا الذ فقال اذا كان الذي ينبغي
ان يعمله في حياته معمولا . وقال بعض الحكماء من ذكر المنية
نسي الامنية وقال بعض الادباء عن الموت تسل فهو كربة تسل
وقال بعض البلغاء الامل حجاب الاجل وانشد بعض اهل الادب
ما ذكر انه لعلي بن ابي طالب كرم الله وجهه

فلو انا اذا متنا تركنا ... لكان الموت راحة كل حي
ولكنا اذا متنا بعثنا ... فنسأل بعدها عن كل شي

وقال بعض الشعراء

الا انما الدنيا مقيل لراكب ... قضى وطرا من منزل ثم هجرا
فراح وما يدري على ما قدومه ... الا كل ما قدمت تبقى موفرا

روى سعيد بن مسعود رضي الله عنه ان ابا درداء يا رسول الله اوصني
فقال النبي عليه السلم اكتسب طيبا واعمل صالحا واسأل الله
رزق يوم بيوم واعدد نفسك من الموتى . وكتب الربيع بن خثيم
الى اخ له

قدم جهادك وافرغ من زادك وكن وصي نفسك والسلام وقال
بعض السلف اصاب الدنيا من حذرها واصابت الدنيا من امنها
ومر محمد بن واسع بقوم فقيل له هؤلاء زهاد فقال وما قدر الدنيا
حتى يحمد من زهد فيها . وقال بعض الحكماء السعيد من
اعتبر بامسه واستظهر لنفسه والشقي من جمع لغيره وبخل
على نفسه . وقال بعض البلغاء لا تبت عن غير وصية وان كنت
من جسمك في صحة ومن عمرك في فسحة فان الدهر خائن
وكل ما هو كائن كائن وقال بعض الشعراء

من كان يعلم ان الموت مدركه ... والقبر مسكنه والبعث مخرجه
وانه بين جنات ستبهجه ... يوم القيامة او نار ستنضجه
فكل شي سوى التقوى به سمج ... وما اقام عليه منه اسمجه
ترى الذي اتخذ الدنيا له وطنا ... لم يدر ان المنايا سوف تزعجه

روى جابر الجعفي عن محمد بن علي عن جابر بن عبد الله عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال في بعض خطبه ايها الناس
ان لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم وان لكم معالم فانتهوا الى معالمكم
وان المومن بين مخافتين اجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه
واجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه فليتزود العبد لنفسه

من نفسه ومن دنياه لآخرته ومن الحياة قبل الموت فان الدنيا خلقت
لكم وانكم خلقتم للآخرة فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من
مستعتب وما بعد الدنيا دار الا الجنة او النار • وقال الحسن
البصري امس اجل واليوم عمل وغدا امل • فاخذ ابو العتاهية
هذا المعنى فنظمه شعرا فقال

قنع النفس بالكفاف والا طلبت منك فوق ما يكفيها
ليس فيما مضى ولا في الذي لم يأت من لذة تستحليها
انما انت طول عمرك ما عمرت في الساعة التي انت فيها

وقيل لزاهد ما بالك تمشي على عصا ولست بكبير ولا مريض قال
لاني اعلم اني مسافر وانها دار قلعة وان العصا من آلة السفر
فاخذه بعض الشعراء فقال

حملت العصا لا الضعف اوجب حملها علي ولا اني تحنيت من كبر
ولكنني الزمت نفسي حملها لاعلمها ان المقيم على سفر

وقال بعض المتصوفة الدنيا ساعة فاجعلها طاعة • وقال
ذو القرنين دخلنا في الدنيا جاهلين وعشنا فيها غافلين واخرجنا
منها كارهين • وقال عبد الحميد المرء اسير عمر يسير • وقيل
في بعض المواعظ عجبت لمن خاف العقاب كيف لا يكف وعجبت لمن

يرجو الثواب كيف لا يعمل • وقال بعض الحكماء المسيء ميت
وان كان في دار الحياة والمحسن حي وان كان في دار الاموات
وكل بالاثر يومه او غده • وقال بعض السلف الله المستعان
على السنة تصف وقلوب تعرف واعمال تخالف • وقال آخر
ان الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما • وقال آخر اعملوا
لآخرتكم في هذه الايام التي كانها تطير • وقال آخر الموت قصواك
فخذ من دنياك لاخراك • وقال آخر عباد الله الحذر الحذر
فوالله لقد ستر حتى كانه قد غفر ولقد امهل حتى كانه قد اهمل
وقال آخر الايام صحايف اعمالكم فخلدوها اجمل افعالكم وقيل
في منثور الحكم اقبل نصح المشيب وان عجل • وقيل ما طلعت
شمس الا وعظت بامس • وقال محمد بن بشير رحمه الله

مضى امسك الادنى شهيدا معدلا ويومك هذا بالفعال شهيد
فان تك بالامس اقترفت اساءة فثن باحسان وانت حميد
ولا ترج فعل الخير منك الى غد لعل غدا ياتي وانت فقيد

روى ابو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما رايت
مثل الجنة نام طالبها وما رايت مثل النار نام هاربها • وقال
عيسى بن مريم عليه السلم ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم

تسير

يحزنون الذين نظروا الى باطن الدنيا حين نظر الناس الى ظاهرها
والى آجل الدنيا حين نظر الناس الى عاجلها فاماتوا منها ما خشوا
ان يميت قلوبهم وتركوا ما علموا انه سيتركهم • وقال عمر بن الخطاب
رضوان الله عليه الناس طالبان يطلبان فطالب الدنيا فارفضوها
في نحره فانه ربما ادرك الذي يطلب منها فهلك بما اصاب منها
وطالب يطلب الآخرة فاذا رأيتم طالب الآخرة فنافسوه • ودخل
ابو درداء الشام فقال يا اهل الشام اسمعوا قول اخ ناصح
فاجتمعوا اليه فقال ما لي اراكم تبنون ما لا تسكنون وتجمعون
ما لا تاكلون ان الذين كانوا قبلكم بنوا فشيدوا واملوا
بعيدا وجمعوا كثيرا فاصبح املهم غرورا وجمعهم ثبورا ومساكنهم
قبورا • وقال ابو حازم ان الدنيا غرت اقواما فعملوا فيها بغير
الحق فجاءهم الموت فخلفوا ما لهم لمن لا يحمدهم وصاروا الى
من لا يعذرهم وقد خلفنا بعدهم فينبغي لنا ان ننظر الذي
كرهناه منهم فنجتنبه والذي غبطناهم به فنستعمله • ومر بعض
الزهاد بباب ملك فقال باب جديد وموت عتيد ونزع شديد
وسفر بعيد • ومر بعض الزهاد برجل قد اجتمع عليه الناس
فقال ما هذا قالوا مسكين سرق منه رجل جبة ومر به آخر

يطلب منها

فاعطاه جبة فقال الحمد لله ان سعيكم لشتى • وقال بعض
الحكماء ما انصف من نفسه من ايقن بالحشر والحساب
وزهد في الاجر والثواب • وقال آخر بطول الامل تقسو القلوب
وباخلاص النية تقل الذنوب • وقال آخر اياك والمنى فانها
من بضائع النوكى وتثبط عن الآخرة والاولى • وقال آخر
قصر املك فالعمر قصير واحسن سيرتك فالبر يسير •
وقال عبد الله بن المعتز نسير الى الآجال في كل ساعة وايامنا
تطوى وهن مراحل •
ولم ار مثل الموت حقا كانه اذا ما تخطته الاماني باطل •
فما اقبح التفريط في زمن الصبا فكيف به والشيب في الراس شامل •
ترحل عن الدنيا بزاد من التقى فعمرك ايام تعد قلائل •
وكان عبد الملك بن مروان يتمثل بهذين البيتين •
فاعمل على مهل فانك ميت واكدح لنفسك ايها الانسان •
فكأن ما قد كان لم يك اذ مضى وكأن ما هو كائن قد كان •
ونظر سليمان بن عبد الملك يوما في المرآة فقال انا الملك
الشاب فقالت له جارية •
انت نعم المتاع لو كنت تبقى غير ان لا بقاء للانسان •

لبئس فيما بدا لنا منك عيب … كان في الناس غير أنك فان ۞

وروى عبد العزيز بن عبد الصمد عن أبان عن أنس رضي الله عنه
قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته الجدعاء
فقال أيها الناس كأن الموت فيها على غيرنا كتب وكأن الحق
فيها على غيرنا وجب وكأن الذين نشيع من الأموات سفر عما قليل
إلينا راجعون نبوئهم أجداثهم ونأكل تراثهم كأنا مخلدون
بعدهم قد نسينا كل واعظة وأمنا كل جائحة طوبى لمن شغله
عيبه عن عيب غيره وأنفق من مال كسبه من غير معصية ورحم
أهل الذل والمسكنة وخالط أهل الفقه والحكمة طوبى
لمن أدب نفسه وحسنت خليقته وصلحت سريرته طوبى لمن
عمل بعلم وأنفق من فضل وأمسك من قوله ووسعته السنة
ولم يعدها إلى البدعة ۞ وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه
قال زوروا القبور تذكروا بها الآخرة وغسلوا الموتى فإنها
معالجة الأجساد الخاوية وموعظة بليغة ۞ وحفر الربيع
ابن خثيم في داره قبرا وكان إذا وجد من قلبه قسوة جاء فاضطجع
في القبر فمكث فيه ما شاء الله ثم يقول رب ارجعون لعلي أعمل
صالحا فيما تركت ثم يرد على نفسه ويقول قد رجعتك فجد فمكث

على ذلك ما شاء الله ۞ وكان أبو محرز الطفاوي يقول كفتك القبور
مواعظ الأمم السالفة ۞ وقيل لبعض الزهاد ما أبلغ العظات
قال النظر إلى محلة الأموات فأخذه أبو العتاهية فقال

وعظتك أجداث صمت … ونعتك أزمنة خفت ۞
وتكلمت عن أوجه تبلى … وعن صور سبت
وأرتك قبرك في الحياة … وأنت حي لم تمت ۞
يا شامتا بمنيتي … إن المنية لم تفت
فلربما انقلب الشمات … فحل بالقوم الشمت ۞

ووجد على قبر مكتوبا قهرنا من قهرنا فصرنا للناظرين عبرة
وعلى آخر من أمل البقاء وقد رأى مصارعنا فهو مغرور ۞ وقيل
في منثور الحكم ما أكثر من يعرف الحق ولا يطيعه ولا يعمل به
وقال بعض الحكماء من لم يمت لم يفت ۞ وقال بعض الصلحاء
لنا من كل ميت عظة بحاله وعبرة بماله ۞ وقال بعض العلماء
من لم يتعظ بموت الولد لم يتعظ بقول أحد ۞ وقال بعض البلغاء
ما انقضت ساعة من أمسك إلا ببضعة من نفسك فأخذه أبو العتاهية فقال

إن مع الدهر فاعلمن غدا … فانظر بما ينقضي مجيء غده ۞
ما ارتد طرف امرئ بلذته … إلا وشيء يموت من جسده ۞

ولما مات الاسكندر قال بعض الحكماء كان الملك امس انطق منه اليوم وهو اليوم اوعظ منه امس فاخذ هذا المعنى ابو العتاهية فقال

كفى حزنا بدفنك ثم اني نفضت تراب قبرك عن يديا
وكانت في حياتك لي عظات فانت اليوم اوعظ منك حيا

كان

وقال بعض الحكماء لو للخطايا ريح لافتضح الناس ولم يتجالسوا فاخذ هذا المعنى ابو العتاهية فقال

احسن الله بنا ان الخطايا لا تفوح
فاذا المستور منا بين ثوبيه فضوح

وهذا كله ماخوذ من قول النبي عليه السلم لو تكاشفتم ما تدافنتم
وكتب رجل الى ابي العتاهية

يا ابا اسحق اني واثق منك بودك فاعنّي بأبي انت على غيّ برشدك

فاجابه ابو العتاهيه

اطع الله بجهدك راغبا او دون جهدك اعط مولاك الذي تطلب من طاعة عبدك

وقال بعض الحكماء من سرّه بنوه ساءته نفسه فاخذ هذا المعنى ابو العتاهية ايضا فقال

ان ذي الابن كلما زاد منه مشرع زاد في فناء ابيه
ما بقاء الاب المليح عليه بدبيب البلى شباب بنيه

وفي معناه ما حكي عن زرّ بن حبيش انه قال وقد حضرته الوفاة وكان قد عاش مائة وعشرين سنة

اذا الرجال ولدت اولادها وارتعشت من كبر اجسادها
وجعلت اسقامها تعتادها تلك زروع قد دنا حصادها

وكتب رجل الى صالح بن عبد القدوس

الموت باب وكل الناس داخله فليت شعري بعد الباب ما الدار

فاجابه صالح وقال

الدار جنة عدن ان عملت بما يرضي الاله وان فرّطت فالنار
هما محلان ما للناس غيرهما فانظر لنفسك ماذا انت تختار

باب ادب الدنيا

ان الله تعالى لنافذ قدرته وبالغ حكمته خلق الخلق بتدبيره وفطرهم بتقديره فكان من لطيف ما دبّر وبديع ما قدّر ان خلقهم محتاجين وفطرهم عاجزين ليكون بالغنى منفردا وبالقدرة مختصا حتى يشعرنا بقدرته انه خالق ويعلمنا بغناه انه رازق فنذعن بطاعته رغبة ورهبة ونقرّ بنقصنا عجزا وحاجة ثم جعل الانسان اكثر حاجة من جميع الحيوان لان من الحيوان ما يستقل بنفسه عن جنسه والانسان مطبوع على الافتقار الى جنسه

في الاستعانة به صفة لازمة لطبعه وخلقه قايمة في جوهره ولذلك
قال سبحانه وخلق الإنسان ضعيفا يعني ضعيفا عن الصبر
عما هو اليه مفتقر واحتمال ما هو عنه عاجز ولما كان الانسان
اكثر حاجة من جميع الحيوان كان اظهر عجزا لان الحاجة
الى الشي افتقار اليه والمفتقر الى الشي عاجز به وقد قال
بعض الحكماء المتقدمين استغناوك عن الشي خير من
استغنايك به وانما خص الله سبحانه الإنسان بكثرة الحاجة
وظهور العجز نعمة عليه ولطفا به ليكون ذل الحاجة ومهانة
العجز يمنعان من طغيان الغنى وبغي القدرة لان الطغيان
مركوز في طبعه اذا استغنى والبغي مستول عليه اذا قدر وقد
انبانا الله تعالى بذلك عنه فقال كلا ان الانسان ليطغى ان
راه استغنى ثم ليكون اقوى الامور شاهدا على نقصه واوضحها
دليلا على عجزه انشدني بعض اهل الادب لابن الرومي

اعيرتني النقصان والنقص شامل ومن ذا الذي يعطى الكمال فيكمل
واشهد اني ناقص غير انني اذا قيس بي قوم كثير تقللوا
تفاضل هذا الخلق بالفضل والحجى ففي ايما هذين انت فتفضل
ولو منح الله الكمال ابن ادم لخلده والله ما شاء يفعل

ولما خلق الله تعالى الإنسان ماس الحاجة ظاهر العجز جعل
لنيل حاجته اسبابا ولدفع عجزه حيلة دله عليها بالعقل وارشده
اليهما بالفطنة قال الله تعالى والذي قدر فهدى قال مجاهد
قدر احوال خلقه فهدى الى سبيل الخير والشر وقال ابن مسعود
في قوله تعالى وهديناه النجدين يعني الطريقين طريق الخير
وطريق الشر ثم لما كان العقل دالا على اسباب ما تدعو الحاجة
اليه جعل الله تعالى الادراك والظفر موقوفا على ما قسم وقدر
كيلا يعتمدوا في الارزاق على عقولهم وفي العجز على فطنهم لتدوم
له الرغبة والرهبة ويظهر منه الغنى والقدرة وربما عزب
هذا المعنى عمن ساءت ظنته بخالقه حتى صار سبيلا لضلالته كما قال الشاعر

سبحان من انزل الايام منزلها وصير الناس مرفوضا ومرموقا
فعاقل فطن اعيت مذاهبه وجاهل خرق تلقاه مرزوقا
ذاك الذي ترك الالباب حايرة وصير العاقل النحرير زنديقا

ولو حسن ظن العاقل في صحة نظره لعلم من علل المصالح ما
صار به صديقا لا زنديقا لان من علل المصالح ما هو ظاهر
ومنها ما هو غامض ومنها ما هو مغيب حكمة استاثر بها ولذلك
قال النبي عليه السلم حسن الظن بالله من عبادة الله ثم ان

الله تعالى جعل اسباب حاجاته وحيل عجزه في الدنيا التي جعلها
دار تكليف وعمل كما جعل الآخرة دار قرار وجزاء فلزم لذلك ان
يصرف الانسان الى دنياه خطا من عنايته لانه لا غناء به عن التزود
منها لآخرته ولا له بد من سد الخلة فيها عند حاجته وليس في
هذا القول نقض لما ذكرنا قبل من ترك فضولها وزجر النفس
عن الرغبة فيها بل الراغب فيها ملوم وطالب فضولها مذموم
والرغبة انما تختص بما جاوز قدر الحاجة والفضول انما ينطلق
على ما زاد على قدر الكفاية • وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله
عليه وسلم فاذا فرغت فانصب والى ربك فارغب قال اهل
التأويل يعني اذا فرغت من امر دنياك فانصب الى عبادة ربك
وليس هذا القول ترغيبا لنبيه فيها ولكن ندبه الى اخذ البلغة
منها وعلى هذا المعنى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم •
ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا ولكن
خيركم من اخذ من هذه وهذه • وروي عن النبي صلى الله عليه
وسلم انه قال نعم المطية الدنيا فارتحلوها تبلغكم الآخرة
وذم رجل الدنيا عند علي بن ابي طالب رضي الله عنه فقال علي
الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار نجاة لمن فهم عنها ودار غنى

خطا

لمن تزود منها • وحكى مقاتل ان ابرهيم الخليل عليه السلم قال
يا رب حتى متى اتردد في طلب الدنيا فقيل له امسك عن هذا فان
طلب المعاش من طلب الدنيا • وقال سفين الثوري مكتوب في
التورية اذا كان في البيت بر فتعبد واذا لم يكن فاطلب يا ابن آدم
حرك يدك يسبب لك رزقك • وقال بعض الحكماء ليس من الرغبة
في الدنيا اكتساب ما يصون العرض فيها • وقال بعض الادباء
ليس من الحرص اجتلاب ما يقوت البدن • وقال محمود الوراق

لا تتبع الدنيا وايامها ذما وان دارت بك الدائرة
من شرف الدنيا ومن فضلها ان بها تستدرك الآخرة

واذ قد لزم بما بيناه النظر في امور الدنيا فواجب سبر احوالها
والكشف عن جهة انتظامها واختلالها لنعلم اسباب صلاحها
وفسادها ومواد عمرانها وخرابها لتنتفي عن اهلها شبه الحيرة
وتتجلى لهم اسباب الخيرة فيقصدوا الامور من ابوابها ويعتمدوا
صلاح قواعدها واسبابها • واعلم ان صلاح الدنيا معتبر من
وجهين اولهما ما ينتظم به امور جملتها والثاني ما يصلح به حال
كل واحد من اهلها فهما شيئان لا صلاح لاحدهما الا بصاحبه
لان من صلحت حاله مع فساد الدنيا واختلال امورها لن يعدم

أن تتعدى إليه فسادها ويقدح فيه اختلالها لأن منها يستمد
ولها يستعد ومن فسدت حاله مع صلاح الدنيا وانتظام أمورها
لم يجد لصلاحها لذة ولا للاستيفاء منها أثرا لأن الإنسان دنيا
نفسه فليس يرى الصلاح إلا إذا صلحت له ولا يجد الفساد إلا
إذا فسدت عليه لأن نفسه أخص وحاله أمس فصار نظره إلى
ما يخصه مصروفا وفكره إلى ما يمسه موقوفا . واعلم أن الدنيا
لم تكن قط لجميع أهلها مسعدة ولا عن كافة ذويها معرضة لأن
إعراضها عن جميعهم عطب وإسعادها لكافتهم فساد لائتلافهم
بالاختلاف والتباين واتفاقهم بالمساعدة والتعاون فإذا تساوى
جميعهم لم يجد أحدهم إلى الاستعانة بغيره سبيلا وبهم من الحاجة
والعجز ما وصفنا فيذهبوا ضيعة ويهلكوا عجزا فإذا
تباينوا واختلفوا صاروا مؤتلفين بالمعاونة متواصلين بالحاجة
لأن ذا الحاجة وصول والمحتاج إليه موصول وقد قال الله
تعالى ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم قال
الحسن مختلفين في الرزق فهذا غني وهذا فقير ولذلك خلقهم
يعني للاختلاف في الرزق الغنى والفقر . وقال الله تعالى والله
فضل بعضكم على بعض في الرزق . غير أن الدنيا إذا صلحت

كان إسعادها موفورا وإعراضها ميسورا لأنها إذا منحت هنأت
وأودعت وإذا استردت رفقت وأبقت وإذا فسدت الدنيا كان
إسعادها مكرا وإعراضها غدرا لأنها إذا منحت كدرت وأتعبت
وإذا استردت استأصلت وأجحفت ومع هذا فصلاح الدنيا
مصلح لسرائر أهلها لوفور أماناتهم وظهور دياناتهم وفسادها
مفسد لسرائر أهلها لقلة أماناتهم وضعف دياناتهم وقد وجد
ذلك في شاهد الحال تجربة وعرفا كما يقتضيه دليل الحال تعليلا
وكشفا فلا شيء أنفع من صلاحها كما أنه لا شيء أضر من فسادها
لأن ما به تقوى ديانات الناس وتتوفر أماناتهم فلا شيء أحق به نفعا
كما أن ما به تضعف دياناتهم وتذهب أماناتهم فلا شيء أجدر به
ضررا . وأنشدت لأبي بكر بن دريد ∴

الناس مثل زمانهم قد الحذاء على مثاله ∴
ورجال دهرك مثل دهرك في تقلبه وحاله ∴
وكذا إذا فسد الزمان جرى الفساد على رجاله ∴

وإذ قد بلغ القول إلى ذلك فسنبدأ بذكر ما تصلح به الدنيا ثم نتلوه
بوصف ما يصلح به حال الإنسان فيها . اعلم أن ما به تصلح الدنيا
حتى تصير أحوالها منتظمة وأمورها ملتئمة ستة أشياء هي

حتى عمرت به الدنيا فتم صلاحها وصارت تنتقل بعمرانها الى قرن بعد
قرن فيتم الثاني ما ابقاه الاول من عمارتها ويرمم الثالث ما احدثه
الثاني من شعثها لتكون احوالها على الاعصار ملتئمة وامورها
على مرور الدهر منتظمة ولو قصرت الامال لما تجاوز الواحد حاجة
يومه ولا تعدى ضرورة وقته ولكانت تنتقل من بعده خرابا لا يجد
فيها بلغة ولا يدرك منها ثم تنتقل الى من بعده باسوا من ذلك حالا
حتى لا ينمي لها نبت ولا يمكن فيها لبث وقد روي عن النبي صلى الله عليه
وسلم انه قال الامل رحمة من الله تعالى لامتي ولولاه ما غرس غارس
شجرا ولا ارضعت ام ولدا وقال الشاعر

وللنفوس وان كانت على وجل من المنية آمال تقويها

فالصبر يبسطها والدهر يقبضها والنفس تنشرها والموت يطويها

فاما حال الامل في امر الآخرة فهو من اقوى الاسباب في الغفلة عنها
وقلة الاستعداد لها وقد افصح لبيد بن ربيعة مع اعرابيته بما بين
به حال الامل في الامرين فقال

فاكذب النفس اذا حدثتها ان صدق النفس يزري بالامل

غير ان لا تكذبنها في التقى واخزها بالبر لله الاجل

وفرق ما بين الامال والاماني ان الامال ما تقيدت باسباب

إلى

حاجة

لم ينمو

والاماني ما تجردت عنها فهذه القواعد الستة التي بها تصلح
احوال الدنيا وتنتظم امور جملتها فان كملت فيها كمل صلاحها وبعيد
ان يكون امر الدنيا تاما كاملا او ان يكون صلاحها عاما شاملا
لانها موضوعة على التغيير والفناء منشاة على التصرم والانقضاء
سمع بعض الحكماء رجلا يقول قلب الله الدنيا قال اذا تستوي لانها
مقلوبة وقال بعض الشعراء

ومن عادة الايام ان خطوبها اذا سر منها جانب ساء جانب

وما اعرف الايام الا ذميمة ولا الدهر الا وهو للثار طالب

وبحسب ما اختل من قواعدها يكون اختلالها وفسادها فصل
فاما ما يصلح به حال الانسان فيها فثلاثة اشياء هي قواعد امره
ونظام حاله وهي نفس مطيعة الى رشدها منتهية عن غيها والفة
جامعة تنعطف القلوب عليها ويندفع المكروه بها ومادة كافية
تسكن نفسه اليها وتستقيم اوده بها واما القاعدة الاولى التي هي
نفس مطيعة فلانها اذا اطاعته ملكها واذا عصته ملكته
ولم يملكها ومن لم يملك نفسه كان بمعصيته غيرها اولى وقد قال
بعض الحكماء لا ينبغي للعاقل ان يطلب طاعة غيره وطاعة
نفسه ممتنعة عليه وقال الشاعر

أنطمع أن يطيعك قلب سعدى * وتزعم أن قلبك قد عصاكا

وطاعة نفسه تكون من وجهين أحدهما نصح والثاني انقياد فأما
النصح فهو أن ينظر إلى الأمور بجلايها فيرى الرشد رشدا ويستحسنه
ويرى الغي غيا ويستقبحه وهذا يكون من صدق النفس إذا سلمت
من دواعي الهوى وكذلك قيل من فكر أبصر فأما الانقياد
فهو أن يسرع إلى الرشد إذا أمرها وينتهي عن الغي إذا زجرها
وهذا يكون من قبول النفس إذا كفيت منازعة الشهوات قال الله
تعالى ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما وللنفس
آداب هي من تمام طاعتها وكمال مصلحتها قد أفردنا لها من هذا
الكتاب بابا واقتصرنا في هذا الموضع على ما اقتضاه الترتيب
واستدعاه التقريب وأما القاعدة الثانية التي هي الألفة
الجامعة فلأن الإنسان مقصود بالأذية محسود بالنعم فإذا لم
يكن ألفا مألوفا تخطفته أيدي حاسديه وتحكمت فيه أهواء
أعاديه فلم تسلم له نعمة ولم تصف له مدة وإذا كان ألفا مألوفا
انتصر بالألفة على أعاديه وامتنع بهم من حساده فسلمت نعمته
منهم وصفت مدته عنهم وإن كان صفو الزمان عسرا وسلمه خطرا
وقد روى ابن جريج عن عطاء عن جابر عن النبي عليه السلم

أنه قال المؤمن ألف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف وخير
الناس أنفعهم للناس وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال
إن الله يرضى لكم ثلثا ويكره لكم ثلثا يرضى لكم أن تعبدوه وأن لا تشركوا
به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وأن تناصحوا من
ولاه الله أمركم ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة
المال وكل هذا حث منه على الألفة والعرب تقول من قل ذل

وقال قيس بن عاصم

إن القداح إذا اجتمعن فرامها * بالكسر ذو حنق وبطش أيد
عزت فلم تكسر وإن هي بددت * فالوهن والتكسير للمتبدد

وإذا كانت الألفة بما ثبت تجمع الشمل وتمنع الذل اقتضت الحال ذكر
أسبابها وأسباب الألفة خمسة وهي الدين والنسب والمصاهرة
والمودة والبر فأما الدين وهو الأول من أسباب الألفة فلأنه يبعث
على التناصر ويمنع من التقاطع والتدابر وبمثل ذلك وصى رسول
الله صلى الله عليه وسلم أصحابه روى سفين الزهري عن أنس قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا
تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق
ثلث هذا وإن كان اجتماعهم في الدين يقتضيه فهو على وجه التحذير

عن

يبعث

من تذكر تراث الجاهلية واحن الضلالة فقد بعث رسول الله صلى الله عليه
وسلم والعرب اشد تقاطعا وتعاديا واكثرهم اختلافا وتماديا حتى ان
بني الاب الواحد كانوا يفترقون احزابا مختلفة فينشوا بينهم بالتحزب
والافتراق احقادا للاعداء واحنا للبعداء وكانت الانصار
اشدهم تقاطعا وتعاديا وكان بين الاوس والخزرج من الاختلاف
والتباين اكثر من غيرهم الى ان اسلموا فذهبت احنهم وانقطعت
عداوتهم وصاروا بالاسلام اخوانا متواصلين وبالفة الدين
اعوانا متناصرين • قال الله تعالى اذ كنتم اعداء فالف بين قلوبكم
فاصبحتم بنعمته اخوانا • يعني اعداء في الجاهلية فالف بين قلوبكم
بالاسلام • وقال الله تعالى ان الذين امنوا وعملوا الصالحات
سيجعل لهم الرحمن ودا يعني حبا وعلى حسب التالف على الدين تكون
العداوة فيه اذا اختلف باهله فان الانسان قد يقطع في الدين
من كان به بارا وعليه مشفقا هذا ابو عبيدة بن الجراح وقد
كانت له المنزلة العالية في الفضل والاثر المشهور في الاسلام
قتل اباه يوم بدر واتى براسه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم طاعة
لله تعالى ولرسوله حين بقي على ضلاله وانهمك في طغيانه فلم يعطفه
عليه رحم ولا كفه اشفاق وهو من بر الابناء تغليبا للدين على النسب

عنه

ولطاعة الله سبحانه على طاعة الاب وفيه انزل الله تعالى لا تجد
قوما يؤمنون بالله واليوم الاخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو
كانوا اباءهم او ابناءهم او اخوانهم او عشيرتهم ⁂ وقد تختلف اهل
الدين على مذاهب شتى واراء مختلفة فيحدث بين المختلفين فيه من
العداوة والتباين مثل ما يحدث بين المختلفين في الاديان وعلة

اسباب

ذلك ان الدين والاجتماع على العقد الواحد فيه لما كان من اقوى الالفة
كان الاختلاف فيه من اقوى اسباب الفرقة واذا تكافا اهل الاديان
المختلفة والمذاهب المتباينة ولم يكن احد الفريقين اعلى يدا واكثر عددا
كانت العداوة بينهم اقوى والاحن فيهم اعظم لانه ينضم الى عداوة الاختلاف
تحاسد الاكفاء وتنافس النظراء • واما النسب وهو الثاني من
اسباب الالفة فلان تعاطف الارحام وحمية القرابة يبعثان على
التناصر والالفة ويمنعان من التخاذل والفرقة انفة من استعلاء
الاباعد على الاقارب وتوقيا من تسلط الغرباء الاجانب • وقد روي
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الرحم اذا تماست تعاطفت
ولذلك حفظت العرب انسابها لما امتنعت عن سلطان يقهرها
ويكف الاذى عنها لتكون به متظافرة على من ناواها متناصرة على
من شاقها وعاداها حتى بلغت بالفة الانساب وتناصرها عن القوي

الابد وتحكمت فيه تحكم المتسلط المتشطط • وقد اعذر نبي الله لوط
نفسه حين عدم عشيرة تنصره فقال لمن بعث اليه لو ان لي بكم قوة
او اوي الى ركن شديد • يعني الى عشيرة مانعة • وروى ابو سلمة
عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رحم الله لوطا
لقد كان ياوي الى ركن شديد يعني الله تعالى • قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم فما بعث الله بعده من نبي الا في ثروة من قومه • وقال
وهب لقد وجد الرسل على لوط وقالوا ان ركنك لشديد • وروي
عن النبي عليه السلم انه كان لا يترك لمن يفرد مفرحا حتى يضمه الى
قبيلة يكون فيها قال الرياشي والمفرح الذي لا ينتمي الى قبيلة يكون
فيها كل ذلك حثا منه على الالفة وكف الفرقة ولذلك قال النبي
صلى الله عليه وسلم من كثر سواد قوم فهو منهم • واذا كان النسب
بهذه المنزلة من الالفة فقد يعرض له عوارض تمنع منها وتبعث على
الفرقة المنافية لها فاذا قد لزم ان نصف حال الانساب وما يعرض
له من الاسباب • وجملة الانساب انها قد تنقسم ثلثة اقسام قسم
والدون وقسم مولودون وقسم مناسبون ولكل صنف منهم منزلة
في البر والصلة وعارض يطرا فيبعث على العقوق والقطيعة فاما
الوالدون فهم الاباء والامهات والاجداد والجدات وهم موسومون

مع سلامة احوالهم بخلقين احدهما لازم بالطبع والثاني حادث باكتساب
فاما ما كان لازما بالطبع فهو الحذر والاشفاق وذلك لا ينتقل عن
الولد بحال • وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لكل
شيء ثمرة وثمرة القلب الولد • وروي عليه السلم انه قال الولد
مبخلة مجهلة مجبنة محزنة فاخبر ان الحذر عليه يكسب هذه
الاوصاف ويحدث هذه الاخلاق • وقد كره قوم طلب الولد كراهية
لهذه الحال التي لا يقدر على دفعها عن نفسه للزومها طبعا وحدوثها
حتما قيل ليحيى بن زكريا ما بالك تكره الولد فقال ما لي وللولد ان
عاش كدني وان مات هدني • وقيل لعيسى بن مريم عليه السلم
الا تتزوج فقال انما يحب التكثر في دار البقاء • واما ما كان حادثا
باكتساب فهي المحبة التي تنمي مع الاوقات وتتغير مع تغير الحالات
وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الوط يعني ان حبه
يلصق بنياط القلب فان انصرف الوالد عن حب ولده فليس ذلك لبغضه
منه ولكن لسلوة حدثت من عقوق او تقصير مع بقاء الحذر والاشفاق
الذي لا يزول عنه ولا ينتقل منه • وقد قال محمد بن علي ان الله تعالى
رضي الاباء للابناء فحذرهم فتنتهم ولم يرض الابناء للاباء فاوصاهم
بهم وان شر الابناء من دعاه التقصير الى العقوق وشر الاباء

الولد

ولم يرض

من دعاء البر الى الافراط. والامهات اكثر اشفاقا واوفر حبا
لما باشرن من الولادة وعانين من التربية وانهن ارق قلوبا والين
نفوسا وبحسب ذلك وجب ان يكون التعطف من الابناء عليهن اوفر
جزاء وكفاء لحقهن وان كان الله قد اشرك بينهما في البر وجمع بينهما
في الوصية فقال تعالى ووصينا الانسان بوالديه حسنا. وقد
روي ان رجلا اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان لي اما انا
مطيتها اقعدها على ظهري ولا اصرف عنها وجهي وارد اليها كسبي
فهل جزيتها قال لا ولا بزفرة واحدة قال ولم قال لانها كانت تخدمك
وهي تحب حياتك وانت تخدمها وانت تحب موتها. وقال الحسن
البصري حق الوالد اعظم وبر الوالدة الزم. وروي عن النبي صلى
الله عليه وسلم انه قال نهاكم عن عقوق الامهات ووأد البنات ومنع
وهات. وروى خالد بن معدان عن المقدام قال سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول ان الله تعالى يوصيكم بامهاتكم ثم يوصيكم
بآبائكم ثم يوصيكم بالاقرب فالاقرب. واما المولودون فهم الاولاد
واولاد الاولاد والعرب تسمي ولد الولد الصفوة وهم مختصون مع
سلامة احوالهم بحقين احدهما لازم والآخر متنقل. فاما اللازم
فهو الانفة للآباء من تهضم او خمول والانفة في الابناء في مقابلة

خ وعانين

خ لفعلهن

الاشفاق في الآباء. وقد لحظ ابو تمام الطائي هذا المعنى في شعره فقال
فاصبحت يلقانا الزمان من اجله. باعظام مولود واشفاق والد.
واما المتنقل فهو الادلال وهو اول حال الولد والادلال في الابناء
في مقابلة المحبة في الآباء لان المحبة بالآباء اخص والادلال بالابناء
امس. وقد روي عن عمر رضي الله عنه انه قال قلت يا رسول الله
ما بالنا نرق على اولادنا ولا يرقون علينا قال لانا ولدناهم ولم
يلدونا. ثم ان الادلال في الابناء قد ينتقل مع الكبر الى احد امرين
اما الى البر والاعظام واما الى الجفاء والعقوق فان كان الولد
رشيدا او كان الاب برا عطوفا صار الادلال برا واعظاما. وقد
روى الزهري عن عامر بن شراحيل ان النبي عليه السلام قال
لجرير بن عبد الله ان حق الوالد على الولد ان يخشع له عند الغضب
ويؤثره على نفسه عند السغابة والنصب فان المكافي ليس بالواصل
ولكن الواصل من اذا قطعت رحمه وصلها فان كان الولد غاويا
او كان الوالد جافيا صار الادلال قطيعة وعقوقا ولذلك قال
النبي صلى الله عليه وسلم. رحم الله امرأ اعان ولده على بره
وبشر عمر رضي الله عنه بمولود فقال ريحانة اشمها ثم هي عن قريب
ولد بار او عدو ضار. وقد قيل في منثور الحكم العقوق ثكل

من لم يشكل. وقال بعض الحكماء: ابنك ريحانك سبعا وخادمك سبعا ووزيرك سبعا ثم هو صديق او عدو. وأما المناسبون فهم من عدا الآباء والأبناء ممن يرجع بتعصيب او رحم والذي يختصون به الحمية الباعثة على النصرة وهي أدنى رتبة من الأنفة لان الأنفة تمنع من التهضم والخمول معا والحمية تمنع من التهضم وليس لها من كراهة الخمول نصيب الا ان يقترن بهما ما يبعث على الأنفة. وحمية المناسبين انما تدعو الى النصرة على البعداء والأجانب فهي معرضة لحسد الأداني والأقارب موكولة الى منافسة الصاحب فالصاحب فان حرست بالتواصل والتلاطف تأكدت اسبابها واقترن بحمية النسب مصافاة المودة وذلك أوكد اسباب الألفة. وقد قيل لبعض قريش: أيما احب اليك اخوك ام صديقك؟ قال: اخي اذا كان صديقا. وقال مسلمة بن عبد الملك: العيش في ثلثة سعة المنزل وكثرة الخدم وموافقة الأهل. وقال بعض الحكماء: القريب بعيد بمودته والقريب بعيد بعداوته. وان اهملت الحال بين المناسبين ثقة بلحمة النسب واعتمادا على حمية القرابة غلب عليها مقت الحسد او منازعة التنافس فصارت المناسبة عداوة والقرب به تباعدا. وقال الكندي في بعض رسائله: الأب رب

والولد كمد، والأخ فخ، والعم غم، والخال وبال، والأقارب عقارب.
وقد قال عبد الله بن المعتز:

لحومهم لحمي وهم يأكلونه ... وما داهيات المرء الا أقاربه

ومن اجل ذلك امر الله تعالى بصلة الأرحام واثنى على واصليها فقال: والذين يصلون ما امر الله به ان يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب. قال المفسرون: هي الرحم التي امر الله بوصلها ويخشون ربهم في قطعها ويخافون سوء الحساب في المعاقبة عليها. وقد روى عبد الرحمن بن عوف ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يقول الله تعالى انا الرحمن وهي الرحم اشتققت اسمها من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته. وروي عنه صلى الله عليه وسلم انه قال: صلة الرحم منماة للعدد مثراة للمال محبة في الأهل منسأة في الأجل. وقال بعض الحكماء: بلوا ارحامكم بالحقوق ولا تجفوها بالعقوق. وقال بعض البلغاء: صلوا ارحامكم فانه لا تبلى عليها اصولكم ولا تهضم عليها فروعكم. وقال بعض الأدباء: من لم يصلح لأهله لم يصلح لك ومن لم يذب عنه لم يذب عنك. وقال بعض الفصحاء: من وصل رحمه وصله الله رحمة ومن اجار جاره اعانه الله واجاره. وقال محمد بن عبد الله الأزدي:

وحسبك من ذل وسوء صنيعة مناواة ذي القربى وإن قيل قاطع
ولكن أواسيه وأنسى ذنوبه لترجعه يوما إلى الرواجع

وقال عبد الله بن الزبير

ولا يستوي في الحكم عبدان واصل وعبد لأرحام القرابة قاطع

وأما المصاهرة وهي الثالثة من أسباب الألفة فلأنها استحداث مواصلة وتمازج مناسبة صدرا عن رغبة واختيار وانعقدا عن خبرة وإيثار فاجتمع فيها أسباب الألفة ومواد المصاهرة قال الله تعالى ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة يعني بالمودة المحبة وبالرحمة الحنو والشفقة وهما من أوكد أسباب الألفة وفيها تأويل آخر قال الحسن البصري إن المودة النكاح والرحمة الولد وقال تعالى والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة فاختلف أهل التأويل في الحفدة فقال عبد الله بن مسعود اختان الرجل على بناته وقال عبد الله بن عباس هم ولد الرجل وولد ولده وحكي عنه أنهم بنو امرأة الرجل من غيره وسموا حفدة لتحفيفهم في الخدمة وسرعتهم في العمل بطاعتك ولم تزل العرب تجتذب البعداء وتتألف الأعداء بالمصاهرة حتى يرجع النافر مؤانسا ويصير العدو مواليا بل تصير المصاهرة بين الاثنين ألفة بين القبيلتين وموالاة بين العشيرتين حكي عن خالد بن يزيد بن معوية أنه قال كان أبغض خلق الله إلي آل الزبير حتى تزوجت فيهم رملة فصاروا أحب خلق الله إلي وفيهم يقول

أحب بني العوام طرا لأجلها ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا
فإن تسلمي نسلم وإن تتنصري نخط رجالا بين أعينهم صلبا

ولذلك قيل المرء في دين زوجته لما يستنزله الميل إليها من المتابعة ويجتذبه الحب لها من الموافقة فلا يجد إلى المخالفة سبيلا ولا إلى المباينة والمنافسة طريقا فإذا كانت المصاهرة بالنكاح بهذه المنزلة من الألفة فقد ينبغي بعقدها أحد خمسة أوجه وهي المال والجمال والألفة والدين والتعفف وقد روى سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال تنكح المرأة لأربع لمالها وجمالها وعفافها وحسبها وعقلها ودينها فعليك بذات الدين تربت يداك فإن كان عقد النكاح لأجل المال وكان أقوى الدواعي إليه فالمال إذا هو المنكوح فإن اقترن بذلك أحد الأسباب الباعثة على الائتلاف جاز أن يثبت العقد وتدوم الألفة وإن تجرد عن غيره من الأسباب وعري عما سواه

نخط رجالا

ينبغي

من المواد فأخلق بالعقد أن يختل وبالألفة أن تزول لا سيما إذا
غلب الطمع وقل الوفاء لأن المال إن وصل إليه فقد تقضى سبب
الألفة به. وقد قيل من ودك لشيء ولى مع انقضائه. فإن أعوز
الوصول إليه وتعذرت القدرة عليه أعقب ذلك استهانة الأنفس
بعد شدة الأمل فحدثت منه عداوة الخائب بعد استحكام الطمع
فصارت الألفة عداوة والوصلة فرقة. وقد قيل من ودك
طمعا فيك أبغضك إذا أيس منك. وقال عبد الحميد من أعظمك
لاستقلالك استقلك عند إقلالك. وإن كان العقد رغبة
في الجمال فذلك أدوم للألفة من المال لأن الجمال صفة لازمة
والمال صفة زائلة ولذلك قيل حسن الصورة أول السعادة
وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أعظم النساء
بركة أحسنهن وجها وأقلهن مهرا فإن سلمت الحال من الإدلال
المفضي إلى الملال استدامت الألفة واستحكمت الوصلة وقد
كانوا يكرهون الجمال البارع إما لما يحدث عنه من شدة الإدلال
وقد قيل من بسطه الإدلال قبضه الإذلال وإما لما يخاف عليه
من محن الرغبة وبلوى المنازعة. وقد حكي أن رجلا شاور
حكيما في التزويج فقال افعل وإياك والجمال البارع فإنه مرعى

أنيق قال الرجل وكيف قال كما قال الأول

ولن تصادف مرعى ممرعا أبدا ... إلا وجدت به آثار منتجع

وإما لما تخافه اللبيب من شدة الصبوة وتتوقاه الحازم من
عواقب الفتنة فقد قال بعض الحكماء إياك ومخالطة النساء
فإن لحظ المرأة سهم ولفظها سم. ورأى بعض الحكماء صيادا
يكلم امرأة فقال يا صياد احذر أن تصاد. وقال سليمان بن
داود عليهما السلام لابنه امش وراء الأسد ولا تمش وراء المرأة
وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه امرأة تقول

إن النساء رياحين خلقن لكم ... وكلكم يشتهي شم الرياحين

فقال عمر رضي الله عنه

إن النساء شياطين خلقن لنا ... نعوذ بالله من شر الشياطين

وإن كان العقد رغبة في الدين فهو أوثق العقود حالا وأدومها
ألفة وأحمدها بدءا وعاقبة لأن طالب الدين متبع له ومن
اتبع الدين انتظم أمره واستقامت حاله وأمن زلله. ولذلك
قال النبي عليه السلام فاظفر بذات الدين. والثاني أنها كلمة
تذكر للمبالغة ولا يراد بها سوء كقولهم ما أشجعه قاتله الله وإن كان
العقد في الألفة فهذا قد يكون على أحد وجهين إما أن تقصد به

المكاثرة باجتماع الفريقين والمظاهرة بتناصر الفئتين. وأما أن
يقصد به تألف أعداء مستطيلين استكفافا لعاديتهم وتسكينا
لصولتهم وهذان الوجهان قد يكونان في الأماثل وأهل المنازل
وداعي الوجه الأول هو الرغبة وداعي الوجه الثاني هو الرهبة
وهما سببان في غير المتناكحين فإن استدام السبب دامت الألفة
وإن زال السبب بزوال الرغبة والرهبة جيء بعد زوال الألفة إلا أن ينضم
إليها أحد الأسباب الباعثة عليها والمقوية لها وإن كان العقد
رغبة في التعفف فهو الوجه الحقيقي المبتغى بعقد النكاح وما سواه
فأسباب معلقة عليه أو مضافة إليه. وروي أنه لما نزل قوله تعالى
يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها
قال النبي عليه السلم خلق الرجل من التراب فهمته في التراب
وخلقت المرأة من الرجل وهمها في الرجل. وروى عطية بن بشر
عن عكاف بن وداعة الهلالي أن النبي صلى الله عليه وسلم
قال له يا عكاف ألك زوجة قال لا قال فأنت إذا من إخوان الشياطين
إن كنت من رهبان النصارى فالحق بهم وإن كنت منا فمن سنتنا
النكاح فكان هذا القول حثا على التعفف عن الفساد وباعثا
على طلب المكاثرة بالأولاد ولهذا المعنى كان يقول عليه السلم

منه

١٠٠

للقفال من غزوهم إذا أفضيتم إلى نسائكم فالكيس الكيس يعني
في طلب الولد فلزم حينئذ في عقد التعفف تحكيم الاختيار فيه والتماس
الأدوم من دواعيه وهي نوعان نوع يمكن حصر شروطه ونوع
لا يمكن لاختلاف أسبابه وتغاير شروطه. فأما الشروط المحصورة
فيه فثلاثة شروط أحدها الدين المفضي إلى الستر والعفاف
والمؤدي إلى القناعة والكفاف. قال أبو هريرة لا يفرك مؤمن
مؤمنة إن كره منها خلقا رضي منها خلقا. وخطب رجل من
عبد الله بن عباس يتيمة كانت عنده فقال لا أرضاها لك قال ولم
وفي دارك نشأت قال إنها تتشرف قال لا أبالي قال الآن لا أرضاك
لها وفي معنى هذا قال بعض الحكماء من رضي بصحبة من لا خير
فيه لم يرض بصحبته من فيه خير. والشرط الثاني العقل الباعث
على حسن التقدير والآمر بصواب التدبير فقد روي عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال العقل حيث كان ألوف مألوف
وروي عن النبي عليه السلم أنه قال عليكم بالودود الولود ولا تنكحوا
الحمقى فإن صحبتها بلوى وولدها ضياع. والشرط الثالث الأكفاء
الذين تنتفي بهم العار وتحصل بهم الاستكثار فقد روي عن النبي
عليه السلم أنه قال تخيروا لنطفكم ولا تضعوها إلا في الأكفاء

وقال أكثم بن صيفي لولده: يا بني لا يحملنكم جمال النساء على صراحة النسب فإن المناكح الكريمة مدرجة للشرف. وقال أبو الأسود الدؤلي لبنيه: قد أحسنت إليكم صغارًا وكبارًا وقبل أن تولدوا، قالوا: كيف أحسنت إلينا قبل أن نولد؟ قال: اخترت لكم من الأمهات من لا تسبون بها. وأنشد الرياشي:

فأول إحساني إليكم تخيري ... لماجدة الأعراق باد عفافها

وقد ينضم إلى هذه الشروط من صفات الذات وأحوال النفس ما يلزم التحرز منه لبعد الخير عنه وقلة الرشد فيه فإن كوامن الأخلاق بادية في الصور والأشكال كالذي روي عن النبي عليه السلام أنه قال لزيد بن حارثة: تزوجت يا زيد؟ قال: لا، قال: تزوج تستعفف مع عفتك، ولا تتزوج من النساء خمسة، قال: وما هن يا رسول الله؟ قال: لا تتزوج شهبرة ولا لهبرة ولا نهبرة ولا هندرة ولا لفوتا. قال: يا رسول الله ما أعرف مما قلت شيئا، قال عليه السلام: أما الشهبرة فالزرقاء البذية، وأما اللهبرة فالطويلة المهزولة، وأما النهبرة فالعجوز المدبرة، وأما الهندرة فالقصيرة الذميمة، وأما اللفوت فذات الولد من غيرك. وقال شيخ من بني سليم لابنه: إياك والرقوب الغضوب القطوب. الرقوب التي تراقبه أن يموت فتأخذ ماله. وأوصى بعض الأعراب ابنا له في التزويج فقال: إياك والحنانة والمنانة والأنانة، فالحنانة التي تحن إلى زوج كان لها، والمنانة التي تمن على زوجها بمالها، والأنانة التي تئن وتظهر كسلا وتمارضا. وقال أوفى بن دلهم: النساء أربع: فمنهن معمع لها شيئها أجمع، ومنهن تبع ترى ولا تنفع، ومنهن صدع تفرق ولا تجمع، ومنهن غيث ببلد فأمرع. قال الشاعر:

وقع

أرى صاحب النسوان يحسب أنها ... سواء وبون بينهن بعيد

فمنهن جنات تفيء ظلالها ... ومنهن نيران لهن وقود

وأنشد أبو العناهية عن أبي زيد:

إن النساء كأشجار نبتن معا ... منهن مر وبعض المر مأكول

إن النساء ولو صورن من ذهب ... فيهن من هفوات الجهل تخييل

إن النساء متى ينهين عن خلق ... فإنه واجب لا بد مفعول

وما وعدنك من شر وفين به ... وما وعدنك من خير فممطول

وأما النوع الآخر ما لا يمكن حصر شروطه لأنه قد يختلف باختلاف الأحوال ويتنقل بتنقل الإنسان والأزمان وإنه لا ينبغي فيه عن موافقة النفس ومتابعة الشهوة ليكون أدوم لحال الألفة وأمد لأسباب الوصلة فإن الرأي المعلول لا يبقى على حالة والميل المدخول

لايدوم على حالة ولابد ان ينتقل الى احدى حالتين اما الى الزيادة
والكمال واما الى النقصان والزوال • حكي ان رجلا قال لعلي
رضوان الله عليه اني احبك واحب معوية فقال علي اما الآن
فانت اعور فاما ان تبرى واما ان تعمى • واذا كان كذلك فلا بد من
كشف السبب الباعث على هذا النوع فانه لا يخلو من ثلثة احوال
احدها ان يكون لطلب الولد فالاحمد فيه التماس الحداثة والبكارة
لانهما اخص بالاولاد وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه
قال عليكم بالابكار فانهن اكثر حبا واقل خبا • وهذه الحال
هي اولى الاحوال الثلثة لان النكاح موضوع لها والشرع وارد
بها وقد روي عن النبي عليه السلم انه قال سوداء ولود خير من
حسناء عاقر • والعرب تقول في امثالها من لم تلد فلا ولد وقد
كانوا اختارون لمثل هذه الحال نكاح البعداء الاجانب ويرون
ذلك انجب للولد وابهى لخلقه ويجتنبون نكاح الاهل والاقارب
ويرونه مضويا لخلق الولد بعيدا من نجابته وقد روي عن النبي
عليه السلم انه قال اغتربوا لا تضووا • وروي عن عمر بن الخطاب
رضي الله عنه انه قال يا بني السايب قد اضويتم فانكحوا في الغرايب
وقال الشاعر
تجاوزت بنت العم وهي حبيبة • مخافة ان تضوى علي سليلي •

وكان حكماء المتقدمين يرون ان انجب الاولاد خلقا وخلقا من كانت
سن امه ما بين العشرين والثلثين وسن ابيه ما بين الثلثين
والخمسين والعرب تقول ان ولد الغيرى لا ينجب وان انجب النساء
الفروك لان الرجل يغلبها على الشهوة لزهدها في الرجال وقالوا ان
الرجل اذا اكره المراة وهي مذعورة ثم ادركت انجبت • والحالة الثانية
ان يكون المقصود به القيام بما يتولاه النساء من تدبير المنازل
فهذا وان كان مختصا بمعاناة النساء فليست الزوجة الا من الزوجات
لانه قد يجوز ان تعانيه غيرهن من النساء ولذلك قيل المراة ريحانة
وليست بقهرمانة وليس في هذا القصد تاثير في دين ولا قدح في
مروة والاحمد في مثل هذا التماس ذوي الاسنان والحنكة ممن
قد خبر تدبير المنازل وعرف عادات الرجال فانهن اقوم بهذه
الحال • والحال الثالثة ان يكون المقصود به الاستمتاع وهي اذم
الاحوال الثلثة واوهنها للمروة لانه ينقاد للاخلاق البهيمية
ويتابع شهوته الذميمة • وقد قال الحارث بن نصر الاسدي
شر النكاح نكاح الغلمة الا ان يفعل لكسر الشهوة وقهرها
بالاضعاف لها عند الغلبة او تسكين النفس عند المنازعة حتى
لا تطمح له عين لريبة ولا تنازعه نفس الى فجور ولا يلحقه في ذلك

ذلك

ذم ولا ينال به وصم فهو بالحمد اجدر وبالثناء احق ولو تنزه في مثل هذه الحال عن استبدال الحرائر الى الاماء لكان ابلغ في صيانته واكمل لمروته وهذه الحال تقف على شهوات النفوس لا يمكن ان يترجح فيها اولى الامور وهي اخطر الاحوال بالمنكوحة لان الشهوات غايات متناهية تزول بزوالها ما كان متعلقا بها فتصير الشهوة في الابتداء كراهية في الانتهاء ولذلك كرهت العرب البنات ووادتهن اشفاقا عليهن وحمية لهن من ان يبتذلهن اللئام بمثل هذه الحال وكان من يحوب من قتل البنات لرقة او محبة كان موتهن احب اليه وآثر عنده • خطب الى عقيل بن علفة ابنته الجرباء فقال

اني وان سيق الي المهر الف وعبدان وذود عشر احب اصهاري الي القبر

وقال عبد الله بن طاهر

لكل ابي بنت يراعي شؤونها ... ثلثة اصهار اذا حمد الصهر

فبعل يراعيها وخدر يكنها ... وقبر يواريها وخيرهم القبر

فصل وأما المؤاخاة بالمودة وهي الرابع من اسباب الالفة فلانها تكسب بصادق الميل اخلاصا ومصافاة وتحدث بخلوص المصافاة وفاء ومحاماة وهذه اعلى مراتب الالفة آخا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين اصحابه لتزيد الفتهم ويقوى تظافرهم

ولذلك

وتناصرهم • وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال عليكم باخوان الصدق فانهم زينة في الرخاء وعصمة في البلاء • وروى ابو الزبير عن سهل بن سعد ان النبي صلى الله عليه وسلم قال المرء كثير باخيه ولا خير لك في صحبة من لا يرى لك من الحق مثل ما ترى له • وقال عمر بن الخطاب رضوان الله عليه لقاء الاخوان جلاء الاحزان • وقال خالد بن صفوان ان اعجز الناس من قصر في طلب الاخوان واعجز منه من ضيع من ظفر به منهم وقال علي لابنه الحسن عليهما السلم يا بني الغريب من ليس له حبيب • وقال ابن المعتز من اتخذ اخوانا كانوا له اعوانا وقال بعض الادباء افضل الذخائر اخ وفي وقال بعض البلغاء صديق مساعد عضد وساعد • وقال بعض الشعراء

هموم رجال في امور كثيرة ... وهمي من الدنيا صديق مساعد

يكون كروح بين جسمين فرقا ... فجسماهما جسمان والروح واحد

وقيل انما سمي الصديق صديقا لصدقه والعدو عدوا لعدوه عليك • وقال ثعلب انما سمي الخليل خليلا لان محبته تتخلل القلب فلا يدع فيه خللا الا ملاه وانشد لبشار بن برد

قد تخللت مسلك الروح مني ... وبه سمي الخليل خليلا

والمواخاة في الناس قد تكون من وجهين احدهما مكتسبة بالاتفاق
الجاري مجرى الاضطرار والثاني مكتسبة بالقصد والاختيار
فاما المكتسبة بالاتفاق فهي اوكد حالاً لانها تنعقد عن اسباب
تقود اليها والمكتسبة بالقصد تنعقد لها اسباب تنقاد اليها
وما كان جارياً بالطبع فهو ألزم مما هو حادث بالقصد ونحن نبدا
بالوجه الاول المكتسب بالاتفاق ثم نعقبه بالوجه الثاني المكتسب
بالقصد. اما المكتسب بالاتفاق فله اسباب يبتدي منها ثم ينتقل
في غاية احوالها المحمودة الى مراتب سبعة ربما استكملهن
وربما وقف على بعضهن ولكل مرتبة في ذلك حكم خاص وسبب موجب
وقد قال الشاعر

ما هوى الا له سبب ... يبتدي منه وينشعب

فاما اسباب الاخاء فالتجانس في حال يجتمعان فيها ويأتلفان بها
فان قوي التجانس قوي الايتلاف به وان ضعف كان ضعيفاً به ما
لم تحدث علة اخرى يقوى بها الايتلاف وانما كان كذلك لان الايتلاف
بالتشاكل والتشاكل بالتجانس فاذا عدم التجانس من وجه انتفى
التشاكل من كل وجه ومع انتفاء التشاكل يعدم الايتلاف فثبت
ان التجانس وان تنوع اصل الاخاء وقاعدة الايتلاف. وقد روى
يحيى بن سعيد عن عمرة عن عايشة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال

الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ايتلف وما تناكر منها اختلف
وهذا واضح وهي بالتجانس متعارفة وبفقده متناكرة. وقيل في منثور
الحكم الاضداد لا تتفق والاشكال لا تفترق. وقال بعض الحكماء
بحسن تشاكل الاخوان يثبت التواصل. وقال بعض الشعراء

فلا تحقرن نفسي وانت خليلها ... فكل امرئ يصبو الى من يجانس

وقال اخر

فقلت اخي قالوا اخ من قرابة ... فقلت لهم ان الشكول اقارب
نسيبي في رايي وعزمي وهمتي ... وان فرقتنا في الاصول المناسب

ثم قد يحدث التجانس المواصلة بين المتجانسين وهي المرتبة الثانية
من رتب الاخاء وسبب المواصلة بينهما وجود الاتفاق منهما فصارت
المواصلة نتيجة التجانس والسبب فيه وجود الاتفاق لان عدم
الاتفاق منفر. وقد قال الشاعر

الناس ان وافقتهم عذبوا ... او لا فان جناهم مر
كم من رياض لا انيس بها ... تركت لان طريقها وعر

ثم تحدث عن المواصلة رتبة ثالثة وهي المؤانسة وسببها الانبساط
ثم تحدث عن المؤانسة رتبة رابعة وهي المصافاة وسببها خلوص
النية ثم تحدث عن المصافاة رتبة خامسة وهي المودة وسببها

الثقة، وهذه المرتبة أدنى الكمال في أحوال الإخاء، وما قبلها أسباب
تفضي إليها، فإن اقترن بها المعاضدة فهي الصداقة، ثم تحدث عن المودة
رتبة سادسة وهي المحبة، وسببها الاستحسان، فإن كان الاستحسان
لفضائل النفس حدثت منه رتبة سابعة وهي الإعظام، وإن كان
الاستحسان للصورة والحركات حدثت [منه] رتبة ثامنة وهي العشق
وسببه الطمع. وقد قال المأمون:

أول العشق مزاح وولع ثم يزداد إذا ازداد الطمع
كل من يهوى وإن عالت به رتبة الملك لمن يهوى تبع

وهذه الرتبة هي آخر الرتب المحدودة، وليس لما جاوزها رتبة مقدرة
ولا حال محدودة، لأنها قد تؤول إلى ممازجة النفوس وإن تميزت ذواتها
وتفضي إلى مخالطة الأرواح وإن تفارقت أجسادها، وهذه حال
لا يمكن حصر غاياتها ولا الوقوف عند نهاياتها. وقد قال الكندي:
الصديق إنسان هو أنت إلا أنه غيرك. ومثل هذا القول مروي
عن أبي بكر الصديق رضوان الله عليه في عمر حين أقطع طلحة بن عبيد الله
أرضا وكتب له بها كتابا وأشهد فيه ناسا فيهم عمر، فأتى طلحة بكتابه
إلى عمر ليختمه فامتنع عليه، فرجع طلحة مغضبا إلى أبي بكر وقال
والله ما أدري أنت الخليفة أم عمر، فقال: بل عمر ولكنه أنا. وأما

المكتسبة بالقصد فلا بد لها من داع يدعو إليها وباعث يبعث عليها
وقد يكون الداعي إليها من وجهين: رغبة وفاقة. فأما الرغبة فهو أن [فهي]
يظهر من الإنسان فضائل تبعث على إخائه وتوسم جميل يدعو إلى
اصطفائه، وهذه الحال أقوى من التي بعدها لظهور الصفات
المطلوبة من غير تكلف لطلبها، وإنما يخاف عليها من الاغترار بالتصنع
لها، فليس كل من أظهر الخير كان من أهله، ولا كل من تخلق بالحسنى
كان من طبعه، والمتكلف للشيء منافيه إلا أن يدوم عليه مستحسنا
له في العقل أو مندوبا إليه في الشرع فيصير متطبعا به لا مطبوعا عليه
لأنه قد تقدم من قول الحكماء: ليس في الطبع أن يكون ما ليس في الطبع
ثم أول في المعتذر أن تكون أخلاق الفاضل كاملة بالطبع، وإنما الأكثر
أن يكون بعض فضائله بالطبع وبعضها بالتطبع الجاري بالعادة
مجرى الطبع، حتى يصير ما تطبع به في العادة أغلب عليه مما كان
مطبوعا عليه إذا خالف العادة، ولذلك قيل: العادة طبع ثان. وقال ابن الرومي:

واعلم بأن الناس من طينة يصدق في الثلب لها الثالب
لولا علاج الناس أخلاقهم إذا لفاح الحمأ اللازب

وأما الفاقة فهو أن يفتقر الإنسان لوحشة انفراده ومهانة وحدته
إلى اصطفاء من يأنس بمواخاته ويثق بمعاضدته ومولاته، فقد

قالت الحكماء من لم يرغب في ثلاث بلي بست من لم يرغب بالاخوان بلي بالعداوة والخذلان ومن لم يرغب في السلامة بلي بالشدايد والامتهان ومن لم يرغب في المعروف بلي بالندامة والخسران ولعمري ان اخوان الصدق من انفس الذخاير وافضل العدد لانهم سهماء النفوس واولياء النوايب وقد قالت الحكماء رب صديق اود من شقيق وقيل لمعوية رضي الله عنه اي الناس احب اليك قال صديق يحببني الى الناس وقال ابن المعتز القريب بعداوته بعيد والبعيد بمودته قريب وقال الشاعر

لمودة ممن يحبك مخلصا … خير من الرحم القريب الكاشح

وقال آخر

يخونك ذو القربى مرارا وربما … وفى لك عند العهد من لا تناسبه

فاذا عزم على اصطفاء الاخوان سبر احوالهم قبل اخائهم وكشف عن اخلاقهم قبل اصطفائهم لما تقدم من قول الحكماء اسبر تخبر ولم يبعثه الوجد على الاقدام قبل الخبرة ولا حسن الظن على الاغترار بالتصنع فان الملق مصايد العقول والنفاق تدليس الفطن وربما يجتنا المتصنع وليس فيمن يكون النفاق والملق بعض سجاياه خير يرجى ولا صلاح يومل ولذلك قالت الحكماء اعرف الرجل من فعله لا من كلامه واعرف محبته من عينه لا من لسانه وقد قال خالد ابن صفوان انما انفق على اخواني لاني لم استعمل معهم النفاق ولا قصرت بهم عن الاستحقاق وقال حماد بن عجرد

كم من اخ لك ليس تنكره … ما دمت من دنياك في يسر
متصنع لك في مودته … يلقاك بالترحيب والبشر
فاذا غدا والدهر ذو غير … دهر عليك عدا مع الدهر
فارفض باجمال مودة من … يقلي المقل ويعشق المثري
وعليك من حالاه واحده … في العسر اما كنت واليسر

على ان الانسان موسوم بسيماء من قارب ومنسوب اليه افاعيل من صاحب قال النبي صلى الله عليه وسلم المرء مع من احب وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه الصاحب مناسب وقال ابن مسعود رضي الله عنه ما شي ادل على شي ولا الدخان على النار من الصاحب على الصاحب وقال بعض الحكماء يظن بالمرء ما ظن بقرينه وقال بعض الحكماء اعرف اخاك باخيه قبلك وقال عدي بن زيد

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه … فان القرين بالمرء مقتدي

فلزم من هذا الوجه ايضا ان يحترز من دخلاء السوء ويجانب اهل صحبة اهل الريب ليكون موفور العرض سليم العيب فلا يلام بلايمة غيره وهذا قبل التثبت والارتياء ومداومة

الاختبار والابتلاء متعذر بل معوز. وقد ضرب ذو الرمة مثلا بالماء فيمن حسن ظاهره وخبث باطنه فقال

ألم تر أن الماء يخبث طعمه ... وإن كان لون الماء أبيض صافيا

ونظر بعض الحكماء إلى رجل سوء حسن الوجه فقال أما البيت فحسن وأما الساكن فردي. فأخذ جحظة هذا المعنى فقال

ربما أبين البنا بن فيه ... منزل عامر وعقل خراب

رُبّما

وأنشدني بعض أهل العلم

لا تركنن إلى ذي منظر حسن ... فرب رائعة قد ساء مخبرها

ما كل أصفر دينار لصفرته ... صفر العقارب أدهاها

وأنكرها

وقال بعض البلغاء مصارمة قبل اختبار أفضل من مؤاخاة على اغترار. وقال بعض الحكماء من لم يقدم الامتحان قبل الثقة والثقة قبل الأنس أثمرت مودته ندما. وقال بعض البلغاء لا تثق بالصديق قبل الخبرة ولا توقع بالعدو قبل القدرة. وقال بعض الشعراء

لا تحمدن امرأ حتى تجربه ... ولا تذمنه من غير تجريب

فحمدك المرء ما لم تبله خطأ ... وذمك المرء بعد الحمد تكذيب

فإذا قد لزم من هذين الوجهين سبر الإخوان قبل إخائهم وخبرة أخلاقهم قبل اصطفائهم فالخصال المعتبرة في إخائهم بعد المجانسة

التي هي أصل الاتفاق أربع خصال. فالخصلة الأولى عقل موفور يهدي إلى مراشد الأمور فإن الحمق لا تثبت معه مودة ولا يدوم لصاحبه استقامة. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال البذاء لؤم وصحبة الأحمق شؤم. وقال بعض الحكماء عداوة العاقل أقل ضررا من مودة الأحمق لأن ربما ضر وهو يقدر أنه ينفع و

الأحمق

العاقل لا يتجاوز الحد في مضرته فمضرته لها حد يقف عليه العقل ومضرة الجاهل ليست بذات حد والمحدود أقل ضررا مما هو غير المحدود. وقال بعض البلغاء من الجهل صحبة الجهل ومن المحال مجادلة ذوي المحال. وقال بعض الأدباء من أشار عليك باصطناع جاهل أو عاجز لم يخل من أن يكون صديقا جاهلا أو عدوا عاقلا لأنه يشير بما يضرك ويحتال فيما يضع منك. وقال المنصور للمسيب ابن زهير ما مادة العقل قال مجالسة العقلاء. وقال بعض الشعراء

ذوي

إذا ما كنت متخذا خليلا ... فلا تثقن بكل أخي إخاء

فإن خيرت بينهم فألصق ... بأهل العقل منهم والحياء

فإن العقل ليس له إذا ما ... تفاضلت الفضائل من كفاء

والخصلة الثانية الدين الواقف بصاحبه على الخيرات فإن تارك الدين عدو لنفسه فكيف ترجى منه مودة غيره. وقال بعض الحكماء

اصطف من الإخوان ذا الدين والحسب والرأي والأدب فإنه ردء لك عند حاجتك ويد عند نائبتك وأنس عند وحشتك وزين عند عافيتك وقال حسان بن ثابت

أخلاء الرخاء هم كثير ... ولكن في البلاء هم قليل

فلا يغررك خلة من تؤاخي ... فما لك عند نائبة خليل

وكل أخ يقول أنا وفي ... ولكن ليس يفعل ما يقول

سوى خل له حسب ودين ... فذاك لما يقول هو الفعول

وقال آخر ... من لم تكن في الله خلته ... فخليله منه على خطر

والخصلة الثالثة أن يكون محمود الأخلاق مرضي الأفعال مؤثرا للخير آمرا به كارها للشر ناهيا عنه فإن مودة الشرير تكسب الأعداء وتفسد الأخلاق ولا خير في مودة تجلب عداوة وتورث مذمة وملامة فإن المتبوع تابع صاحبه. وقال عبد الله بن المعتز إخوان الشر كشجر النار يحرق بعضها بعضا. وقال بعض الحكماء مخالطة الأشرار خطر والصبر على صحبتهم كركوب البحر الذي من سلم ببدنه من التلف فيه لم يسلم بقلبه من الحذر منه. وقال بعض الأدباء صحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار. وقد قال بعض البلغاء إن من خير الاختيار صحبة الأخيار ومن شر الاختيار صحبة الأشرار. وقال بعض الشعراء

مخالطة السفيه سفاه رأي ... ومن عقل مجالسة الحكيم

فإنك والقرين معا سواء ... كما قد الأديم من الأديم

والخصلة الرابعة أن يكون من كل واحد منهما ميل إلى صاحبه ورغبة في مؤاخاته فإن ذلك أوكد لحال المؤاخاة وأمد لأسباب المصافاة إذ ليس كل مطلوب إليه طالب ولا كل من رغب إليه راغب ومن طلب مودة ممتنع عليه ورغب إلى زاهد فيه كان معنى خائبا كما قال البحتري

وطلبت منك مودة لم أعطها ... إن المعنى طالب لم يظفر

وقال العباس بن الأحنف

فإن كان لا يدنيك إلا شفاعة ... فلا خير في ود يكون بشافع

فأقسم ما تركي عتابك عن قلى ... ولكن لعلمي أنه غير نافع

وإني إذا لم ألزم الصبر طائعا ... فلا بد منه مكرها غير طائع

فإذا استكملت هذه الخصال في إنسان وجب إخاؤه وتعين اصطفاؤه وبحسب وفورها فيه يجب أن يكون الميل إليه والثقة به وبحسب ما يرى من غلبة إحداها يجعله مستعملا في الخلق الغالب عليه فإن الإخوان على طبقات مختلفة وأنحاء متشعبة

ولكل واحد منهم حال يختص بها في المشاركة وثلمة يسدها في المؤازرة والمظافرة وليس تتفق احوال جميعهم على حد واحد لان التباين في الناس غالب واختلافهم في الشيم ظاهر ۰ وقد قال بعض الحكماء الرجال كالشجر شرابه واحد وثمره مختلف فاخذ هذا المعنى منصور بن اسمعيل الفقيه فقال ۞

۞ بنوا آدم كالنبت ونبت الارض الوان
فمنهم شجر الصندل والكافور والبان
۞ ومنهم شجر اكثر ما يحمل قطران ۞

ومن رام اخوانا تتفق احوال جميعهم رام امرا متعذرا بل لو اتفقوا لكان ربما وقع به خلل في نظامهم اذ ليس الواحد من الاخوان يمكن الاستغناء به في كل حال ولا المجبولون على الخلق الواحد يمكن ان يتصرفوا في جميع الاعمال وانما بالاختلاف يكون الايتلاف ۰ وقد قال بعض الحكماء ليس بلبيب من لم يعاشر من لم يجد من معاشرته بدا ۰ وقال المامون الاخوان ثلث طبقات طبقة كالغذاء لا يستغنى عنه وطبقة كالدواء يحتاج اليه احيانا وطبقة كالداء لا يحتاج اليه ابدا ولعمري ان الناس على ما صنفهم لا الاخوان وليس من كان منهم كالداء من الاخوان المعدودين بل هم من الاعداء المحذورين وانما يداجون بالمودة استكفافا لشرهم وتحرزا من مكاشفتهم فدخلوا في عداد الاخوان بالمظاهرة والمساترة وفي الاعداء عند المكاشفة والمجاهرة ۰ وقد قال بعض الحكماء مثل العدو الضاحك اليك كالحنظلة الخضرة اوراقها القاتل مذاقها ۰ وقيل في حكم الفرس لا يبعثون بمقاربة العدو فانه كالماء الذي ان اطيل اسخانه بالنار لم يمنع من اطفائها وقال يزيد بن الحكم الثقفي ۞

• تكاشرني كرها كانك ناصح وعينك تبدي ان صدرك لي دوي •
• لسانك معسول ونفسك علقم وشرك مبسوط وخيرك ملتوي •
• فليتك اذ كان خيرك كله وشرك عني ما ارتوى الماء مرتوي •

فاذا خرج من كان كالداء من عداد الاخوان فالاخوان هم الصنفان الآخران من كان منهم كالغذاء او كالدواء لان الغذاء قوام النفس وحياتها والدواء علاجها وصلاحها وافضلهما من كان كالغذاء لان الحاجة اليه اعم واذا تميز الاخوان وجب ان ينزل كل واحد منهم حيث نزلته احواله واستقرت عليه خلاله وخصاله فمن قويت اسبابه قويت الثقة به وبحسب الثقة به يكون الركون اليه والتعويل عليه قال الشاعر ۞

ما أنت بالسبب الضعيف وإنما ... نجح الأمور بقوة الأسباب

فاليوم حاجتنا إليك وإنما ... يدعى الطبيب لكثرة الأوصاب

وقد اختلفت مذاهب الناس في اتخاذ الإخوان فمنهم من يرى أن الاستكثار منهم أولى ليكونوا أقوى منعة وبدا وأوفر تحننا وتوددا وأكثر تعاونا وتفقدا. وقيل لبعض الحكماء: ما العيش؟ فقال: إقبال الزمان، وعز السلطان، وكثرة الإخوان. وقد قيل: حلية المرء كثرة إخوانه. ومنهم من يرى أن الإقلال منهم أولى لأنهم أخف أثقالا وكلفا وأقل تنازعا وخلفا. وقال الإسكندر: المستكثر من الإخوان من غير اختبار كالمستوفر من الحجارة، والمقل من الإخوان المتخير لهم كالذي يتخير الجوهر. وقال عمرو بن العاص: من كثر إخوانه كثر غرماؤه. وقال إبرهيم ابن العباس: مثل الإخوان كالنار قليلها متاع وكثيرها بوار. ولقد أحسن ابن الرومي في هذا المعنى ونبه على العلة حيث يقول:

عدوك من صديقك مستفاد ... فلا تستكثرن من الصحاب

فدع عنك الكثير فكم كثير ... يعاف وكم قليل مستطاب

فإن الداء أكثر ما تراه ... يكون من الطعام أو الشراب

فما اللجج الملاح بمرويات ... وتلقى الري في النطف العذاب

وقال بعض البلغاء: ليكن غرضك في اتخاذ الإخوان والأخلاء لتكثير العدد ولا لتكثير العدة، وتحصيل النفع لا تحصيل الجمع، فواحد يحصل المراد خير من ألف تكثر الأعداد. وإذا كان التجانس والتشاكل من قواعد الأخوة وأسباب المودة كان وفور العقل وظهور الفضل يقتضي من حال صاحبه قلة إخوانه لأنه يروم مثله ويطلب شكله، وأمثاله من ذوي العقل والفضل أقل من أضداده من ذوي الحمق والنقص لأن الخيار في كل جنس هو الأقل، فلذلك ما قل وفور العقل والفضل. وقد قال الله تعالى: إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون. فقل لهذا التعليل إخوان أهل الفضل لقلتهم، وكثر إخوان ذوي النقص والجهل لكثرتهم. وقد قال الشاعر:

لكل امرئ شكل من الناس مثله ... فأكثرهم شكلا أقلهم عقلا

فكل أناس يألفون لشكلهم ... فأكثرهم عقلا أقلهم شكلا

لأن الكثير العقل ليس بواجد ... له في طريق حين يسلكه مثلا

فإذا كان الأمر على ما وصفنا فقد ينقسم أحوال من دخل في عداد الإخوان أربعة أقسام: منهم من يعين ويستعين، ومنهم من لا يعين ولا يستعين، ومنهم من يستعين ولا يعين، ومنهم من يعين ولا يستعين. فأما المعين المستعين فهو معاوض منصف يؤدي ما عليه ويستوفي

العدد

ماله فهو كالمقرض يسعد عند الحاجة ويسترد عند الاستغناء
فهو مشكور في معونته ومعذور في استغنائه وهذه اعدل احوال
الاخوان • واما من لا يعين ولا يستعين فهو متارك قد منع خيره
وقمع شره فلا هو صديق يرجى ولا عدو يخشى • وقد قال المغيرة
ابن شعبة التارك للاخوان متروك ومن كان كذلك فهو كالصورة
الممثلة يروق حسنها ويخونك نفعها فلا هو مشكور لمنع خيره
ولا هو مذموم لقمع شره وان كان بالذم اجدر • وقال الشاعر

• واسوأ ايام الفتى يوم لا يرى له احد يزري عليه وينكر •

غير ان فساد الوقت وتغير اهله يوجب شكر من كان شره مقطوعا
وان كان خيره ممنوعا كما قال المتنبي •

• انا لفي زمن ترك القبيح به من اكثر الناس اجمال واحسان •

واما من يستعين ولا يعين فهو لئيم كل ومهين مستذل وقد قطع
عنه الرغبة وبسط فيه الرهبة فلا خيره يرجى ولا شره يؤمن
وحسبك مهانة برجل يستثقل عند استقلاله فليس لمثله في
الاخاء حظ ولا في الوداد نصيب وهو ممن جعله المامون
من داء الاخوان لا من دوائهم ومن سمهم لا من غذائهم • وقد قال
بعض الحكماء شر ما في الكريم ان يمنعك وخير ما في اللئيم ان
يكف

يكف عنك شره • وقال ابن الرومي •

• عذرنا النخل في ابداء شوك يرد به الانامل عن جناه •
• فما للعوسج الملعون ابدى لنا شوكا بلا ثمر نراه •

واما من يعين ولا يستعين فهو كريم الطبع مشكور الصنع قد حاز
فضيلتي الابتداء والاكتفاء فلا يرى ثقيلا في نائبة ولا يقعد عن
نهضة في معونة فهذا اشرف الاخوان نفسا واكرمهم طبعا فينبغي
لمن اوجده الزمان مثله وقل ان يكون له مثل لانه البر الكريم
والدر اليتيم ان يثني عليه خنصره ويعض عليه ناجذه ويكون به
اشد ضنا منه بنفائس امواله واسنى ذخائره لان نفع الاخوان عام
ونفع الاموال خاص ومن كان اعم نفعا فهو بالادخار احق • وقد قال الفرزدق

• يمضي اخوك فلا تلقى له خلفا والمال بعد ذهاب المال يكتسب •

وقال آخر •

• لكل شيء عدمته عوض وما لفقد الصديق من عوض •

فلا ينبغي ان يزهد فيه لخلق او خلقين ينكرهما منه اذا رضي
سائر اخلاقه وحمد اكثر شيمه فان اليسير مغفور والكمال
معوز • وقد قال الكندي كيف تريد من صديقك خلقا واحدا
وهو ذو طبائع اربع مع ان نفس الانسان التي هي اخص النفوس

بهِ ومُدبّرٌ باختيارهِ وإرادتهِ لا بطبعهِ فيقودها في كلّ ما يريد
ولا يُجيبُ إلى طاعتهِ في كلّ ما يُحبّ فكيف بنفسِ غيرهِ وحسبك
أن يكون لك من أخيك أكثرهُ. وقال أبو الدرداء معاتبةُ الأخ خيرٌ
من فقدهِ ومن لك بأخيك كلّهِ. فأخذ أبو العتاهية هذا المعنى وقال

أخيّ من لك من بني الدنيا بكلّ أخيك من لك ⁂
فاستبق بعضك لا يملك كلّ من أعطيت كلّك ⁂

وقال أبو تمام الطائي ⁂

ما غبن المغبون مثل عقله من لك يوماً بأخيك كلّه ⁂

وقال بعض الحكماء طلبُ الإنصاف من قلّة الإنصاف وقال
بعض البلغاء لا يزهدنّك في رجلٍ حمدت سيرته وارتضيت وتيرته
وعرفت فضله وبطنت عقله عيبٌ خفيٌّ تحيط به كثرة فضائله
أو ذنبٌ صغيرٌ تستغفر له قوّة وسائله فإنّك لن تجد ما بقيت
مهذّباً لا يكون فيه عيبٌ ولا يقع منه ذنبٌ فاعتبر بنفسك بعد
أن لا تراها بعين الرضا ولا تجري فيها على حكم الهوى فإنّ في
اعتبارك بها واختبارك لها ما يؤيسك ممّا تطلبه ويعطفك
على من يذنب وقال الشاعر ⁂

ومن ذا الذي تُرضى سجاياه كلّها كفى المرء نبلاً أن تُعدّ معايبه ⁂

وقال النابغة الذبياني ⁂

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمّه على شعثٍ أيّ الرجال المهذّب ⁂

وليس ينقض هذا القول ما وصفنا من اختياره واختبار الخصال
الأربع فيه لأنّ ما أعوز معفوٌّ عنه وهكذا لا ينبغي أن توحشه فترةٌ
تجدها منه ولا يسيء به الظنّ في نبوةٍ تكون منه ما لم يتحقّق تغيّره
ولم يتيقّن تنكّره وليصرف ذلك إلى فترات النفوس واستراحات
الخواطر فإنّ الإنسان قد يتغيّر عن مراعاة نفسه التي هي أخصّ
النفوس به ولا يكون ذلك من عداوةٍ لها ولا ملل منها وقد قيل في
منثور الحكم لا يفسدنّك الظنّ على صديقٍ قد أصلحك اليقين له
وقال جعفر بن محمّد لابنه يا بنيّ من غضب من إخوانك
ثلاث مرّاتٍ فلم يقل فيك سوءاً فاتّخذه لنفسك خليلاً. وقال
الحسن بن وهب من حقوق المودّة أخذ عفو الإخوان والإغضاء
عن تقصيرٍ إن كان. وقد روي عن عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه
في قوله تعالى فاصفح الصفح الجميل قال رضاً بغير عتاب. وقال ابن الرومي

هم الناس في الدنيا فلا بدّ من قذىً يلمّ بعينٍ أو يكدّر مشربا ⁂
ومن قلّة الإنصاف أنّك تبتغي المهذّب في الدنيا ولستَ مهذّبا ⁂

وقال بعض الشعراء ⁂

تواصلنا على الأيام باقٍ ولكن هجرنا مطر الربيع

يروعك صوبه لكن تراه على علاته داني النزوع

معاذ الله أن نلقى غضابا سوى ذل المطاع على المطيع

وأنشدني الأزدي

لا تؤيسنك من صديقك نبوة ينبو الفتى وهو الجواد الخضرم

فإذا نبا فاستبقه وتأنه حتى تفيء به الطباع الأكرم

وقال ابن الرومي في ذلك

إذا أنا عاتبت الملوك فإنما أخطط في صحف من الماء أحرفا

وهبه ارعوى بعد العتاب ألم تكن مودته طبعا فصار تكلفا

وهم نوعان منهم من يكون ملله استراحة ثم يعود إلى المعهود من إخائه فهذا أسلم المللين وأقرب الرجلين يسامح في وقت استراحته وحين فترته ليرجع إلى الحسنى ويؤوب إلى الإخاء وإن تقدم المثل بما نظمه الشاعر حيث يقول

وقالوا يعود الماء في النهر بعد ما عفت منه آثار وجفت مشارعه

فقلت إلى أن يرجع الماء عائدا ويعشب شطاه تموت ضفادعه

لكن لا يطرح حقه بالتوهم ولا يسقط حرمته بالظنون قال الشاعر

إذا ما حال عهد أخيك يوما وحاد عن الطريق المستقيم

فلا تعجل بلومك واستدمه فإن أخا الحفاظ المستديم

فإن تك زلة منه وإلا فلا تبعد عن الخلق الكريم

ومنهم من يكون ملله تركا واطراحا فلا يراجع إخاء ولا ودا ولا يتذكر حفاظا ولا عهدا كما قال أشجع بن عمرو الأسلمي

إني رأيت لها مواصلة كالسم تفرغه على الشهد

فإذا أخذن بعهد ذمتها لعب الصدود بذلك العهد

وهذا أذم الرجلين حالا لأن مودته من وساوس الخطرات وعوارض الشهوات وليس إلا استدراك الحال معه بالإقلاع قبل الخلطة أو حسن المتاركة بعد الورطة كما قال العباس بن الأحنف

تداركت نفسي فعزيتها ونغصتها قبل آمالها

وما طابت النفس عن سلوة ولكن حملت عليها لها

وما مثل من هذه حاله إلا كما قال إبراهيم بن هرمة

فإنك واطراحك وصل سلمى لأخرى في مودتها نكوب

كثاقبة لحلي مستعار بأذنيها فشانهما الثقوب

فأدت حلي جارتها إليها وقد بقيت بأذنيها ندوب

فإذا صفت عنده أخلاق من سبر وتمهدت لديه أحوال من خبر وأقدم على اصطفائه أخا وعلى اتخاذه خدنا لزمه حينئذ حقوقه

ووجبت عليه حرماته فقد قال عمر بن مسعدة العبودية عبودية الإخاء لا عبودية الرق • وقال بعض الحكماء من جاد لك بمودته فقد جعلك عديل نفسه • فأول حقوقه اعتقاد مودته ثم إيناسه بالانبساط إليه في غير محرم ثم نصحه في السر والعلانية ثم تخفيف الأثقال عنه ثم معاونته فيما ينوبه من حادثة أو يناله من نكبة فإن مراقبته في الظاهر نفاق وتركه في الشدة لؤم • وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال خير أصحابك المعين لك على دهرك وشرهم من سعى لك بسوق يومه • وقيل يا رسول الله أي الأصحاب خير قال الذي إذا ذكرت أعانك وإذا نسيت ذكرك

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه خير إخوانك من واساك وخير منه من كفاك • وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول اللهم إني أعوذ بك ممن لا يلتمس خالص مودتي إلا بموافقة شهوتي وممن يساعدني على سرور ساعتي ولا يفكر في حوادث غدي • وقال بعض الحكماء عقود الغادر محلولة وعهوده مدخولة وقال بعض البلغاء • ما ودك من أهمل ودك ولا أحبك من أبغض حبك

وقال بعض الشعراء

وكل أخ عند الهوينا ملاطف • ولكنما الإخوان عند الحقائق

وقال صالح بن القدوس

شر الأخلاء من كانت مودته • مع الزمان إذا ما خاف أو رغبا

إذا وترت امرأ فاحذر عداوته • من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا

إن العدو وإن أبدى مسالمة • إذا رأى منك يوما فرصة وثبا

وينبغي أن يتوقى الإفراط في محبته فإن الإفراط داع إلى التقصير ولأن تكون الحالة بينهما نامية أولى من أن تكون متناهية • وقد روى ابن سيرين عن أبي هريرة أن النبي عليه السلام قال أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما • وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا • ولأبي الأسود الديلي

وكن معدنا للخير واصفح عن الأذى • فإنك راء ما عملت وسامع

وأحبب إذا أحببت حبا مقاربا • فإنك لا تدري متى أنت نازع

وأبغض إذا أبغضت غير مباين • فإنك لا تدري متى أنت راجع

وقال عدي بن زيد

ولا تأمنن من مبغض قرب داره • ولا من محب أن يمل فيبعدا

وقال بعض الوزراء لبعض الخلفاء حين أراد أن يتخذه وزيرا اجعل بيني وبين العامة درجة يخافها العدو ويأملها الصديق وإنما يكرم

من حق الإخاء بذل المجهود في النصح والتناهي في رعاية ما بينهما من
الحق فليس في ذلك إفراط وإن تناهى ولا مجاوزة حد وإن أكثر وأوفى
وتستوي حالتاهما في المغيب والمشهد ولأن يكون مغيبهما أفضل
من مشهدهما أولى فإن فضل المشهد على المغيب لؤم وفضل المغيب
على المشهد كرم واستواؤهما حفاظ. وقد قال بعض الشعراء

على الإخوان لي رقيب من الصفا تبيد الليالي وهو ليس يبيد
يذكرنيهم في مغيب ومشهد فسيان منهم غائب وشهيد
وإني لأستحيي أخي أن أبره قريبا وأن أجفوه وهو بعيد

وهكذا يقصد التوسط في زيارته وغشيانه غير مقلل ولا مكثر
فإن تقليل الزيارة داعية الهجران وكثرتها سبب الملال. وقد
قال النبي صلى الله عليه وسلم يا أبا هريرة زر غبا تزدد حبا
وقال لبيد توقف عن زيارة كل يوم. إذا أكثرت ملك من تزور.
وقال آخر أقلل زيارتك الصديق ولا تطل هجرانه فيلج في هجرانه
إن الصديق يلج في غشيانه لصديقه فيمل من غشيانه
حتى تراه بعد طول سروره بمكانه متثاقلا بمكانه
وإذا توانى عن صيانة نفسه رجل تنقص واستخف بشأنه
ويحسب ذلك فليكن في عتابه فإن كثرة العتاب سبب القطيعة

واطراح جميعه دليل على قلة الاكتراث بأمر الصديق. وقد قيل
علة المعاداة قلة المبالاة. بل يتوسط حالتي تركه وعتابه ويسامح
بالمتاركة ويستصلح بالمعاتبة فإن المسامحة والاستصلاح إذا
اجتمعا لم يلبث معهما نفور ولم يبق معهما وجد. وقد قال بعض
الحكماء لا تكثرن معاتبة إخوانك فيهون عليهم سخطك. وقال منصور النمري

أقلل عتاب من استربت بوده ليست تنال مودة بعتاب

وقال بشار بن برد

إذا كنت في كل الأمور معاتبا صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
فإن أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه
فعش واحدا أو صل أخاك فإنه مقارف ذنب مرة ومجانبه

ثم من حق الإخوان أن تغفر هفوتهم وتستر زلتهم لأن من رام بريا
من الهفوات سليما من الزلات رام أمرا معوزا واقترح وصفا معجزا
وقد قالت الحكماء أي عالم لا يهفو وصارم لا ينبو وجواد لا
يكبو. وقال بعض الحكماء من رام صديقا يأمن زلته ويدوم
ارتباطه به كان كضال الطريق الذي لا يزداد لنفسه إتعابا إلا
ازداد من غايته بعدا. وقيل لخالد بن صفوان أي إخوانك أحب
إليك فقال من غفر زللي وقطع عللي وبلغني أملي. وأنشدني الربيع للشافعي رضي الله عنه

قال الشاعر
ما لكثرت أفحص عن أخي ثقة
لا عدمت عواقب النجح

أحب من الاخوان كل مواتي ● وكل غضيض الطرف عن عثراتي
يوافقني في كل امر اريده ● ويحفظني حيا وبعد وفاتي
فمن لي بهذا ليت اني اصبته ● فقاسمته مالي من الحسنات
تصفحت اخواني فكان اقلهم ● على كثرة الاخوان اهل ثقاتي

وقال بعض الشعراء

ما كدت افحص عن اخي ثقة ● الا عدمت عواقب الفحص

وانشد ثعلب

اذا انت لم تستقبل الامر لم تجد ● بكفيك في ادباره متعلقا
اذا انت لم تترك اخاك وزلة ● اذا زلها اوشكتما ان تفرقا

وحكى الاصمعي عن بعض العرب تناس مساوي الاخوان يدم لك ودهم ووصى بعض الادباء اخاه فقال له كن للود حافظا وان لم تجد محافظا وللخل واصلا وان لم تجد مواصلا وقال رجل من اياد ليزيد بن المهلب

اذا لم اجاوز عن اخ عند زلة ● فلست غدا عن عثرتي متجاوزا
وكيف يرجى البعيد لنفعه ● اذا كان عن مولاك خيرك عاجزا
ظلمت امرا كلفته فوق وسعه ● وهل كانت الاخلاق الا غرائزا

وقال ابو مسعود كاتب الرضا كنا في مجلس الرضا فشكا رجل اخاه فانشا الرضا يقول

اعذر اخاك على ذنوبه ● واستر وغط على عيوبه
واصبر على بهت السفيه ● وللزمان على خطوبه
ودع الجواب تفضلا ● وكل الظلوم الى حسيبه
واعلم بان الحلم عند الغي ● احسن من ركوبه

حكي عن بنت عبد الله بن مطيع انها قالت لزوجها طلحة بن عبد الله ابن عوف الزهري وكان اجود قريش في زمانه ما رايت قوما الوم من اخوانك قال لها مه ولم قلت ذلك قالت اراهم اذا ايسرت لزموك واذا اعسرت تركوك قال هذا من كرمهم ياتوننا في حال القوة بنا عليهم ويتركوننا في حال الضعف منا عنهم انظر كيف تاول بكرمه هذا التاويل حتى جعل قبيح فعلهم حسنا وظاهر غدرهم وفاء وهذا محض الكرم ولباب الفضل وبمثل هذا تلزم ذوي الفضل ان يتاولوا لهفوات اخوانهم وقد قال بعض الشعراء

اذا ما بدت من صاحب لك زلة ● فكن انت محتالا لزلته عذرا
احب الفتى ينفي الفواحش سمعه ● كان به عن كل فاحشة وقرا

والداعي الى هذا التاويل شيئان التغافل الحادث عن الفطنة

والتألف الصادر عن الوفاء • وقد قال أكثم بن صيفي من تشدد
نفر ومن تراخى تألف والشرف في التغافل • وقال شبيب بن
شيبة الأديب العاقل هو الفطن المتغافل • وقال بعض الحكماء
وجدت أكثر أمور الدنيا لا تجوز إلا بالتغافل • وقال أبو تمام الطائي

ليس الغبي بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي

وقال أبو العتاهية

إن في صحة الإخاء من الناس وفي خلة الوفاء لقلة
فالبس الناس ما استطعت على النقص وإلا لم تستقم لك خلة
عش وحيدا إن كنت لا تقبل العذر وإن كنت لا تجاوز زلة
من أب واحد وأم خلقنا غير أنا في المال أولاد علة

ومما يتبع هذا الفصل تألف الأعداء بما يثنيهم عن البغضة ويعطفهم
على المحبة وذلك قد يكون بصنوف من البر ويختلف بحسب اختلاف
الأحوال فإن ذلك من سمات الفضل وشروط السودد فإنه ما
أحد يعدم عدوا ولا يفقد حاسدا وبحسب وفور النعمة تكثر
الأعداء والحسدة كما قال البحتري

ولن يستبين الدهر موضع نعمة إذا أنت لم تدلل عليها بحاسد

فإن أغفل تألف الأعداء مع وفور النعمة وظهور الحسد توالى عليه

من مكر حيلهم وبادرة سفههم ما تصير به النعمة غراما والدعة
ملاما • وروى ابن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم • رأس العقل بعد الإيمان بالله التودد
إلى الناس • وقال سليمان بن داود عليهما السلام لابنه لا تستكثر
أن يكون لك ألف صديق فالألف قليل ولا تستقل أن يكون لك
عدو واحد فالواحد كثير فنظم ابن الرومي هذا المعنى فقال

تكثر من الإخوان ما استطعت إنهم بطون إذا استنجدتهم وظهور
وليس كثيرا ألف خل وصاحب وإن عدوا واحدا لكثير

وقيل لعبد الملك بن مروان ما الذي أفدت في ملكك هذا قال
مودات الرجال • وقال بعض الحكماء من علامة الإقبال
اصطناع الرجال • وقال بعض البلغاء من استصلح عدوه
زاد في عدده ومن استفسد نقص من عدده • وقال بعض الأدباء
صديقه
العجب ممن يطرح عاقلا كافيا لما يضمر من عداوته ويصطنع
عاجزا جاهلا لما يظهر من محبته وهو يقدر على استصلاح من
يعاديه بحسن صنايعه وأياديه • وقال عبد الله بن الزبير ثلاثة
أبيات جامعة لكل ما قالته العرب وهي للأفوه

بلوت الناس قرنا بعد قرن فلم أر غير ختال وقالي

وذقت مرارة الأشياء جمعاً فما طعم أمر من السؤال
ولم أر في الخطوب أشد هولاً وأصعب من معاداة الرجال

وقال القاضي التنوخي

ألق العدو بوجه لا قطوب به يكاد يقطر من ماء البشاشات
فأحزم الناس من يلقى أعاديه في جسم حقد وثوب من مودات
الرفق يمن وخير القول أصدقه وكثرة المزح مفتاح العداوات

وأنشدت عن الربيع للشافعي رضي الله عنه

لما عفوت ولم أحقد على أحد أرحت نفسي من هم العداوات
إني أحيي عدوي عند رؤيته كأنما قد حشا قلبي محبات
فأظهر البشر للإنسان أبغضه لأدفع الشر عني بالتحيات
الناس داء ودواء الناس قربهم وفي اعتزالهم قطع المودات

وليس وإن كان بنا ألف الأعداء مأموراً وإلى مقاربتهم مندوباً ينبغي أن يكون إليهم راكناً وبهم واثقاً بل يكون منهم على حذر ومن مكرهم على تحذر فإن العداوة إذا استحكمت في الطباع صارت طبعاً لا يستحيل وجبلة لا تزول وإنما يستكف بالتألف إظهارها ويستدفع به إضرارها كالنار يستدفع بالماء إحراقها ويستفاد به إنضاجها وإن كانت محرقة بطبع لا يزول وجوهر لا يتغير. وقال ابن نباته

[هامش: فاضمر]

وإذا عجزت عن العدو فداره وامزح له إن المزاح وفاق
فالنار بالماء الذي هو ضدها تعطي النضاج وطبعها الإحراق

فصل وأما البر وهو الخامس من أسباب الألفة فلأنه يوصل إلى القلوب ألطافاً ويثنيها محبة وانعطافاً ولذلك ندب الله تعالى إلى التعاون به وقرنه بالتقوى له فقال تعالى وتعاونوا على البر والتقوى لأن في التقوى رضا الله تعالى وفي البر رضا الناس ومن جمع رضا الله ورضا الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته. وروى عن الأعمش عن خيثمة عن ابن مسعود قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول جبلت القلوب على من أحسن إليها وجبلت على بغض إليها. وحكي أن الله تعالى أوحى إلى داود ذكّر عبادي إحساني إليهم ليحبوني فإن عبادي لا يحبون إلا من أحسن إليهم. وأنشدني أبو الحسن بن أبي الحارث الهاشمي

الناس كلهم عيال الله تحت ظلاله فأحبهم طراً إليه أبرهم بعياله

والبر نوعان صلة ومعروف فأما الصلة فهي التبرع ببذل المال في جهات محمودة لغير غرض مطلوب وهذا يبعث عليه سماحة النفس وسخاؤها ويمنع منه شحها وإباؤها قال الله تعالى ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون. وروى

[هامش: وتثبتها]
[هامش: يحب]

محمد بن ابرهيم التيمي عن عروة بن الزبير عن النبي عليه السلام قال السخي قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار • وقال صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم رفع الله عن ابيك العذاب الشديد لسخاء نفسه • وبلغه عن الزبير امساك فجذب عمامته اليه وقال يا رسول الله اليك والى غيرك يقول انفق انفق عليك ولا توك اوك عليك • وروى ابو الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من يوم غربت فيه شمسه الا وملكان يناديان اللهم اعط منفقا خلفا وممسكا تلفا • وانزل في ذلك القرآن فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى • واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى • وقال ابن عباس من اعطى فيما امر واتقى فيما حظر وصدق بالحسنى يعني بالخلف من عطائه فعند ذلك قال ابن عباس سادة الناس في الدنيا الاسخياء وفي الآخرة الانبياء • وقيل في منثور الحكم الجود عز موجود • وقد قيل في المثل سودد بلا جود كملك بلا جنود • وقال بعض الحكماء الجود حارس الاعراض • وقال بعض الادباء من جاد ساد ومن اضعف ازداد • وقال بعض البلغاء جود الرجل

زبير انا

يحببه الى الاضداد وبخله يبغضه الى الاولاد • وقال بعض الفصحاء خير الاموال ما استرق حرا وخير الاعمال ما استحق شكرا وقال صالح بن عبد القدوس

ويظهر عيب المرء في الناس بخله ... ويستره عنهم جميعا سخاؤه •

تغط باثواب السخاء فانني ... ارى كل عيب والسخاء غطاؤه •

وحد السخاء بذل ما يحتاج اليه عند الحاجة وان يوصل الى مستحقه بقدر الطاقة وتدبير ذلك مستصعب ولعل بعض من يحب ان ينسب الى الكرم يذكر حد السخاء ويجعل تقدير العطية فيه نوعا من البخل وان الجود بذل الموجود وهذا تكلف يفضي الى الجهل بحدود الفضائل ولو كان الجود بذل الموجود لما كان للسرف موضع ولا للتبذير موقع وقد ورد الكتاب بذمهما وجاءت السنة بالنهي عنهما واذا كان السخاء محدودا فمن وقف على حده سمي كريما وكان للحمد مستحقا ومن قصر عنه كان بخيلا وكان للذم مستوجبا قال الله تعالى ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيمة • وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اقسم الله بعزته لا يجاورني بخيل • وعنه صلى الله عليه

وسلم انه قال طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء. وسمع
صلى الله عليه وسلم رجلا يقول الشحيح اعذر من الظالم فقال
لعن الله الشحيح ولعن الله الظالم. وقال بعض الحكماء البخل
جلباب المسكنة. وقال بعض الادباء البخيل ليس له خليل
وقال بعض البلغاء البخيل حارس نعمته وخازن ورثته وقال
الشاعر اذا كنت جماعا للمال ممسكا فانت عليه خازن وامين
تؤديه مذموما الى غير حامد فياكله عفوا وانت دفين
وتظاهر بعض ذوي النباهة بحب الثناء مع امساك فيه فقال
الشاعر فيه اراك تؤمل حسن الثناء ولم يرزق الله ذاك البخيلا
وكيف يسود اخو بطنة يمن كثيرا ويعطي قليلا
وقد بينا في حب الثناء وحب المال ان حب الثناء يبعث على البذل
وحب المال يمنع منه فان ظهرا كان حب الثناء كاذبا وقد قال
بعض الشعراء جمعت امرين ضاع الحزم بينهما تيه الملوك واخلاق المماليك
اردت شكرا بلا بر ولا صلة لقد سلكت طريقا غير مسلوك
ظننت عرضك لم تقرع بقارعة وما اراك على حال بمتروك
لو سبقنا الى مال حظيت به لما سبقت الى شيء سوى النوك
وقد يحدث عن البخل من الاخلاق المذمومة وان كان ذريعة الى كل

مذمة اربعة اخلاق ناهيك بها ذما وهي الحرص والشره وسوء
الظن ومنع الحقوق. فاما الحرص فهو شدة الكدح والاسراف
في الطلب. واما الشره فهو استقلال الكفاية والاستكثار لغير
حاجة وهذا فرق ما بين الحرص والشره. وقد روى عن العلاء
ابن جرير عن ابيه عن سالم بن مسرور قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم من لا يجزيه من العيش ما يكفيه لم يجد ما عاش ما
يغنيه. وقال بعض الحكماء الشره من غرائز اللوم. واما سوء
الظن فهو عدم الثقة بمن هو لها اهل فان كانت بالخالق كانت
شكا يؤول الى ضلال وان كانت بالمخلوق كانت استخانة يصير
بها مختانا وخوانا لان ظن الانسان بغيره بحسب ما يراه من
نفسه فان وجد فيها خيرا ظنه في غيره وان راى منها سوءا اعتقده
في الناس. وقد قيل في المثل كل اناء ينضح بما فيه فان قيل
فقد تقدم من قول الحكماء ان من الحزم سوء الظن قيل
تاويله قلة الاسترسال اليهم لا اعتقاد السوء فيهم. واما منع
الحقوق فان نفس البخيل لا تسمح بفراق محبوبها ولا انقياد الى
ترك مطلوبها فلا تذعن لحق ولا تجيب الى انصاف واذا آل البخيل
الى ما وصفنا من هذه الاخلاق المذمومة والشيم اللئيمة لم يبق

معه خير مرجو ولا صلاح مأمول. وقد روي عن النبي صلى الله
عليه وسلم أنه قال للأنصار من سيدكم قالوا الحر بن قيس على
بخل فيه. فقال صلى الله عليه وسلم وأي داء أدوى من البخل
قالوا وكيف ذلك يا رسول الله قال إن قوما نزلوا بساحل البحر
فكرهوا لبخلهم نزول الأضياف بهم فقالوا ليبعد الرجال منا عن
النساء حتى يعتذر الرجال إلى الأضياف ببعد النساء وتعتذر
النساء ببعد الرجال ففعلوا وطال ذلك بهم فاشتغل الرجال
بالرجال والنساء بالنساء. فأما السرف والتبذير فإن من زاد
على حد السخاء فهو مسرف ومبذر وهو بالذم جدير قال الله تعالى
ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين. وروي عن النبي صلى الله عليه
وسلم أنه قال ما عال مقتصد. وقال المأمون لا خير في السرف

ولا سرف في الخير

وقال بعض الحكماء صديق الرجل قصده وسرفه عدوه. وقال
بعض البلغاء لا كثير مع إسراف ولا قليل مع احتراف
واعلم أن السرف والتبذير قد يفترق معناهما فالسرف هو
الجهل بمقادير الحقوق والتبذير هو الجهل بمواقع الحقوق وكلاهما
مذموم وذم التبذير أعظم لأن المسرف يخطئ في الزيادة والمبذر
يخطئ في الجميع ومن جهل مواقع الحقوق ومقاديرها بماله

واخطاها فهو كمن جهلها بتعاطيها فتعداها وكما أنه بتدبير قد يضع
الشيء في غير موضعه فهكذا يعتدل به عن موضعه لأن المال أقل
من أن يوضع في كل موضع من حق وغير حق. وقد قال معوية
رضي الله عنه كل سرف فبإزائه حق مضيع. وقال بعض الحكماء
الخطأ في إعطاء ما لا ينبغي ومنع ما ينبغي واحد. وقال سفين
الثوري رحمه الله الحلال لا يحتمل السرف فليس نعم السخاء
بذل ما في يده حتى يسخو نفسه عما بيد غيره فلا يميل إلى طلب ولا
يكف عن بذل. وقد حكي أن الله تعالى أوحى إلى إبرهيم عليه السلم
أتدري لم اتخذتك خليلا قال لا يا رب قال لأني رأيتك تحب أن تعطي
ولا تحب أن تأخذ. وروى سهل بن سعد الساعدي قال أتى
رجل إلى النبي عليه السلم قال يا رسول الله أخبرني بعمل يحبني الله
عليه ويحبني الناس فقال ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في
أيدي الناس يحبك الناس. وقال أيوب السجستاني لا ينبل الرجل
حتى يكون فيه خصلتان العفة عن أموال الناس والتجاوز عنهم
وقيل لسفين ما الزهد في الدنيا قال الزهد في الناس. وكتب
كسرى إلى ابنه هرمز يا بني استقلل الكثير مما تعطي واستكثر
القليل مما تأخذ فإن قرة عيون الكرام في الإعطاء وسرور اللئام

في الأخذ ولا تعدّ الشحيح أمينا ولا الكذّاب حرّا فإنه لا عفّة مع الشح ولا مروءة مع الكذب. وقال بعض الحكماء: السخاء سخاءان فأشرفهما سخاؤك عما بيد غيرك. وقال بعض البلغاء: السخاء أن تكون بمالك متبرّعا وعن مال غيرك متورّعا. وقال بعض الصلحاء: الجود غاية الزهد والزهد غاية الجود. وقال بعض الشعراء:

إذا لم تكن نفس الشريف شريفة ... وإن كان ذا قدر فليس له شرف

فصل والبذل على وجهين: أحدهما ما ابتدأ به الإنسان من غير سؤال، والثاني ما كان عن طلب وسؤال. فأما المبتدئ به فهو أطبعهما سخاء وأشرفهما عطاء. سئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن السخاء فقال: ما كان منه ابتداء، فأما ما كان منه عن مسألة فحياء وتكرّم. وقال بعض الحكماء: أجلّ النوال ما وصل قبل السؤال. قال الشاعر:

وفتى خلا من ماله ... ومن المروءة غير خال

أعطاك قبل سؤاله ... فكفاك مكروه السؤال

وهذا النوع من البذل قد يكون لأحد تسعة أسباب. فالسبب الأول أن يرى خلّة يقدر على سدّها وفاقة يتمكن من إزالتها فلا يدعه الكرم أو التدين إلا أن يكون زعيم صلاحها وكفيل نجاحها رغبة في الأجر إن تديّن أو في الشكر إن تكرّم. وقال أبو العتاهية:

ما الناس إلا آلة معتملة ... للخير والشر جميعا فعله

والسبب الثاني أن يرى في ماله فضلا عن حاجته وفي يده زيادة على كفايته فيرى انتهاز الفرصة بها فيضعها حيث يكون له ذخرا معدّا وغنما مستجدّا. فقد قال الحسن البصري: ما أنصفك من كلّفك إجلاله ومنعك ماله. وقيل لهند بنت الحسن: من أعظم الناس في عينك؟ قالت: من كان لي إليه حاجة. وقال الشاعر:

وما ضاع مال ورّث الحمد أهله ... ولكنّ أموال البخيل تضيع

والسبب الثالث أن يكون بتعريض نبّه عليه بفطنته وإشارة يستدل عليها بكرمه فلا يدعه الكرم أن يتغافل ولا الحياء أن يكفّ، كالذي حكي أن رجلا سارّ بعض الولاة فقال: ما أهزل برذونك! فقال: يده مع أيدينا، فوصله اكتفى بهذا التعريض الذي بلغ ما لا يبلغه صريح السؤال. قال الثمر بن صفي: السخاء حسن الفطنة واللؤم سوء التغافل. وحكي أن عبيد الله بن سليمان لما تقلّد وزارة المعتضد كتب إليه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر:

أبى دهرنا إسعافنا في نفوسنا ... وأسعفنا فيمن نحبّ ونكرم

فقلت له نعماك فيهم أتمّها ... ودع أمرنا إنّ المهمّ المقدّم

فقال عبيد الله: ما أحسن ما شكا أمره بين أضعاف مدحه

وقضى حاجته ولذلك قال بعض الشعراء

ومن لا يرى من نفسه متذكرا لها • رأى طلب المستنجز بن ثقيلا

والسبب الرابع أن يكون ذلك رغابة لبدا أو جزاء على صنيعة فيرى تأدية الحق عليه طوعا إما أنفة وإما شكرا ليكون من أسر الامتنان طليقا ومن رق الإحسان عتيقا • وقد قال بعض الحكماء الإحسان رق والمكافاة عتق وقال أبو العتاهية

وليست أيادي الناس عندي غنيمة • ورب يد عندي أشد من الأسر

والسبب الخامس أن يؤثر الإذعان بتقديمه والإقرار بتعظيمه ينقطبدا لرياسة هو لها محب وعلى طلبها مكب • وقد قال الشاعر

حب الرياسة داء لا دواء له • وقل ما تجد الراضين بالقسم

فتستصعب عليه إجابة النفوس لو طوعا إلا بالاستعطاف وإذعانها إلا بالرغبة والإسعاف • وقال بعض الأدباء بالإحسان تغتبط الإنسان وقد قال بعض البلغاء من بذل ماله أدرك آماله وقد قال بعض الشعراء

أترجو أن تسود ولا تعنى • وكيف يسود ذو الدعة البخيل

ولست تغني

والسبب السادس أن يستدفع به سطوة الأعداء ويستكف به نفار الخصماء ليصيروا له بعد الخصومة أعوانا وبعد العداوة إخوانا إما الصيانة عرض وإما الحراسة مجد • وقد قال أبو تمام الطائي

فلم تجتمع شرق وغرب لقاصد • ولا المجد في كف امرئ والدراهم

ولم أر كالمعروف تدعى حقوقه • مغارم في الأقوام وهي مغانم

وقال بعض الأدباء من عظمت مرافقه أعظمه مرافقه

والسبب السابع أن يرب به سالف صنيعة أولاها ويراعي به قديم نعمة أسداها كيلا ينسى ما أولاه أو يضاع ما ابتداه فإن مقطوع البر ضائع ومهمل الإحسان ضائل • وقد قال الشاعر

وسمت أمرا بالعرف ثم أطرحته • ومن أفضل الأشياء رب الصنائع

وقد قال محمد بن داود الأصفهاني

بدأت بنعمى أو جنيت بحرمة • عليك فعد بالفضل فالعود أحمد

والسبب الثامن المحبة التي يؤثرها المحبوب على ماله فلا يضن عليه بمرغوب ولا ينفس عليه بمطلوب للذة التي هي عنده أحظى وإلى نفسه أشهى لأن النفس إلى محبوبها أشوق وإلى ما يلائمها أسبق • وقد قال الشاعر

وما زرتكم عمدا ولكن ذا الهوى • إلى حيث يهوى القلب تهوي به الرجل

وهذا وإن دخل في أقسام العطاء فخارج عن حد السخاء وهكذا الخامس والسادس من هذه الأسباب وإنما ذكرناها لدخولها في أقسام العطاء • والسبب التاسع وليس بسبب أن يفعل ذلك لغير سبب وإنما هي منه سجية قد فطر عليها وشيمة قد طبع بها فلا يميز

بين مستحق ومحروم ولا يفرق بين محمود ومذموم كما قال بشار

لئن يعطيك للرجاء ولا الخوف ولكن يلذ طعم العطاء

وقد اختلف الناس في مثل هذا هل يكون منسوبا الى السخاء فيحمد
أم خارجا عنه فيذم فقال قوم هو السخي طبعا والجواد كرما وهو
احق من كان به ممدوحا واليه منسوبا قالوا والتمييز شطر البخل
والبذل لسبب الجاء وضرورة كما قال ابو تمام

من غير ما سبب يدني كفى سببا للحر ان يجتدي حرا بلا سبب

وقد قال الحسن بن سهل اذا لم اعط الا مستحقا فكاني اعطيت
غريما وقال الشرف في السرف فقيل له لا خير في السرف
فقال ولا سرف في الخير وقال الفضل بن سهل العجب ممن يرجو
من فوقه كيف يحرم من دونه وقال بشار

وما الناس الا صاحبان فمنهم سخي ومغلول اليدين من البخل

فسامح بذا ما امكنتك فانما تقل وتثري والعواذل في شغل

وقال اخرون هذا خارج من السخاء المحمود الى السرف والتبذير
المذموم لان العطاء اذا كان بغير سبب كان المنع لغير سبب لان
المال يقل عن الحقوق ويقصر عن الواجبات فاذا اعطى غير مستحق
فقد يمنع مستحقا وما يناله من منع المستحق اكثر مما يناله من الحمد

هذا — بدا — الذم

باعطاء غير المستحق وحسبك ذما ممن كانت افعاله تصدر عن
غير تمييز وتوجد لغير علة وقد قال الله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة
الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا فنهى
عن بسطها سرفا كما نهى عن قبضها بخلا فدل على استواء الامرين
ذما وعلى اتفاقهما لوما وقال الشاعر

وكان المال يأتينا فكنا نبذره وليس لنا عقول

فلما ان تولى المال عنا عقلنا حين ليس لنا فضول

قالوا ولان العطاء والمنع اذا كانا لغير علة افضيا الى ذم الممنوع
وقلة شكر المعطى اما الممنوع فلانه قد فضل عليه من ساواه
واما المعطى فلانه وجد ذلك اتفاقا وربما امل بالاتفاق اضعافا
فصار ذلك مفضيا الى اجتلاب الذم واحباط الشكر وليس فيما افضى
الى واحد منهما خير يرجى وهو جدير ان يكون شرا يتقى ولذلك
قيل منع الجميع ارضى للجميع وعطاء يكون المنع ارضى منه خسران
مبين فاما اذا كان البذل والعطاء عن سؤال وطلب فشروطه
معتبرة من وجهين احدهما في السائل والثاني في المسؤول
فاما ما كان معتبرا في السائل فثلثة شروط فالشرط الاول
ان يكون السؤال لسبب والطلب لموجب فان كان لضرورة ارتفع

عنه الحرج وسقط عنه اللوم • وقد قال بعض الحكماء الضرورة
توقح الضرورة • وقال بعض الشعراء

ألا قبح الله الضرورة إنها تكلف أعلى الخلق أدنى الخلائق
وبسم ذو الاتساع فانه يبين فضل السبق من غير سابق

وقال الكميت اذا لم يكن الا الاسنة مركب فلا رأى للمضطر الا ركوبها •

فاذا ارتفعت الضرورة ودعت الحاجة فما هو أولى الامرين ان يكون
وان جاز ان لا يكون فالنفس السامحة تغلب الحاجة وتسمح في
الطلب وتراعي به الحال وأسقط به الامر وان نالت بذلته وحنى
وهن وناول صاحبها قول البحتري

ما استقام

وربما كان مكروه الامور الى محبوبها سببا ما مثله سبب

والنفس الشريفة تطلب الصيانة وتراعي النزاهة وتحمل من الضر
ما احتملت ومن الشدة ما أطاقت ليبقى تجملها ويدوم تصونها فيكون
كما قال الشاعر

وقد يكتسي المرء حسن الثياب ومن دونها حاله مضنيه •
كما يكتسي خده حمرة وعلتها ورم في الرئه •

ولا يرى ان يتدنس بمطالب الشوم ومطالع اللوم فان من البهائم
الوحشية ما يأبى ذلك ويأنف منه • قال الشاعر

ولبس الليث من جوع بغاد على جيف يحيط بها كلاب

فكيف بالانسان الفاضل الذي هو أكرم الحيوان جنسا وأشرفه
نفسا هل يحسن به أن يرى لوحشي البهائم عليه فضلا • قال الشاعر

على كل حال يا ذل المرء زاده على البؤس والضراء والحدثان

والفضل في مثل هذا ما قيل لبعض الزهاد لو سألت التجار لأعطاك
فقال والله ما أسأل الدنيا من يملكها فكيف من لا يملكها ووصف
بعض الشعراء قوما فقال

اذا افتقروا أعضوا على الصبر خشية وان أيسروا عادوا سراعا الى الفقر

وأما ان سأل من غير ضرورة مسته ولا حاجة دعت فذلك صريح
اللوم ومحض الدناءة • وقيل ما أجد مثله ملحوظا ومولا محظوظا
لان الحرمان يقاده الى أضيق الارزاق واللوم ساقه الى أخبث
المطاعم فلم يبق لوجهه ماء للاراقة ولا دلاء للاذاقة كما قال
عبد الصمد بن المعذل لأبي تمام الطائي

أنت بين اثنتين تبرز للناس وكلتاهما بوجه مذال
لست تنفك طالبا لوصال من حبيب أو طالبا لنوال
أي ماء لحر وجهك يبقى بين ذل الهوى وذل السؤال

ولو استقبح العار وأنف من الذل لوجد غير السؤال مكسبا يمونه
ولقدر على ما يقله ويصونه • وقد قال الشاعر

لا تطلبن معيشة بتذلل فلربما يأتيك رزقك المقدور
واعلم بانك آخذ غير الذي هو في الكتاب محبر مسطور
والشرط الثاني من شروط السؤال ان يضيق الزمان عن ارجائه ويقصر الوقت عن ابطائه فلا يجد لنفسه في التأخر فسحة ولا في التمادي مهلة فيصير من المعذورين وداخلا في عداد المضطرين فاما والوقت متسع والزمان ممتد فتعجيل السؤال لؤم وقنوط. قال الشاعر
ابى لي اغضاء الجفون على القذى يقيني ان لا عسر الا مفرج
الا ربما ضاق الفضاء باهله وامكن من بين الاسنة مخرج
والشرط الثالث اختيار المسؤول ان يكون مرجوا للاجابة اما لحرمة في السائل او لكرم في المسؤول فان سأل لئيما لا يراعي حرمة ولا يولي مكرمة فهو في اختياره ملوم وفي سؤاله محروم. وقد قال بعض الحكماء المخذول من كانت له الى اللئام حاجة. وقال بعض البلغاء اذل من اللئيم سائله واقل من البخيل نائله. وقال بعض الشعراء
من كان يأمل ان يرى من ساقط امرا سنيا
فلقد رجا ان يجتني من عوسج رطبا جنيا
واما الشروط المعتبرة في المسؤول فثلاثة فالشرط الاول ان يكتفي بالتعريض ولا يلجئ الى السؤال الصريح ليصون السائل عن ذل

يقيني

الطلب فان الحال ناطقة والتعريض كاف. كما قال الشاعر
اقول وستر الدجى مسبل كما قال حين شكا الضفدع
كلامي ان قلته ضائري وفي الصمت حتفي فما اصنع
وربما فهم المسؤول بالاشارة فلجأ الى التصريح بالعبارة تهجينا للسائل لتخجل فيمسك ويستحيي فيكف فيكون كما قال ابو تمام
من كان مفقود الحياء فوجهه من غير بواب له بواب
والشرط الثاني ان يتلقى بالبشر والترحيب ويقابل بالطلاقة والتقريب ليكون مشكورا ان اعطى ومعذورا ان منع. وقد قال بعض العلماء. الق صاحب الحاجة بالبشر فان عدمت شكره لم تعدم عذره. حكى ابن النكل ان ابا بكر بن دريد قصد بعض الوزراء في حاجة فلم يقضها وظهر له ضجر فقال
لا تدخلنك ضجرة من سائل فلخير دهرك ان ترى مسؤولا
لا تجبهن بالرد وجه مؤمل فبقاء عزك ان ترى مأمولا
تلقى الكريم فتستدل ببشره وترى العبوس على اللئيم دليلا
واعلم بانك عن قليل صائر خبرا فكن خبرا يروق جميلا
والشرط الثالث تصديق الامل فيه وتحقيق الظن به ثم اعتبار حاله وحال سائله فانهما لا يخلوان من اربعة احوال فالحال

منه

ان يكون السايل مستوجبا والمسؤول متمكنا فالاجابة ها هنا
تستحق كرما وتلزم مروة وليس الى الرد سبيل الا لمن استولى عليه
البخل وهان عليه الذم فيكون كمن قال فيه عبد الرحمن بن حسان رحمه الله

اني رايت من المكارم حسبكم ❁ ان تلبسوا خز الثياب وتشبعوا ❁

واذا تذوكرت المكارم مرة ❁ في مجلس انتم به فتقنعوا ❁

ونعوذ بالله ممن حرم ثروة ماله ومنع حسن حاله ان يكون مستودعا
في صنيع مشكور وبر مذخور • قيل لبخيل لم احبست مالك قال
للنوايب قيل فقد نزلت بك • وقال بعض الشعراء

مالك من مالك الا الذي ❁ قدمت فابذل طايعا مالكا

تقول اعمالي ولو فتشوا ❁ رايت اعمالك اعمى لكا ❁

ثم قد اسقط نفسه ورفع اسباب شكره فصار بان لا حق له مذموما
كمشكور وماثوما كماجور ❁ قال ابو العتاهية ❁

جزى البخيل علي صالحة ❁ اذ لم يثقل بها ظهري ❁

ما فاتني خير امري وضعت ❁ عني يداه مؤونة الشكر ❁

واذا لم يكن الى الرد في مثل هذه الحال سبيل نظر فان كان التاخير مضرا
عجل بذله وقطع مطله وكانت اجابته فعلا وقوله عملا وقد قال
بعض الحكماء من مروة المطلوب اليه ان لا يلجي الى الالحاح عليه

❁ وقال محمد بن حازم ❁

ومنتظر سوالك بالعطايا • واشرف من عطاياه السوال •

اذا لم ياتك المعروف طوعا • فدعه فالتنزه عنه مال •

وان كان في الوقت مهلة وفي التاخير فسحة فقد اختلفت مذاهب
الفضلاء فيه فذهب بعضهم الى ان الاولى تعجيل الوعد قولا ثم يتعقبه
الانجاز فعلا ليكون السايل مسرورا بتعجيل الوعد راجيا للانجاز
ويكون المسؤول مرهونا بالكرم ملحوظا بالوفاء • وقد روي عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال العدة عطية • وقال الفضيل
ابن سهل لرجل سأله حاجة اعدك اليوم واحبوك غدا بالانجاز
لتذوق حلاوة الامل وازين ثوب الوفاء • ووعد يحيى بن خالد
رجلا بحاجة سأله اياها فقيل له تعد وانت قادر فقال ان الحاجة
اذا لم يتقدمها وعد ينتظر صاحبها نجحه لم يجد سرورها لان الوعد
طعم والانجاز طعام وليس من فاجاه الطعام كمن تجد رائحته
ويتطعم فدع الحاجة تختمر بالوعد ليكون لها طعم عند المصطنع
اليه • وقال بعض البلغاء اذا احسنت القول فاحسن الفعل
ليجتمع لك مزية اللسان وثمرة الاحسان ولا تقل ما لا تفعل
فانك لا تخلو في ذلك من ذنب تكتسبه او عجز تلتزمه • ومنهم

من ذهب الى تعجيل البذل فعلا من غير وعد اولى وتقديمه من غير
ترقب ولا انتظار اهنى وانما يقدم الوعد واحد من رجلين اما معذور
ينتظر واما شحيح يروض نفسه بوطئه وليس للوعد غير هاتين
الحالتين وجه يصح ولا راى يصح مع ما يغير الليل والنهار
ويتقلب به الحال من يسار واعسار ٥ وقال بعض الشعراء

يا ايها الملك المقدم امره شرقا وغربا ٥ امنن بنجح صحيفتي ما دام هذا الطين رطبا
واعلم بان جفافه مما يعيد السهل صعبا

قالوا ولان في الرجوع عنه من الانحسار وفي توقع الوعد من مرارة الانتظار
وفي العود اليه من ذلة الاقتضاء وذلة الاجتداء ما يكدر بره ويوهن
شكره وقد قال الشاعر

ان الحوائج ربما ازرى بها عند الذي تقضى له تطويلها
فاذا ضمنت لصاحب لك حاجة فاعلم بان تمامها تعجيلها

والحال الثانية ان يكون السائل غير مستوجب والمسؤول غير
متمكن ففي الرد فسحة وفي المنع عذر غير انه يلين عند الرد لينا يقيه
الذم ويظهر عذرا يدفع عنه اللوم فليس كل مقل يعرف ولا كل
معذور ينصف ٥ وقال ابو العتاهية يصف الناس

ابا رب ان الناس لا ينصفونني فكيف وان انصفتهم ظلموني
وان كان لي شيء تصدوا لاخذه وان جئت ابغي شيهم منعوني
وان نالهم بذلي فلا شكر عندهم وان انا لم ابذل لهم شتموني
وان طرقتني نكبة فكهوا بها وان صحبتني نعمة حسدوني
سامنع قلبي ان يحن اليهم واحجب عنهم ناظري وجفوني
واقطع ايامي بيوم سهولة اقضي بها عمري ويوم حزوني
الا ان اصفى العيش ما طاب ربه وما نلته في لذة وسكون

والحال الثالثة ان يكون السائل مستوجبا والمسؤول غير متمكن
فيأتي بالحمل على النفس ما امكن من يسير يسد خلته ويدفع مذمته
او يوضح من اعذار المعوزين وتوجع المتالمين ما يجعله في المنع
معذورا وبالتوجع مشكورا كما قال ابو نصر العتبي

الله يعلم اني لست ذا بخل ولست ملتمسا في البخل لي عللا
لكن طاقة مثلي غير خافية والنمل يعذر في القدر الذي حملا

وربما حسن حدوث العجز بعد تقدم القدرة على فوت الصنيعة
وزوال العادة حتى صار انضا جسدا وازيد كمدا كما قال الشاعر

فكنت كبازي السوء قص جناحه يرى حسرات كلما طار طائر
يرى طائرات الجو يخفقن حوله فيذكر اذ ريش الجناحين وافر

والحال الرابعة ان يكون السائل غير مستوجب والمسؤول متمكنا

وعلى البذل قادرا فلينظر فان خاف بالرد قدحا في عرض او قبح هجاء
ممض كان الى البذل مندوبا وباصابته لا جودا فقد روي عن النبي
عليه السلم انه قال ما وقى به المرء صدقة وان امن ذلك وسلم
منه فمن الناس من غلب المسألة وامر بالبذل لئلا يقابل الرجاء
بالخيبة والامل بالياس لما فيه من اعتياد الرد واستسهال
المنع فكما ان اعتياد البذل مفض الى السخاء كذلك اعتياد المنع
مفض الى الشح وانشد الاصمعي عن الكسائي

كانك في الكتاب وجدت لا * محرمة عليك فلا تحل
فما اذا اعطيت مالا * اكثر من سماحك ام تقل
اذا حضر الشتاء فانت شمس * وان حضر المصيف فانت ظل

ومن الناس من اعتبر الاسباب وغلب حال السائل وندب الى المنع
اذا كان العطاء في غير حق ليتقوى على الحقوق اذا عرضت ولا يعجز
عنها اذا لزمت وتعينت وقد قال بعض الشعراء

لا تجد بالعطاء في غير حق * ليس في منع غير ذي الحق بخل
انما الجود ان تجود على من * هو للجود والندى منك اهل

فاما من اجاب السؤال ووعد بالبذل والنوال فقد صار بوعده
مرهونا وصار وفاؤه بالوعد مقرونا ولا اعتبار باستحقاق السائل

عرضه فهو

بعد الوعد ولا سبيل الى مراجعة نفسه في الرد فيستوجب مع
ذم المنع لوم المخلف ومقت الغادر وهجنة الكذوب ثم لا سبيل
الى مطله بعد الوعد لما في المطل من تكدير الصنع ومحق الشكر
فالعرب تقول في امثالها المطل احد المنعين والياس احد النجحين
وقال بشار بن برد

اظلت علينا منك يوم غمامة * اضاءت لنا برقا وابطا رشاشها
فلا غيمها يجلى فييأس طامع * ولا غيثها يأتي فيروى عطاشها

ثم اذا انجز وعده واوفى عهده لم يتبع نفسه ما اعطى واسدى
اذا كانت يده العليا فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم اليد
العليا خير من اليد السفلى وقال الشاعر

وانك لا تدري اذا جاء سائل * اانت بما تعطيه ام هو اسعد
عسى سائل ذي حاجة ان منعته * من اليوم سؤلا ان يكون له غد

ولكن من سرور اذا كانت الارزاق مقدرة ان يكون على يده جاريه
ومن جهته واصلة لا تشتغل عنه بمنع ولا تتحول عنه بياس
حكي ان رجلا شكا كثرة عياله الى بعض الزهاد فقال انظر
من كان منهم ليس رزقه على الله فحوله الى منزلي وقال ابن سيرين
لرجل كان يأتيه على دابة ففقد الدابة ما فعل برذونك قال

يوما

اشتدت علي مؤونته فبعته فقال افتراه خلف درهمه عندك • قال ابن الرومي

ان الله غير مرتجع ما كان من نعيم وغير مائل ماء

ان الله بالبرية لطفا سبق الامهات والآباء

ثم ليكن غالب عطائه لله تعالى واكثر قصده ابتغاء ما عند الله
كالذي حكاه ابو بكر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان اعرابيا
اتاه فقال

يا عمر الخير جزيت الجنة اكس بنياتي وامهنه

وكن لنا من الزمان جنة اقسم بالله لتفعلنه

فقال عمر ان لم افعل يكون ماذا فقال الاعرابي

اذا ابا حفص لاذهبنه فقال عمر فاذا ذهبت يكون ماذا فقال

تكون عن حالي لتسالنه يوم تكون الاعطيات هنه

وموقف المسؤول بينهنه اما الى نار واما جنه

فبكى عمر حتى اخضلت لحيته ثم قال يا غلام اعطه قميصي هذا
لذلك اليوم لا لشعره اما والله لا املك غيره • واذا كان العطاء
على هذا الوجه خلا من طلب جزاء وشكر وعري عن امتنان ونشر
فكان ذلك اشرف للباذل واهنى للقابل • واما المعطي اذا التمس
بعطائه الجزاء وطلب به الشكر والثناء فخارج بعطائه عن
حلم السخاء لانه ان طلب به الشكر والثناء كان صاحب

سمعة ورياء وفي هذين من الذم ما ينافي السخاء وان طلب به الجزاء
كان تاجرا مترتجا لا يستحق مدحا ولا حمدا وقال ابن عباس رضي الله عنه
في تاويل قوله تعالى ولا تمنن تستكثر • انه الذي يعطي عطيته يلتمس
بها افضل منها • وكان الحسن البصري يقول في تاويل ذلك
لا تمنن بعملك تستكثر على ربك وقال ابو العتاهيه

وليست يد اوليتها بغنيمة اذا كنت تبغي ان تعد لها شكرا

غنى المرء ما يكفيه من سد خلة فان رام شيئا عاد ذاك الغنى فقرا

واعلم ان الكريم يجتذب بالكرامة واللطف والمهين اللئيم يجتذب
بالمهانة والعنف لا يجود الا خوفا ولا يجيب الا عنفا كما قال الشاعر

رأيتك مثل الجوز يمنع لبه صحيحا ويعطي خيره حين يكسر

فاحذر ان يكون للمهانة طريق الى اجتذابك وللخوف سبيل الى
عطائك فيجتري عليك سفه الطغام وامتهان اللئام وليكن جودك
كرما ورغبا لا لوما ورهبا كيلا تكون مع الوصمة كما قال العباس بن الاحنف

صرت كاني ذبالة نصبت تضي للناس وهي تحترق

واما النوع الثاني من البر وهو المعروف ويتنوع ايضا نوعين
قول وعمل • فاما القول فهو طيب الكلام وحسن البشر والتودد
بجميل القول وهذا يبعث عليه حسن الخلق ورقة الطبع ويجب

أن يكون محدودًا كالسخاء فإنه إن أسرف فيه كان ملقى مذمومًا
وإن توسطه واقتصد فيه كان معروفًا وبرًّا محمودًا وقد قال
ابن عباس في تأويل قوله تعالى. والباقيات الصالحات خير
عند ربك ثوابًا وخير أملا. إنها الكلام الطيب وكان سعيد
ابن جبير يتأول أنها الصلوات الخمس. وروى أبو سعيد عن
أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إنكم لن
تسعوا الناس بأموالكم فليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق
وروي أنه أنشد عند النبي عليه السلام قول الأعرابي

حيِّ ذوي الأضغان تسبِ قلوبهم ... تحيتك الحسنى فقد يرفع النغل
فإن دحسوا بالمكر فاعف تكرمًا ... وإن خنسوا عنك الحديث فلا تسل
فإن الذي يؤذيك منه سماعه ... وإن قالوا وراءك لم يقل

الذي

فقال النبي عليه السلام إن من الشعر لحكمًا وإن من البيان لسحرًا.
وقيل للعتابي إنك تلقى العامة ببشر وتقريب قال دفع ضغينة
بأيسر مؤونة واكتساب إخوان بأهون مبذول. وقيل في
منثور الحكم من قل حياؤه قل أحباؤه. وقال بعض الشعراء

بني إن البر شيء هين ... وجه طليق وكلام لين

وأنشدني بعض أهل العلم

المرء لا يعرف مقداره ... ما لم تبن للناس أفعاله

فكل من يمنعني بشره ... فقلما يمنعني ماله

وأما العمل فهو بذل الجاه والإسعاد بالنفس والمعونة في النائبة
فهذا يبعث عليه حب البر للناس وإيثار الصلاح لهم وليس في هذه
الأمور سرف ولا لغايتها حد بخلاف النوع الأول لأنها وإن كثرت
فهي أفعال خير تعود بنفعين نفع على من فعلها في اكتساب الأجر
وجميل الذكر. ونفع على المعان بها في التخفيف عنه والمساعدة
له. وقد روى محمد بن المنكدر عن جابر أن النبي صلى الله عليه
وسلم قال كل معروف صدقة. وعنه صلى الله عليه وسلم أنه
قال صنائع المعروف تقي مصارع السوء. وعنه عليه السلام أنه
قال المعروف كاسمه وأول من يدخل الجنة يوم القيامة المعروف
وأهله. وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لا يزهدنك
في المعروف كفر من كفره فقد يشكر الشاكر بأضعاف
جحود الكافر. وقال الحطيئة

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لن يذهب العرف بين الله والناس

وأنشد الرياشي

يد المعروف غنم حيث كانت ... تحملها كفور أو شكور
ففي شكر الشكور لها جزاء ... وعند الله ما كفر الكفور

فينبغي لمن يقدر إسداء المعروف أن يعجله حذر فواته ويبادر به

خيفة عجز. وليعلم انه من فرص زمانه وغنايم امكانه ولا يهمله ثقة بالقدرة عليه فكم من واثق بقدرة فاتت فاعقبت ندما ومعول على مكنة زالت فاورثت خجلا كما قال الشاعر

ما زلت اسمع كم من واثق خجل • حتى ابتليت فكنت الواثق الخجلا

ولو فطن لنوايب دهره وتحفظ من عواقب مكره لكانت مغانمه مذخورة ومغارمه مجبورة. فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من فتح عليه باب من الخير فلينتهزه فانه لا يدري متى يغلق عليه. وروي عنه صلى الله عليه وسلم انه قال لكل شيء ثمرة وثمرة المعروف تعجيل السراح. وقيل لانوشروان ما اعظم المصايب عندكم فقال ان تقدر على المعروف فلا تصطنعه حتى يفوت وقال بعض الشعراء

اذا هبت رياحك فاغتنمها • فان لكل خافقة سكون

ولا تغفل عن الاحسان فيها • فما يدري السكون متى يكون

وحكي ان بعض وزراء بني العباس مطل راغبا اليه في عمل يستكفيه اياه فكتب اليه بعد طول المطل

اما يدعو لطول الصبر مني • على الاسباب منفعتي وشغلي

وعلمك ان ذا السلطان غاد • على خطرين من موت وعزل

وانك ان تركت قضاءها حتى • الى وقت التفرغ والتخلي

ستصبح نادما اسفا معنى • على فوت الصنيعة عند مثلي

وكتب بعض ذوي الحرمات الى وال قصر في رعاية حرمته

اعلى الصراط تريد رعية حرمتي • ام في الحساب تمن بالانعام

للنفع في الدنيا اريدك فانتبه • لحوايجي من رقدة النوام

وكتب ابو علي البصير الى بعض الوزراء وقد اعتذر اليه بكثرة الاشغال

لنا كل يوم نوبة قد ينوبها • وليس لنا رزق ولا عندنا فضل

فان تعتذر عنا بشغل فانما • يناط بك الامال ما اتصل الشغل

واعلم ان للمعروف شروطا لا يتم الا بها ولا يكمل الا معها فمن ذلك ستره عن اذاعة يستطيل لها واخفاؤه من اشاعة يستذل بها فقد قال بعض الحكماء اذا اصطنعت المعروف فاستره واذا اصطنع اليك فانشره وقال دعبل الخزاعي

اذا انتقموا اعلنوا امرهم • وان انعموا انعموا باكتتام

يقوم القعود اذا اقبلوا • ويقعد هيبتهم بالقيام

على ان ستر المعروف من اقوى اسباب ظهوره وابلغ دواعي نشره لما جبلت عليه النفس من اظهار ما اخفي واعلان ما كتم. قال سهل بن هارون

خل اذا جيته يوما لتسأله • اعطاك ما ملكت كفاه واعتذرا

تخفى صنايعه والله يظهرها ❀ ان الجميل اذا اخفيته ظهرا

ومن شروط المعروف تصغيره عن ان يراه مستكبرا وتقليله عن
ان يراه مستكثرا لئلا يصير به مدلا بطرا ومستطيلا اشرا قال

او

العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه لا يتم المعروف الا بثلث
خصال تعجيله وتصغيره وستره فاذا عجلته هنيته واذا
صغرته عظمته واذا سترته تممته وقال بعض الشعراء

زاد معروفك عندي عظما ❀ انه عندك مستور حقير
وتناسيت كان لم تاته ❀ وهو عند الناس مشهور خطير

ومن شروط المعروف مجانبة الامتنان به وترك الاعجاب بفعله
لما فيهما من اسقاط الشكر واحباط الاجر روى عن النبي صلى
الله عليه وسلم انه قال اياكم والامتنان بالمعروف فانه يبطل الشكر
ويمحق الاجر ثم تلا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى وسمع
ابن سيرين رجلا يقول لرجل فعلت وفعلت فقال ابن سيرين

اليك

اسكت فلا خير في المعروف اذا احصى وقال بعض الحكماء
المن مفسدة للصنيعة وقال بعض الادباء كدر معروفا
امتنان وضيع حسبا امتهان وقال بعض البلغاء من من
بمعروفه سقط شكره ومن اعجب بعمله حبط اجره وقال بعض

الفصحاء قوة المنن من ضعف المنن وقال بعض الشعراء
افسدت بالمن ما اسديت من حسن ❀ ليس الكريم اذا اسدى بمنان
وقال ابو نواس ❀ فامض لا تمنن على يدا ❀ منك المعروف من كدره
وانشدت عن الربيع للشافعي رضي الله عنه لمن يتمنن من الانام

لا تحملن لمن يمن من الانام عليك منه ❀
واختر لنفسك حظها واصبر فان الصبر جنه ❀
منن الرجال على القلوب اشد من وقع الاسنه ❀

ومن شروط المعروف ان لا يحتقر منه شيا وان كان قليلا نزرا
اذا كان الكثير معوزا وكنت عنه عاجزا فان من حقر يسيره
منع منه انجحه كثيره وامتنع عنه وفعل قليل الخير افضل
من تركه وقد روى عن النبي عليه السلم انه قال لا يمنعكم
من معروف صغيره وقال عبد الله بن جعفر لا تستحي من القليل
فان البخل اقل منه ولا تجبن عن الكثير فانك اكثر منه وقال الشاعر

اعمل الخير ما استطعت وان كان يسيرا فلن تحيط بكله ❀
ومتى تفعل الكثير من الخير اذ كنت تاركا لاقله ❀

على ان المعروف ما لا كلفة على مواليه ولا مشقة على مشتريه
فانما هو جاه يستظل به الاذى ويرتفق به البايع وقال الشاعر

ظل الفتى يتبع من دونه وماله في ظلم حظ

واعلم انك لن تستطيع ان توسع جميع الناس معروفك فلا ان
تولهم احسانك فاعتمد بذلك اهل الفضل منهم والحفاظ واقصد
به ذوي الرعاية والوداد ليكون معروفك فيهم ناميا وصنعك
عندهم زاكيا فقد روي عن النبي عليه السلم انه قال لا تنفع
الصنيعة الا عند ذي حسب • وقال عليه السلم اذا اراد الله
بعبد خيرا جعل صنايعه في اهل الحفاظ وقال
حسان بن ثابت • ان الصنيعة لا تكون صنيعة حتى يصاب بها طريق المصنع
فاذا صنعت صنيعة فاعمد بها لله او لذوي القرابة او دع
وقيل في منثور الحكم لا خير في معروف الى غير عروف • وقد
ضرب به الشاعر مثلا فقال لحمار السوء ان اشبعته
رمح الناس وان جاع نهق . فاخذه بعض الشعراء فقال
لعمرك ما المعروف في غير اهله وفي اهله الا كبعض الودايع
فمستودع ضاع الذي كان عنده ومستودع ما عنده غير ضايع
وما الناس في شكر الصنيعة عندهم وفي كفرها الا كبعض المزارع
فمزرعة طابت واضعف نبتها ومزرعة اكدت على كل زارع
واما من اسدي اليه المعروف واصطنع اليه الاحسان فقد

صار باسر المعروف موثوقا وفي ملكة الاحسان مرقوقا ولزمه
ان كان من اهل المكافاة ان يكافي عليها وان لم يكن من اهلها ان
يقابل المعروف بنشره ويقابل الفاعل بشكره • روي عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال من اودع معروفا فليتنشره
فان نشره فقد شكره وان كتمه فقد كفره • وقد روى الزهري
عن عروة عن عايشة قالت دخل علي رسول الله صلى الله
عليه وسلم وانا اتمثل بهذين البيتين

ارفع صنيعك لا يحزنك ضيعته يوما فتدركه العواقب قد نمى
يجزيك او يثني عليك وان من اثنى عليك بما فعلت فقد جزى

فقال النبي صلى الله عليه وسلم ردي علي قول اليهودي
لقد اتاني جبريل برسالة من ربي تعالى ايما رجل صنع الى اخيه
صنيعة فلم يجد لها اجرا الا الدعاء والثناء فقد كافاه
وقيل في منثور الحكم الشكر قيد النعم وقال عبد الحميد
من لم يشكر للانعام فاعدده من الانعام • وقيل في منثور الحكم
قيمة كل نعمة شكرها • وقال بعض الحكماء كفر النعمة من امارات
البطر واسباب الغير • وقال بعض البلغاء لا زوال للنعمة
مع الشكر ولا بقاء لها مع الكفر • وقال بعض الفصحاء لا يزال

الكريم شكورًا ومشكورًا واللئيم كفورًا ومكفورًا وقال بعض
الادباء شكر الاله بطول الثناء وشكر الولاة بصدق الولاء
وشكر النظير بحسن الجزاء وشكر من دونك بسبب العطاء
قال الشاعر فلو كان يستغني عن الشكر ماجد لعزة ملك او علو مكان
لما امر الله العباد بشكره فقال اشكروا لي ايها الثقلان
فان من معروف من احسن اليه ونشر انعام من افضل عليه
فقد ادى حق النعمة وقضى موجب الصنيعة ولم يبق عليه الا
استدامة ذلك اما بالشكر ليكون للمزيد مستحقا ولمتابعة
الاحسان مستوجبا حكي ان الحجاج اتي بقوم من الخوارج
له وكان فيهم صديق له فامر بقتلهم الا ذاك الصديق فانه
عفا عنه واطلقه ووصله فرجع الرجل الى القطري وكان
من اصحابه فقال له عد الى قتال الحجاج عدو الله فقال
هيهات غل يدا مطلقها واسترق رقبة معتقها وانشأ يقول
أأقاتل الحجاج عن سلطانه بيد تقر بانها مولاته
اني اذا لاخو الدناءة والذي شهدت باقبح فعله غدراته
ماذا اقول اذا وقفت ازاءه في الصف واحتجت له فعلاته
أأقول جار علي لا اني اذا لاحق من جارت عليه ولاته

شكر

وتحدث الاقوام ان صنائعا غرست لدي فحنظلت نخلاته ❁
وقيل في منثور الحكم المعروف رق والمكافاة عتق ومن
اشكر الناس الذي يقول ❁ ❁
لاشكرنك معروفا هممت به ان اهتمامك بالمعروف معروف
ولا الومك ان لم يمضه قدر فالشيء بالقدر المحتوم مصروف
وهذا النوع من الشكر الذي يتعجل بالمعروف ويتقدم البر
يكون على وجوه فيكون تارة من حسن الثقة بالمشكور في وصول
بره واستدعاء عونه ولا راى لمن حسن ظن شاكر ان يخلف حسن
ظنه فيه فيكون كما قال الغساني ❁
قد اورقت فيك آمالي بوعدك لي وليس في ورق الآمال لي ثمر ❁
وقد يكون تارة من فرط شكر الراجي وحسن مكافاة الآمل ولا يرضى لنفسه
الا بتعجيل الحق واسلاف الشكر وليس لمن صادف معروفه معدنا
زاكيا ومغرسا ناميا ان يفوت نفسه غنمها ولا يحرمها ربحها فهذا
وجه ثان وقد يكون تارة ارتهانا للمأمول وحثا للمسؤول بحسب
ما اسلف من الشكر وقد يكون الذم عند الاباء قال بعض الادباء
من حكماء المتقدمين من شكر على معروف لم تسده اليه فعاجله
بالبر والا انعكس فصار ذما وقال ابن الرومي في ذلك ❁

وما الحقد إلا توأم الشكر في الفتى وبعض السجايا ينتسبن إلى بعض
فحيث ترى حقداً على ذي إساءة فثم ترى شكراً على حسن القرض
إذا الأرض أدت ريع ما أنت زارع من البذر فيها فهي ناهيك من أرض
فأما من ستر معروف النعم ولم يشكر على ما أولاه من نعمه فقد
كفر النعمة وجحد الصنيعة وأنبأ من ذم الخلائق وسوء الطرائق
عما يستوجب به قبح الرد وسوء المنع. فقد روى أبو هريرة عن
النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا يشكر الله من لا يشكر الناس
وقال بعض الأدباء من لم يشكر منعمه استحق قطع النعمة. وقال
بعض الفصحاء من كفر نعمة المفيد استوجب حرمان المزيد.
وقال بعض البلغاء من أنكر الصنيعة استوجب قبح القطيعة.
وأنشدني بعض الأدباء ما ذكر أنه لعلي بن أبي طالب رضوان الله عليه

من جاور النعمة بالشكر لم يخش على النعمة مغتالها
لو شكروا النعمة زادتهم مقالة الله التي قالها
لئن شكرتم لأزيدنكم لكنما كفرهم غالها
والكفر بالنعمة يدعو إلى زوالها والشكر أبقى لها

فهذا آخر ما يتعلق بالقاعدة الثانية من أسباب الألفة الجامعة

فصل وأما القاعدة الثالثة وهي المادة الكافية لأن حاجة
لازمة لا يعرى منها بشر قال الله تعالى وما جعلناهم جسداً
لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين. فإذا عدم المادة التي هي
قوام نفسه لم تدم له حياة ولم تستقم له دنيا وإذا تعذر شيء منها
عليه لحقه من الوهن في نفسه والاختلال في دنياه بقدر ما تعذر
من المادة عليه لأن الشيء القائم بغيره يكمل بكماله ويختل باختلاله
ثم لما كانت المواد مطلوبة لحاجة الكافة إليها أعوزت بغير طلب
وعدمت لغير سبب وأسباب المواد مختلفة وجهات المكاسب
متشعبة ليكون اختلاف أسبابها علة الائتلاف بها وتشعب جهاتها
توسعة لطلابها كيلا يجتمعوا على سبب واحد فلا يلتئمون أو يشتركوا
في جهة واحدة فلا يكتفون ثم هداهم إليها بعقولهم وأرشدهم إليها
بطباعهم حتى لا يتكلفوا ائتلافهم في المعايش المختلفة فيعجزوا
ولا يتعانوا بتقدير موادهم بالمكاسب المتشعبة فيختلفوا حكمة منه
سبحانه اطلع بها على عواقب الأمور. وقد أنبأ الله تعالى في كتابه
إخباراً وإذكاراً بقوله سبحانه وتعالى ربنا الذي أعطى كل شيء
خلقه ثم هدى. واختلف المفسرون في تأويل ذلك فقال قتادة
أعطى كل شيء ما يصلحه ثم هداه له. وقال مجاهد أعطى كل شيء
صورته ثم هداه لمعيشته. وقال ابن عباس أعطى كل شيء زوجه

قال

ثم هداه لنكاحه. وقال تعالى يعلمون ظاهرا من الحيوة الدنيا
يعني معايشهم متى يزرعون ومتى يغرسون وهم عن الآخرة غافلون
وقال تعالى وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين
قال عكرمة قدر في كل بلدة منها ما لم يجعله في الأخرى ليعيش
بعضهم من بعض بالتجارة من بلد إلى بلد. وقال الحسن البصري
وعبد الرحمن بن زيد قدر في أرزاق أهلها سواء للسائلين. الزيادة
في أرزاقهم ثم إن الله تعالى جعل لهم مع ما هداهم إليه من مكاسبهم
وأرشدهم إليه من معايشهم دينا يكون لهم حكما وشرعا يكون لهم قيما
ليصلوا إلى موادهم بتقديره ويطلبوا أسباب مكاسبهم بتدبيره
حتى لا ينفردوا بإرادتهم فيتغالبوا وتستولي عليهم أهواؤهم فيتقاطعوا
قال الله تعالى ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض
قال المفسرون الحق في هذا الموضع هو الله تعالى ولأجل ذلك
لم يجعل المواد مطلوبة بالإلهام حتى جعل العقل هاديا إليها
والدين قاضيا عليها لتتم السعادة وتعم المصلحة. ثم إنه
جلت عظمته جعل سد حاجتهم وتوصلهم إلى منافعهم من وجهين
بمادة وكسب. أما المادة فهي حادثة عن اقتناء أصول نامية
بذواتها وهي شيئان نبت نام وحيوان متناسل قال الله تعالى

وأنه هو أغنى وأقنى. قال أبو صالح أغنى خلقه بالمال وأقنى فجعل
لهم قنية هي أصول الأموال. وأما الكسب فيكون بالأفعال الموصلة
إلى المادة والتصرف المؤدي إلى الحاجة وذلك من وجهين أحدهما
تقلب في تجارة والثاني تصرف في صناعة وهذان الوجهان هما
فرع لوجهي المادة فصارت أسباب المواد المألوفة وجهات المكاسب
المعروفة من أربعة أوجه نماء زراعة ونتاج حيوان وربح تجارة
وكسب صناعة وقد حكى الحسن بن رجاء نحو ذلك عن المأمون
قال سمعته يقول معايش الناس على أربعة أقسام زراعة
وصناعة وتجارة وإمارة فمن خرج عنها كان كلا عليها. وإذ
قد تقررت أسباب المواد بما ذكرنا فسنصف حال كل واحد منها
بقول موجز. أما الأول من أسبابها وهو الزراعة فهو مادة أهل
الحضر وسكان الأمصار والمدن والاستمداد بها أعم نفعا وأوفر
فرعا وكذلك ضرب الله تعالى به المثل فقال مثل الذين ينفقون
أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة
مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء. وروي عن النبي عليه السلم
أنه قال خير المال عين ساهرة لعين نائمة. وقال عليه السلم
نعمت لكم النخل تشرب من عين خرارة وتغرس في أرض خوارة

وقال صلى الله عليه وسلم في النخل هي الراسخات في الوحل المطعمات في المحل. وروى هشام بن عروة عن ابيه عن عايشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم التمسوا الرزق في خبايا الارض يعني الزرع. وقال بعض السلف خير المال عين خرارة في ارض خوارة تسهر اذا نمت وتشهد اذا غبت وتكون عقبا اذا مت. وحكي عن المعتضد انه قال رايت علي بن ابي طالب رضي الله عنه في المنام فناولني مسحاة وقال خذها فانها مفاتيح خزاين الارض. وقال كسرى للموبذ ما قيمة تاجي هذا فاطرق ساعة ثم قال ما اعرف له قيمة الا ان يكون مطر في نيسان فانها تصلح من معايش الرعية ما يكون قيمته مثل تاج الملك. ولقي عبد الله بن عبد الملك لابن شهاب الزهري فقال ادللني على مال اعالجه فانشا ابن شهاب يقول

تتبع خبايا الارض وادع مليكها ... لعلك يوما ان تجاب وترزقا
فيؤتيك مالا واسعا ذا مثابة ... اذا ما مياه الارض غارت تدفقا

وقد اختلف الناس في تفضيل الزرع والشجر بما ليس يتسع كتابنا هذا لبسط القول فيه غير ان من فضل الزرع فلقرب مداه ووفور جدواه ومن فضل الشجر فلثبوت اصله وتوالي ثمره.

واما الثاني من اسبابها وهو نتاج الحيوان فهو مادة اهل الفلوات وسكان الخيام لانهم لما لم يستقر بهم دار ولم تضمهم امصار افتقروا الى الاموال المنتقلة معهم وما لا ينقطع نماؤه بالظعن والرحلة فاقتنوا الحيوان لانه يستقل في النقلة بنفسه ويستغني في العلوفة برعيه ثم هو مركوب مرغوب فكان اقتناؤه على اهل الخيام ايسر لقلة مؤونته وتسهيل الكلفة به وكانت جدواه عليهم اكثر لوفور نسله واقتنايه تدبير الهاما من الله تعالى لخلقه في تعديل المصالح فيهم وارشادا للعباد في قسمة المنافع بينهم. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خير المال مهرة مامورة او سكة مابورة. معنى قوله مهرة مامورة اي كثيرة النسل ومنه ما تاول الحسن وقتادة قوله تعالى امرنا مترفيها ففسقوا فيها اي اكثرنا عددهم. واما السكة المابورة فهي النخلة المؤبرة للحمل. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال في الغنم سمنها معاش وصوفها رياش. وروي عن ابي ظبيان قال قال لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما لك يا ابا ظبيان قال قلت عطايي الفان قال اتخذ من هذا الحرث والسابيا قبل ان تليك غلمة من قريش لا تعد العطاء

معهم مالا والسابياء النتاج . وروي ان امراة اتت النبي
صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله اني اتخذت غنما ابتغي
نسلها ورسلها وانها لا تنمي فقال لها النبي عليه السلم ما الوانها
قالت سود فقال لها عفري وهذا مثل قوله في مناكح الادميين
اغتربوا لا تضووا . واما الثالث من اسبابها وهي التجارة
فهي فرع لمادتي الزرع والنتاج . وقد روي عن النبي عليه السلم
انه قال تسعة اعشار الرزق في التجارة والجزء الباقي في
السابياء وهي نوعان تقلب في الحضر من غير نقلة ولا سفر
وهذا تربص واحتكار وقد رغب اولوا الاقدار وزهد فيه
ذووا الاخطار . والثاني تقلب المال في الاسفار ونقله الى
الامصار فهذا اليق باهل المروة واعم جدوى ومنفعة
غير انه اكثر خطرا واعظم غررا وقد روي عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال ان المسافر وماله لعلى قلت
الا ما وقى الله يعني على خطر وقيل في التورية يا ابن ادم احدث
سفرا احدث الله لك رزقا . واما الرابع من اسبابها وهو
الصناعة فقد يتعلق بما مضى من الاسباب الثلثة وينقسم
اقساما ثلثة صناعة فكر وصناعة عمل وصناعة مشتركة

مناكحي

عنه

بين فكر وعمل لان الناس آلات الصناعات فاشرفهم نفسا
منهي لاشرفها جنسا كما ان ارذلهم نفسا منهي لارذلها
جنسا لان الطبع يبعث على ما لائمه ويدعوا الى ما جانسه
حكي ان الاسكندر لما اراد الخروج الى اقصى الارض قال
لارسطاطاليس اخرج معي قال قد نحل جسمي وضعفت عن الحركة
فلا تزعجني قال فما اصنع في عمالي خاصة قال انظر الى من
كان له عبيد فاحسن سياستهم فوله الجند ومن كان له
ضيعة فاحسن تدبيرها فوله الخراج فنبه باعتبار الطباع
على ما اغناه عن كلف التجربة واشرف الصناعات صناعة الفكر
وارذلها صناعة العمل لان العمل نتيجة الفكر وهو مدبره . واما
صناعة الفكر فقد تنقسم قسمين احدهما ما وقفت على التدبيرات
الصادرة عن نتائج الالات الصحيحة كسياسة الناس وتدبير البلاد
وقد افردنا للسياسة كتابا خصصناه من جملها ما ليس يحتمل
هذا الكتاب زيادة عليها . والثاني ما ادى الى المعلومات
الحادثة عن الافكار النظرية وقد مضى في فصل العلم من كتابنا
هذا باب اغنى ما فيه عن زيادة قول فيه . واما صناعة العمل
فقد تنقسم قسمين عمل صناعي وعمل بهيمي فالعمل الصناعي

أعلاها رتبة لأنه يحتاج إلى معاطاة في تعلمه ومعاناة في تصوره
فصار آخذا للشبه من المعلومات الفكرية. والآخر فإنما هو
صناعة كد وآلة مهنة وهي الصناعة التي تقتصر عليها النفوس
الرذلة وتقف عليها الطباع الخاسئة كما قال أكثم بن صيفي
لكل ساقطة لاقطة وقد قال المتلمس

ولا يقيم على ضيم يسام به ... إلا الأذلاء عير الحي والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته ... وذا ... فلا يرثى له أحد

الذليلان

يشج

وأما الصناعة المشتركة بين الفكر والعمل فقد تنقسم قسمين
أحدهما أن تكون صناعة الفكر أغلب والعمل تبع كالكتابة
والثاني أن تكون صناعة العمل أغلب والفكر تبع كالبناء وأعلاها
رتبة ما كان صناعة الفكر أغلب عليها والعمل تبعا لها. فهذه
أحوال الخلق التي ركبهم الله تعالى عليها في أرباب موادهم ووكلهم
إلى نظرهم في طلب اكتسابهم وفرق بين هممهم في التماسها
ليكون ذلك سببا لألفتهم فسبحان من تفرد فينا بلطيف
حكمته وأظهر لفطنتنا عزائم قدرته. وإذ قد وضح القول
في أسباب المواد وجهات المكاسب فليس يخلو حال الإنسان

فيها من ثلاثة أمور أحدها أن يطلب منها كفايته ويلتمس ترفق
حاجته من غير أن يتعدى إلى زيادة عليها أو يقتصر على نقصان
منها فهذه أحمد أحوال الطالبين وأعدل مراتب المقتصدين. وقد
روى قتادة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال أوحي إلي
كلمات فدخلن في أذني ووقرن في قلبي من أعطى فضل ماله فهو
خير له ومن أمسك فهو شر له ولا يلوم الله على كفاف. وروى
حميد عن معاوية بن حيدة قال قلت يا رسول الله ما يكفيني من
الدنيا قال ما سد جوعتك وستر عورتك. فإن كان دار فذاك وإن
كان حمارا فبخ بخ فلق من خبز وجر من ماء وأنت مسؤول عما
فوق الإزار. وقد حكي عن ابن عباس ومجاهد في قوله تعالى
إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا. إن كل من ملك بيتا وزوجة
وخادما فهو ملك. روى زيد بن أسلم قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم من كان له بيت وخادم فهو ملك. وهو في المعنى
صحيح لأنه بالزوجة والخادم مطاع في أمره وفي الدار محجوب
الأعين رائيه. وليس على من طلب قدر الكفاية ولم يتجاوز تبعات
الزيادة إلا توخي الحلال منه وإجمال الطلب فيه ومجانبة الشبه
الممازجة له. وقد روى نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم الحلال بيّن والحرام بيّن فدع ما يريبك
الى ما لا يريبك فلن تجد فقد شيء تركته لله • وسئل رسول الله
صلى الله عليه وسلم عن الزهد فقال اما انه ليس باضاعة المال
ولا تحريم الحلال ولكن ان تكون بما بيدي الله تعالى اوثق منك
بما في يدك وان يكون ثواب المصيبة ارجح عندك من بقائها • وحكى
عبد الله بن المبارك رحمه الله قال كتب عمر بن عبد العزيز الى الجراح
ابن عبد الله الحكمي ان استطعت مما احل الله لك ما يكون حاجزا
بينك وبين الحرام فافعل فانه من استوعب الحلال تاقت نفسه الى
الحرام • وقد اختلف اهل التاويل في قوله تعالى • فان له معيشة
ضنكا • فقال عكرمة يعني كسبا حراما • وقال ابن عباس هو
انفاق ما لا يوقن بالخلف • وقال يحيى بن معاذ الدرهم عقرب
فان احسنت رقيتها والا فلا تاخذها • وقيل من قل تورعه
كثرت مساويه • وقال بعض البلغاء خير الاموال ما اخذته
من الحلال وصرفته في النوال وشر الاموال ما اخذته من الحرام
وصرفته في الاثام • وكان الاوزاعي الفقيه يتمثل بهذه الابيات

المال ينفد حله وحرامه يوما ويبقى بعده آثامه ❁
ليس التقي بمتق لالهه حتى يطيب شرابه وطعامه

بيد الله
ان تدع
كثيرا

١٤١

ويطيب ما جنى ويكسب اهله ويطيب من لفظ الحديث كلامه ❁

وحكي عن ابي المغيرة السلمي انه قال الناس ثلثة اصناف
اغنياء وفقراء واوساط فالفقراء موتى الا من اغناه الله بعز
القناعة والاغنياء سكارى الا من عصمه الله وبثق مع الغنى
واكثر الخير مع اكثر الاوساط واكثر الشر مع اكثر الفقراء
والاغنياء بسخف الفقر وبطر الغنى • والحال الثانية ان يقصر
عن طلب كفايته ويزهد في التماس مادته وهذا التقصير
قد يكون على ثلثة اوجه فيكون تارة كسلا وتارة توكلا وتارة زهدا
وتقنعا فان كان تقصيره للكسل فقد حرم ثروة النشاط
ومرح الاغتباط فلن يعدم ان يكون كلا متصبيا او ضايعا
شقيا • روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال كاد الحسد
ان يغلب القدر وكاد الفقر ان يكون كفرا • وقال بزرجمهر
ان كان شيء فوق الحياة فالصحة وان كان شيء مثله فالغنى
وان كان شيء فوق الموت فالمرض وان كان شيء مثله فالفقر •
وقيل في منثور الحكم القبر خير من الفقر • ووجد في نيل
مصر مكتوب على حجر عقبة الصبر نجاح وغنى في رداء الفقر
من نسج الكسل ❁ وقال بعض الشعراء ❁

نعوذ بك اللهم من بطر الغنى ومن هلكة البلوى ومن ذلة الفقر
ومن امل ممتد في كل شارق ويرجعني منه بخط يد صفر
اذا لم تدنسني الذنوب بعارها فلست ابالي ما تشعث من امري
فان كان تقصيره لتوكل فذاك عجز قد عذر به نفسه وترك
حزم قد غير اسمه لان الله تعالى انما امر بالتوكل عند
انقطاع الحيل والتسليم الى القضاء بعد الاعوان • وقد روى
معمر عن ايوب عن ابي قلابة قال ذكر عند رسول الله رجل
فذكر فيه خير وقالوا يا رسول الله خرج معنا حاجا فاذا
نزلنا منزلا لم يزل يصلي حتى نرحل فاذا ارتحلنا لم يزل يذكر الله
تعالى حتى ننزل قال فمن كان يكفيه علف ناقته وصنع
طعامه قالوا كلنا قال فكلكم خير منه • وقال بعض
الحكماء ليس من توكل المرء اضاعته للحزم ولا من الحزم
اضاعته نصيبه من التوكل • وان كان تقصيره لزهد
وتقنع فهذه حالة من علم بمحاسبة نفسه تبعات الغنى
والثروة وخاف عليها بوايق الهوى والقدرة فآثر الفقر على
الغنى وزجر النفس عن ركوب الهوى • وقد روى ابو الدرداء
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من يوم طلعت

فيه شمسه الا وعلى جنبتيها ملكان يناديان يسمعهما خلق
الله كلهم الا الثقلين يا ايها الناس هلموا الى ربكم ان ما قل
وكفى خير مما كثر والهى • وروى زيد بن علي بن الحسين عن
ابيه عن جده عليهم السلم قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم انتظار الفرج من الله تعالى عبادة • ومن رضي بالقليل
من الرزق رضي الله تعالى منه بالقليل من العمل • وروي عن
عمر بن الخطاب رضوان الله عليه انه قال من يبل الفقر انك
لا تجد احدا يعصي الله تعالى ليفتقر فاخذه محمود الوراق وقال

يا عايب الفقر الا تزدجر عيب الغنى اكثر لو تعتبر
من شرف الفقر ومن فضله على الغنى ان صح منك النظر
انك تعصي لتنال الغنى ولست تعصي الله كي تفتقر
وقال ابن المقفع

دليلك ان الفقر خير من الغنى وان القليل المال خير من المثري
لقاؤك مخلوقا عصى الله بالغنى ولم تر مخلوقا عصى الله بالفقر

وهذه الحال انما يصح لمن نصح نفسه فلطاعته وصدقها
فاجابته حتى لان قيادها وهان عنادها وعلمنا ان من لم يقنع
بالقليل لم يقنع بالكثير كما كتب الحسن البصري الى عمر بن
عبد العزيز رحمهما الله يا اخي من استغنى بالله تعالى اكتفى

ومن انقطع الى غيره تعنى ومن كان من قليل الدنيا لا يشبع لم يغنه
منها كثيره ما جمع فعليك منها بالكفاف والزم نفسك العفاف
واياك وجمع الفضول فان حسابه يطول. وقال بعض الحكماء
هيهات تمثل الغنى ان لم تشغل ما حوت. واما من عزفت
نفسه عن قبول نصحه وجمحت به عن قناعة زهده فليس الى
اكرامها سبيل ولا الى الحمل عليها وجه الا بالرياضة والمرون
وان يستنزلها عن اليسير الذي لا تنفر منه فاذا استقرت عليه
استنزلها الى ما هو اقل منه لينتهي بالتدريج الى الغاية المطلوبة
ويستقر بالرياضة والمرون على الحال المحبوبة فقد تقدم قول
الحكماء بان الكره تسهل بالمرون. فهذا حكم ما في الحال الثانية
من التقصير عن طلب الكفاية. واما الحال الثالثة فهو ان لا يقنع
بالكفاية ويطلب الزيادة والكثرة فقد يدعوا الى ذلك اربعة اسباب
احدها منازعة الشهوات التي لا تنال الا بزيادة المال وكثرة المادة
فاذا نازعته الشهوة طلب من المال ما يوصله اليها وليس للشهوات
حد متناه ومن لم يتناه طلبه استدام كده وتعبه ومن استدام به
الكد والتعب لم يف التذاذه بنيل شهواته لما يعانيه من استدامة
كده واتعابه مع ما لزمه من ذم الانقياد لمغالبة الشهوات والتعرض

لاكتساب التبعات حتى يصير كالبهيمة التي قد انصرف طلبها الى ما
تدعوا شهوتها فلا تنزجر منه بعقل ولا تنكف عنه بقناعة. وقد روى
علي بن ابي طالب عن النبي عليه السلام انه قال من اراد الله به خيرا
حال بينه وبين شهوته وحال بينه وبين قلبه واذا اراد الله به شرا
وكله الى نفسه. وقد قال الشاعر

وانك ان اعطيت بطنك سؤله وفرجك نالا منتهى الذم اجمعا

والسبب الثاني ان يطلب الزيادة ويلتمس الكثرة ليصرفها في وجوه
الخير ويتقرب بها في جهات البر ويصطنع ويغيث بها الملهوف
فهذا اعذر وهو بالحمد اولى واجدر اذا انصرفت عنه شبهات
المطالب وتوقى شبهات المكاسب واحسن التقدير في حالتي فايدته
وافادته على قدر الزمان وبقدر الامكان لان المال آلة للمكارم وعون
على الدين ومتألف للاخوان ومن فقده من ابناء الدنيا قلت الرغبة
فيه والرهبة منه ومن لم يكن منهم بموضع رغبة ولا رهبة استهانوا
به. وقد روى عبد الله بن بريدة عن ابيه قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم ان احساب اهل الدنيا هذا المال. وقال مجاهد
الخير في القرآن كله المال انه لحب الخير لشديد يعني المال
واحببت حب الخير عن ذكر ربي يعني المال فكاتبوهم ان علمتم فيهم

خيرا يعني مالا • وقال شعيب اني اراكم بخير يعني الغنى والمال
وانما سمى الله سبحانه المال خيرا اذا كان في الخير مصروفا
لان ما ادى الى الخير فهو في نفسه خير وقد اختلف اهل التاويل
في قوله تعالى ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا
عذاب النار فقال السدي وعبد الرحمن بن زيد الحسنة في الدنيا
المال وفي الآخرة الجنة وقال الحسن البصري وسفيان الثوري
الحسنة في الدنيا العلم والعبادة وفي الآخرة الجنة وقال عبد الله
ابن عباس الدراهم والدنانير خواتيم الله تعالى في الارض لا تؤكل
ولا تشرب حيث قصدت بها قضيت حاجتك وقال قيس بن سعد
اللهم ارزقني حمدا ومجدا فانه لا حمد الا بفعال ولا مجد الا بمال
وقيل لابي الزناد لم تحب الدراهم وهي تدنيك من الدنيا فقال هي
وان ادنتني منها فقد صانتني عنها وقال بعض الحكماء من اصلح
ماله فقد صان الاكرمين الدين والعرض • وقيل في منثور
الحكم من استغنى كرم على اهله • ومر رجل من ارباب
الاموال ببعض العلماء فتحرك له واكرمه فقيل بعد ذلك اكانت
لك الى هذا حاجة قال لا ولكني رايت ذا المال مهيبا • وسال رجل
محمد بن عمير بن عطارد وعتاب بن ورقاء في عشر ديات فقال

محمد علي دية وقال عتاب الباقي علي فقال محمد نعم العون
اليسار على المجد • وكان يقال الدراهم مراهم لانها تداوي كل
جرح ويطيب بها كل صلح • وقيل في منثور الحكم الفقر مخذلة
والغنى مجذلة والبوس مرذلة والسوال مبذلة • وقال اوس بن حجر

اقيم بدار الحزم ما دام حزمها … واحرى اذا حالت بان اتحولا •
فاني وجدت الناس الا اقلهم … خفاف عهود يكثرون التنقلا •
بني ام ذي المال الكثير يرونه … وان كان عبدا سيد الامر جحفلا •
وهم لمقل المال اولاد علة … وان كان محضا في العشيرة مخولا •

وقال آخر

اجلك قوم حين صرت الى الغنى … وكل غني في العيون جليل
وليس الغنى الا غنى زين الفتى … عشية يقري او غداة ينيل

وقد اختلف اقوال الناس في تفضيل الغنى والفقر مع اتفاقهم
ان ما احوج من الفقر مكروه وما ابطر من الغنى مذموم • فذهب
قوم الى تفضيل الغنى على الفقر لان الغني مقتدر والفقير عاجز
والقدرة افضل من العجز وهذا مذهب من غلب عليه حب
النباهة • وذهب آخرون الى تفضيل الفقر على الغنى لان الفقير

تارك والغني ملابس وترك الدنيا افضل من ملابستها وهذا حب من غلب عليه حب السلامة. وذهب آخرون الى تفضيل التوسط بين الامرين بان يخرج عن حد الفقر الى ادنى مراتب الغنى ليصل الى فضيلة الامرين ويسلم من مذمة الحالتين وهذا مذهب من يرى تفضيل الاعتدال وان خيار الامور اوساطها وقد مضى من شواهد كل فريق في موضعه ما اغنى عن اعادته ❁

والسبب الثالث ان يطلب الزيادة ويقتني الاموال ليدخرها لولده ويخلفها على ورثته مع شدة ضنه على نفسه وكفه عن صرف ذلك في حقه اشفاقا عليهم من كدح الطلب وسوء المنقلب فهذا شقي بجمعها ماخوذ باثمها قد استحق اللوم واستوجب الذم من وجوه لا تخفى على ذي لب منها سوء ظنه بخالقه في انه لا يرزقهم الا من جهته وقد قتل القنوط صاحبه وفي حسن الظن بالله راحة القلوب. وقال عبد الحميد كيف تبقى على حالتك والدهر في احالتك. ومنها الثقة ببقاء ذلك على ولده مع نوائب الزمان ومصائبه. وقد قيل الدهر حسود لا ياتي على شيء الا غيره. وقد قيل في منثور الحكم المال ملول. وقال بعض الحكماء

الدنيا ان بقيت لكم لم تبقوا لها. ومنها ما حرم من منافع ماله وسلب من وفور حاله. وقد قيل انما مالك لك او للوارث او للجائحة فلا تكن اشقى الثلثة. وقال عبد الحميد اطرح كوارث مالك وكن وارث مالك. ومنها ما لحقه من شقاء جمعه ونال من عناء كده حتى صار ساعيا محروما وجاهدا مذموما وقيل رب مغبوط بمسرة هي داؤه ومرحوم من سقم هو شفاؤه وقال الشاعر ❁

وما كلفته النفس فوق كفافها ❁ فما ينقضي حتى الممات عناؤه ❁

ومنها ما يواخذ به من وزره واثامه ويحاسب عليه من تبعاته واجرامه كما حكي ان هشام بن عبد الله لما ثقل بكى عليه ولده فقال لهم جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم عليه بالبكاء وترك لكم ما كسب وتركتم عليه ما اكتسب ما اسوء حال هشام ان لم يغفر الله له فاخذ هذا المعنى محمود الوراق فقال ❁

تمتع بما لك قبل الممات ❁ والا فلا مال ان انت متنا

شقيت به ثم خلفته ❁ لغيرك بعدا وسحقا ومقتا

فجادوا عليك بزور البكا ❁ وجدت لهم بالذي قد جمعتا

وارهنتهم كل ما في يديك ❁ وخلوك رهنا بما قد كسبتا ❁

وقد روي أن العباس بن عبد المطلب جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له يا رسول الله ولّني فقال له رسول الله يا عباس يا عم النبي قليل تكفيك خير من كثير يؤذيك. يا عباس يا عم النبي نفس تحييها خير من إمارة لا تحصيها. يا عباس يا عم النبي إن الإمارة أولها ندامة وأوسطها ملامة وآخرها خزي يوم القيامة فقال يا رسول الله إلا من عدل فقال رسول الله وكيف تعدلون مع الأقارب. وقال رجل للحسن البصري رحمه الله إني أخاف الموت وأكره فقال له إنك خلّفت مالك ولو قدمته لسرّك اللحوق به. وقيل في منثور الحكم كثرة مال الميت يعزّي ورثته عنه فأخذ هذا المعنى ابن الرومي فقال

بقيت مالك ميراثًا لوارثه ... فليت شعري ما أبقى لك المال

القوم بعدك في حال تسرّهم ... فكيف بعدهم حالت بك الحال

ملّوا البكاء فما يبكيك من أحد ... واستحكم القول في الميراث والقال

ولتهم عنك دنيا أقبلت لهم ... وأدبرت عنك والأيام أحوال

والسبب الرابع أن يجمع المال ويطلب المكاثرة استحلاء لجمعه وشغفًا باحتجابه فهذا أسوأ الناس حالًا فيه وأشدهم حرمانًا له قد

ومذاما

قال عمر أنا أعلم لكم ذلك فقال يا رسول الله إن أصحابك قد شق عليهم فقالوا فأي مال

توجهت إليه سائر الملاوم حتى صار وبالًا عليه ومذامًّا وفي مثله قال الله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم فقال النبي صلى الله عليه وسلم تبًّا للذهب تبًّا للفضة. قال فشق ذلك على أصحاب رسول الله وقالوا فأي مال نتخذ قال عمر أنا أعلم لكم ذلك فقال يا رسول الله إن أصحابك قد شق عليهم وقالوا فأي مال نتخذ فقال لسانًا ذاكرًا وقلبًا شكورًا وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على دينه. وروى شهر بن حوشب عن أبي أمامة قال مات رجل من أهل الصفة فوجد في مئزره دينار فقال النبي صلى الله عليه وسلم كيّة ثم مات آخر فوجد في مئزره ديناران فقال النبي صلى الله عليه وسلم كيّتان. وإنما ذكر ذلك فيهما وإن كانا قد ماتا على عهد من ترك أموالًا جمّة وأحوالًا ضخمة فلم يكن منه فيهم ما كان منه في هذين لأنهما تظاهرا بالقناعة واحتجنا ما ليس بهما إليه حاجة فصار ما احتجباه وزرًا عليهما وعقابًا لهما. وقال الشاعر

إذا كنت ذا مال ولم تك ذا ندى ... فأنت إذًا والمقترون سواء

على أن في الأموال يومًا تباعة ... على أهلها والمقترون براء

وأنشدت عن الربيع للشافعي رضي الله عنه

إنّ الذي رزق اليسار فلم يصب حمداً ولا أجراً لغير موفق
والجد يدني كل شيء شاسع والجد يفتح كل باب مغلق
وأحق خلق الله بالهم امرؤ ذو همة يبلى بعيش ضيق
ومن الدليل على القضاء وكونه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

فآفة من بلي بالجمع والاستكثار ومني بالإمساك والادخار حتى
انصرف عن رشده فغوى وانحرف عن سنن قصده فهوى أن
يستولي حب المال وبعد الأمل فيبعثه حب المال على الحرص في
طلبه ويدعوه بعد الأمل على الشح به والشح والحرص أصلا لكل ذم
وسببا لكل لوم لأن الشح يمنع من أداء الحقوق ويبعث على القطيعة
والعقوق وكذلك قال النبي عليه السلم شر ما أعطي العبد
شح هالع وجبن خالع. وقال بعض الحكماء الغني البخيل
كالقوي الجبان. وأما الحرص فيسلب فضائل النفس لاستيلائه
عليها ويمنع من التوفر على العبادة لتشاغله عنها ويبعث على التورط
في الشبهات لقلة تحرزه منها وهذه ثلاث خلال هي جامعات
الرذائل وسالبات الفضائل مع أن الحريص لا يستزيد بحرصه
زيادة على رزقه سوى إذلال نفسه وإسخاط خالقه. وقد روي
عن النبي عليه السلم أنه قال الحريص الجاهد والقانع الزاهد
يستوفيان أكلهما غير منتقص منه فعلام التهافت في النار
وقال بعض الحكماء الحرص مفسدة للدين والمروءة والله ما رأيت
من وجه رجل حرصاً فرأيت أنه فيه مصطنع. وقال آخر الحريص
أسير مهانة لا يفك أسره. وقال بعض البلغاء المقادير الغالبة
لا تنال بالمغالبة والأرزاق المكتوبة لا تنال بالشدة والمكالبة
فذلل للمقادير نفسك واعلم أنك غير نائل بالحرص إلا حظك وقال
بعض الأدباء رب حظ أدركه غير طالبه ودر أحرزه غير جالبه
وأنشدني بعض أهل الأدب لمحمد بن حازم

يا أسير الطمع الكاذب في غل الهوان. إن عز اليأس خير لك من ذل الأماني
سامح الدهر إذا عز وخذ صفو الزمان. ربما أعدم ذو الحرص وأثرى ذو التواني

وليس للحريص غاية مقصودة يقف عندها ولا نهاية محدودة يقنع بها
لأنه إن وصل بالحرص إلى ما أمل أغراه ذلك بزيادة الحرص والأمل
وإن لم يصل رأى إضاعة الغنى لوماً والصبر عليه حزماً وصار بما
سلف من غناه أقوى رجاء وأبسط أملاً. وقد روي عن النبي عليه
السلم أنه قال يشيب ابن آدم ويشب منه خصلتان الحرص والأمل
وقيل للمسيح عليه السلم ما بال المشايخ أحرص على الدنيا من
الشباب فقال لأنهم ذاقوا من طعم الدنيا ما لم يذقه الشباب

ولو صدق الحريص عقله واستنصح نفسه لعلم ان من تمام السعادة
وحسن التوفيق الرضا بالقضاء والقناعة بالقسم • فقد روي عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اقتصدوا في الطلب فان ما
رزقتموه اشد طلبا منكم وما حرمتموه فلن تنالوه ولو حرصتم • روي
ان جبريل هبط على النبي عليهما السلم فقال ان الله تعالى يقرأ عليك
السلم ويقول اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم لا تمدن عينيك الى ما
متعنا به ازواجا منهم زهرة الحيوة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك
خير وابقى • فامر النبي صلى الله عليه وسلم مناديا فنادى من لم
يتادب باداب الله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات • وقيل
مكتوب في بعض الكتب ردوا ابصاركم عليكم فان لكم فيها شغلا • وقال
مجاهد في تاويل قوله تعالى فلنحيينه حيوة طيبة • قال بالقناعة وقال
اكثم بن صيفي من باع الحرص بالقناعة ظفر بالغنى والثروة • وقال
بعض السلف قد يخيب الجاهد الساعي ويظفر الوادع الهادي

فاخذه البحتري فقال

لم الق مقدورا على استحقاقه في الحظ اما ناقصا او زائدا
وعجبت للمجدود يحرم ناصبا كلفا وللمجدود يغنم قاعدا
ما خطب من حرم الارادة واجدا خطب الذي حرم الارادة جاهدا

لكم

لك

وقال بعض الحكماء ان من قنع كان غنيا وان كان فقيرا ومن لم
يقنع كان فقيرا وان كان مكثرا وقال بعض البلغاء اذا طلبت
العز فاطلبه بالطاعة واذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة فمن
اطاع الله عز وجل عز ولزم القناعة زال فقره وقال بعض الادباء
القناعة عز المعسر والصدقة حرز الموسر وقال بعض الشعراء

اني ارى من له قنوع يدرك ما نال من تمنى
والرزق ياتي بلا عناء وربما فات من تعنى

والقناعة قد تكون على ثلثة اوجه الاول ان يقنع بالبلغة من
دنياه ويصرف نفسه عن التعرض لما سواه وهذا اعلى منازل
اهل القناعة وقد روي عن علي بن ابي طالب كرم الله وجهه انه
قال اذا شئت ان تحيى غنيا فلا تكن في حالة الا رضيت بدونها
وقال مالك بن دينار رضي الله عنه ازهد الناس من لم تجاوز
رغبته من الدنيا بلغته وقال بعض الحكماء الرضا بالكفاف
يؤدي الى العفاف وقال بعض الادباء رب ضيق افضل من
سعة وعناء خير من دعة وانشدني بعض اهل الادب وذكر
انه لعلي بن ابي طالب رضوان الله عليه

غنا

افادتني القناعة كل عز واي غنى اعز من القناعة

فصبرها لنفسك رأس مال ❊ وصبر بعدها التقوى بضاعة

تحز حين تغني عن بخيل ❊ وتنعم في الجنان بصبر ساعة

والوجه الثاني أن تنتهي به القناعة إلى الكفاية وتحذف الفضول الزائد وهذا أوسط أحوال المقتنع. وقد روي عن النبي عليه السلم أنه قال ما من عبد إلا بينه وبين رزقه حجاب فإن قنع واقتصد أتاه رزقه وإن هتك الحجاب لم يزد في رزقه. وقال بعض الحكماء طلب ما فوق الكفاف إسراف. وقال بعض البلغاء من رضي بالمقدور قنع بالميسور. وقال البحتري

يطلب الأكثر في الدنيا وقد ❊ تبلغ الحاجة منها بالأقل

وأنشدت لابرهيم بن المنذر

إن القناعة والعفاف ليغنيان عن الغنى ❊ فإذا صبرت عن المنى فاشكر فقد نلت المنى

والوجه الثالث أن تنتهي به القناعة إلى الوقوف على ما سنح فلا يكره ما أتاه وإن كان كثيرا ولا يطلب ما تعذر وإن كان يسيرا وهذه الحال أدنى منازل أهل القناعة لأنها مشتركة بين رغبة ورهبة. أما الرغبة فلأنه لا يكره الزيادة على الكفاية إذا سنحت وأما الرهبة فلأنه لا يطلب المتعذر عن نقصان المادة إذا تعذرت

المقنع

وفي مثله قال ذو النون من كانت قناعته سمينة طابت له كل مرقة. وقد روى علي بن الحسين بن علي عن أبيه عن جده عليهم السلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا دول فما كان منها لك أتاك على ضعفك وما كان منها عليك لم تدفعه بقوة ومن انقطع رجاؤه مما فات استراح بدنه ومن رضي بما رزقه الله قرت عينه. وقال أبو حازم الأعرج وجدت الدنيا شيئين شيئا هو لي لن أعجله قبل أجله ولو طلبته بقوة السموات والأرض وشيئا هو لغيري وذلك مما لم أنله فيما مضى ولا آتاه فيما بقي يمنع الذي لي من غيري كما يمنع الذي لغيري مني ففي أي هذين أفني عمري وأهلك نفسي. وقال أبو تمام الطائي

لا تأخذني بالزمان فليس لي ❊ تبعا ولست على الزمان كفيلا

ومن زاحف الأيام ثم عنى لها ❊ غير القناعة لم يزل مغلولا

من كان مرعى عزمه وهمومه ❊ روض الأماني لم يزل مهزولا

لو جار سلطان القنوع وحكمه ❊ في الخلق ما كان القليل قليلا

الرزق لا تكمد عليه فإنه ❊ يأتي ولم تبعث إليه رسولا

وأنشدني بعض أهل الأدب لابن الرومي

جرى قلم القضاء بما يكون ❊ فسيان التحرك والسكون

جنون منك أن تسعى لرزق ويرزق في غشاوته الجنين

ونحن نسأل الله تعالى أكرم مسؤول وأفضل مأمول أن يحسن لنا التوفيق فيما منح ويصرف عنا الرغبة فيما منع استكفافا لتبعات الثروة وموبقات الشهوة • وروى شريك بن أبي نمر عن أبي الجدع عن أعمامه وأجداده عن النبي عليه السلم أنه قال خيار أمتي الذين لم يعطوا حتى يبطروا ولم يقتر عليهم حتى يسألوا وقال أبو تمام الطائي

عندي من الأيام ما لو أنه أضحى لشارب مرقد ما غمضا

لا تطلبن الرزق بعد شماسه فترومه شعبا إذا ما غيضا

ما عوض الصبر امرؤ إلا رأى ما فاته دون الذي قد عوضا

باب أدب النفس

إن النفس مجبولة على شيم مهملة وأخلاق مرسلة لا يستغني محمودها عن التأديب ولا يكتفي بالمرضي منها عن التهذيب لأن لمحمودها أضدادا مقابلة يسعدها هوى مطاع وشهوة غالبة فإن أغفل تأديبها تفويضا إلى العقل أو توكلا على أن تنقاد إلى الأحسن بالطبع أعدمه التفويض درك المجتهدين وأعقبه التوكل ندم الخائبين فصار من الأدب عاطلا وفي صورة الجهل داخلا لأن أكثر

الأدب مكتسب بالتجربة أو مستحسن بالعادة ولكل قوم مواضعة وكل ذلك لا ينال بتوقيف العقل ولا بالانقياد للطبع حتى يكتسب بالتجربة والمعاناة ويستفاد بالدربة والمعاطاة ثم يكون العقل عليه قيما وزكي الطبع إليه سلما ولو كان العقل مغنيا عن الأدب لكان أنبياء الله تعالى عن أدبه مستغنين وبعقولهم مكتفين • وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إني بعثت لأتمم مكارم الأخلاق • وقيل لعيسى بن مريم عليه السلم من أدبك قال ما أدبني أحد رأيت جهل الجاهلين فاجتنبته • وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إن الله تعالى جعل مكارم الأخلاق ومحاسنها وصلا بينه وبينكم فحسب الرجل أن يتصل من الله تعالى بخلق منها • وقال أردشير بن بابك من فضيلة الأدب أنه ممدوح بكل لسان ومتزين به في كل مكان وباق ذكره على أيام الزمان • وقال مهبود شبه العالم الشريف العديم الأدب بالبنيان الخراب الذي كلما علا سمكه كان أشد لوحشته وكالنهر اليابس الذي كلما اعترض وأعمق كان أشد لوعورته وبالأرض الجيدة المعطلة التي كلما طال خرابها ازداد نباتها غير المنتفع به التفافا وقد صار للهوام مسكنا • وقال ابن المقفع ما نحن إلى ما نتقوى به على حواسنا من

كان

المطعم والمشرب باحوج منا الى الادب الذي هو لقاح عقولنا
فان الحبة المدفونة في الثرى لا تقدر ان تطلع زهرتها ونضارتها
الا بالماء الذي يعود اليها من مستودعها. وحكى الاصمعي ان
اعرابيا قال لابنه يا بني الادب دعامة ايد الله تعالى بها الالباب
وحلية زين الله بها عواطل الاحساب فالعاقل لا يستغني وان
صحت غريزته عن الادب المخرج زهرته كما لا تستغني الارض وان
عذبت تربتها عن الماء المخرج ثمرتها. وقال بعض الحكماء الادب
صورة العقل فصور عقلك كيف شئت. وقال آخر العقل بلا ادب
كالشجر العاقر ومع الادب كالشجر المثمر. وقيل الادب احد المنصبين
وقال بعض الادباء ذك قلبك بالادب كما تذكى النار بالحطب واتخذ
الادب غنما والحرص عليه حظا يرتجيك راغب ويخاف صولتك راهب
ويرجى فضلك ويؤمل عدلك. وقال بعض البلغاء الفضل بالعقل
والادب لا بالاصل والحسب والنسب لان من ساء ادبه ضاع
نسبه ومن قل عقله ضل اصله. وقال بعض العلماء الادب وسيلة
الى كل فضيلة وذريعة الى كل شريعة. وقال بعض الفصحاء الادب
يستر قبح النسب وقال بعض الشعراء

فما خلق الله مثل العقول ولا اكتسب الناس مثل الادب

وما كرم المرء الا التقى ولا حسب المرء الا النسب
وفي العلم زين لاهل الحجى وآفة ذي الحلم طيش الغضب

وانشد الاصمعي

ان يكن العقل فلست ارى ذا العقل مستغنيا عن حادث الادب
اني رأيتهما كالماء مختلطا بالترب تظهر عنه زهرة العشب
وكل من اخطاته في مواليده غريزة العقل حاكى البهم في النسب

مولودا

والتأديب يلزم من وجهين احدهما ما لزم الوالد للولد في صغره
والثاني ما لزم الانسان في نفسه عند نشوه وكبره. فاما التأديب
اللازم للاب فهو ان ياخذ ولده بمبادي الادب ليأنس بها وينشأ عليها
ويسهل عليه عند الكبر قبولها لاستئناسه بمباديها في الصغر
لان نشأ الصغير على الشي يجعله متطبعا به ومن اغفل في الصغر
كان تأديبه في الكبر عسيرا. وقد روي عن النبي عليه السلم انه قال
ما نحل والد ولده نحلة افضل من ادب حسن يفيده اياه او جهل قبيح
يكفه عنه ويمنعه منه. وقال بعض الحكماء بادروا بتاديب الاطفال
قبل تراكم الاشغال وتفرق البال. وقال بعض الشعراء

قد ينفع الادب الاحداث في مهل وليس ينفع بعد الشيبة الادب
ان الغصون اذا قومتها اعتدلت ولا يلين اذا قومته الخشب

وقال آخر: ينشو الصغير على ما كان والده ... إن الأصول عليها ينبت الشجر

وأما الأدب اللازم للإنسان عند نشوه وكبره فأدبان: أدب مواضعة
واصطلاح، وأدب رياضة واستصلاح. فأما أدب المواضعة والاصطلاح
فيوجد تقليداً على ما استقر اصطلاح العقلاء، واتفق عليه استحسان
الأدباء، وليس لاصطلاحهم على وضعه تعليل مستنبط، ولا لاتفاقهم
على استحسانه موجب كاصطلاحهم على مواضعات الخطاب واتفاقهم
على هيئات اللباس، حتى إن الإنسان الآن إذا تجاوز ما اتفقوا عليه
منها صار مجانباً للأدب مستوجباً للذم؛ لأن فراق المألوف في العادة
ومجانبة ما صار متفقاً عليه بالمواضعة مفض إلى استحقاق الذم
بالعقل ما لم يكن لمخالفته علة ظاهرة ومعنى حادث. وقد كان
جائزاً في العقل أن يوضع ذلك على غير ما اتفقوا عليه ويرونه حسناً
ويرون ما سواه قبيحاً، فصار هذا مشاركاً لما وجب بالعقل حيث
توجه الذم على تاركه ومخالفه من حيث إنه كان جائزاً في العقل
أن يوضع على خلافه. وأما أدب الرياضة والاستصلاح فهو ما كان
محمولاً على حال لا يجوز في العقل أن يكون بخلافها ولا أن تختلف العقلاء
في صلاحها وفسادها، وما كان كذلك فتعليله بالعقل مستنبط
ووضوح صحته بالدليل مرتبط، والنفس على ما يأتي من ذلك شاهد

دليل

له

ألهمها الله إرشاداً لها، قال الله تعالى: فألهمها فجورها وتقواها.
قال ابن عباس: بين لها ما تأتي من الخير وتذر من الشر. وسنذكر
تعليل كل شيء في موضعه فإنه أولى به وأحق. فأول مقدمات
أدب الرياضة والاستصلاح أن لا يسبق إلى حسن الظن بنفسه
فيخفى عنه مذموم شيمه ومساوي أخلاقه؛ لأن النفوس بالشهوات
آمرة وعن الرشد زاجرة. وكذا قال الله تعالى: إن النفس لأمارة
بالسوء إلا ما رحم ربي. قال النبي صلى الله عليه وسلم: أعدى
عدوك نفسك التي بين جنبيك ثم أهلك ثم عيالك. ودعت أعرابية
لرجل فقالت: كبت الله كل عدو لك إلا نفسك. فأخذه بعض الشعراء فقال:

قلبي إلى ما ضرني داعي ... يكثر أسقامي وأوجاعي
كيف احتراسي من عدوي إذا ... كان عدوي بين أضلاعي

وإذا كانت النفس كذلك فحسن الظن بها ذريعة إلى تحكيمها، وتحكيمها
داع إلى سلاطتها وفساد الأخلاق بها. وإذا صرف حسن الظن
عنها وتوسمها بما هي عليه من التسويف والمكر فاز بطاعتها وانحاز
عن معصيتها. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: العاجز
من عجز عن سياسة نفسه. وقال بعض الحكماء: من ساس نفسه

سادناسه. فأما سوء الظن بها فقد اختلف الناس فيه فمنهم من
كرهه لما فيه من اتهام طاعتها ورد مناصحها والنفس وإن كان
لها مكر يردي فلها نصح يهدي فلما كان حسن الظن بها يعمي
عن مساويها كان سوء الظن بها يعمي عن محاسنها ومن عمي عن
محاسن نفسه كان كمن عمي عن مساويها فلم ينف عنها قبيحا ولم يهد
إليها حسنا. وقد قال الجاحظ في كتاب البيان يجب
على الإنسان أن يكون في التهمة لنفسه معتدلا وفي حسن الظن
بها مقتصدا فإنه إن تجاوز مقدار الحق في التهمة ظلمها فأودعها
ذلة المظلومين وإن تجاوز بها الحق في مقدار حسن الظن أودعها
تهاون الآمنين ولكل ذلك مقدار من الشغل ولكل شغل مقدار
من الوهن ولكل وهن مقدار من الجهل. وقال الأحنف بن
قيس من ظلم نفسه كان لغيره أظلم ومن هدم دينه كان
لمجده أهدم. وذهب قوم إلى أن سوء الظن بها أبلغ في
صلاحها وأوفر في اجتهادها لأن للنفس جورا لا ينكف إلا
بالسخط عليها وغرورا لا ينكشف إلا بالتهمة لها لأنها مجبولة
تجور إذا لم تغر وتغر مكرا فإن لم يسئ الظن غلب عليه جورها

بها

ونموه عليه غرورها فصار بمسورها قانعا وبالشبه من أفعالها
راضيا. وقد قالت الحكماء من رضي عن نفسه أسخط عليه
الناس. وقال كشاجم

لم أرض نفسي مخافة سخطها ورضى الفتى عن نفسه إغضابها
ولو انني عنها رضيت لقصرت عما تريد بمثلها آدابها
وتبينت آثار ذاك فأكثرت عذلي عليه وطال فيه عتابها

وقد استحسن قول أبي تمام الطائي

ويسيء بالإحسان ظنا لا كمن هو بابنه وبشعره مفتون

فلم يروا إساءة ظنه بالإحسان ذما ولا استقلال علمه لوما بل
رأوا ذلك أبلغ في الفضل وأبعث على الازدياد فإذا عرف من نفسه
ما عجز وتصور منها ما أمكن ولم يبطأ عنها بالعجب إذا كان غيا ولا صرف
عنها ما يكره إذا كان رشدا فقد ملكها بعد أن كان في ملكها وغلبها
بعد أن في غلبتها. وقد روى أبو حازم عن أبي هريرة قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم الشديد من غلب نفسه. وقال
عبد الله بن عون إذا عصتك نفسك فيما كرهت فلا تطعها فيما
أحبت ولا يغرنك ثناء من جهل أمرك. وقال بعض البلغاء من
قوي على نفسه تناهى في القوة ومن صبر عن شهوته بالغ في المروءة

فحينئذ يأخذ نفسه عند معرفة ما اكتنّ وخبرة ما اجتنّ
بتقويم عوجها واصلاح فاسدها فقد روي عن عائشة رضوان
الله عليها انها قالت يا رسول الله متى يعرف الانسان ربه قال
اذا عرف نفسه • ثم يراعي منها ما صلح واستقام من زيغ يحدث
عن اغفال او ميل يكون عن اهمال ليتمّ له الصلاح ويستديم له
الاستقامة فان المغفل بعد المعاناة ضائع والمهمل بعد المراعاة
زائغ • وسنذكر من احوال ادب الرياضة والاستصلاح فصولا
يحتوي على ما يلزم مراعاته من الاخلاق ويجب معاناته من
الآداب وهي ستة فصول متفرعة

الفصل الاول

في مجانبة الكبر والاعجاب

لانهما يسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل وليس لمن استوليا
عليه اصغاء لنصح ولا قبول لتأديب لان الكبر يكون بالمنزلة
والعجب يكون بالفضيلة فالمتكبر يجل نفسه عن رتبة المتعلمين
والمعجب يستكثر فضله عن استزادة المتأدبين ولذلك وجب
تقديم القول فيهما بابانة ما يكسبانه من ذم ويوجبانه من
لوم فنقول اما الكبر فيكسب المقت ويلهي عن التألف و

يوغر صدور الاخوان وحسبك بذلك سوءا عن استقصاء ذمه
ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمه العباس انهاك
عن الشرك بالله والكبر فان الله يحتجب منهما • وقال اردشير
ابن بابك ما الكبر الا فضل حمق لم يدر صاحبه اين ذهب به
فصرفه الى الكبر وما اشبه ما قال بالحق • حكي ان مطرف
ابن عبد الله بن الشخير نظر الى المهلب بن ابي صفرة وعليه
حلة يسحبها ويمشي الخيلاء فقال له يا ابا عبد الله ما هذه المشية
التي يبغضها الله ورسوله فقال المهلب اوما تعرفني قال بلى اعرفك
اولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وحشوك ما بين ذلك
بول وعذرة فاخذ ابن عون هذا الكلام فنظمه شعرا فقال

عجبت من معجب بصورته ... وكان بالامس نطفة مذرة ⁂
وفي غد بعد حسن هيئته ... يصير في اللحد جيفة قذرة
وهو على تيهه ونخوته ... ما بين ثوبيه يحمل العذرة ⁂

وقد كان المهلب افضل من ان يخدع نفسه بهذا الجواب ولكنها
زلة من زلات الاسترسال وخطية من خطايا الادلال
فاما الحمق الصريح والجهل القبيح فهو ما حكي عن نافع بن جبير
ابن مطعم انه جلس في حلقة العلاء بن عبد الرحمن الحرقي

وهو يقرئ الناس فلما فرغ قال أتدرون لم جلست إليكم قالوا
جلست لتسمع قال لا ولكني أردت أن أتواضع لله بالجلوس إليكم
فهل يرجى من مثل هذا فضل أو ينفع فيه عذل ۞ وقد قال ابن
المعتز لما عرف أهل النقص حالهم عند ذوي الكمال استعانوا
بالكبر ليعظم صغيرا ويرفع حقيرا وليس بفاعل ۞ وأما الإعجاب
فيخفي المحاسن ويظهر المساوي ويكسب المذام ويصد عن
الفضائل ۞ وقد روي عن النبي عليه السلام أنه قال إن العجب
ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ۞ وقال علي بن أبي
طالب رضوان عليه الإعجاب ضد الصواب وآفة الألباب
وقال بزرجمهر النعمة التي لا يحسد صاحبها عليها التواضع والبلاء
الذي لا يرحم صاحبه منه العجب ۞ وقال بعض الحكماء عجب
المرء بنفسه أحد حساد عقله ۞ وليس لما يكسبه الكبر من
المقت حد ولا لما ينتهي إليه العجب من الجهل غاية حتى إنه
ليطمس من المحاسن ما انتشر ويسلب من الفضائل ما اشتهر
وناهيك بسيئة تحبط كل حسنة وبمذمة تهدم كل فضيلة
مع ما يثير من حنق ويكسبه من حقد ۞ حكى عمر بن حصين
قال قيل للحجاج كيف وجدت منزلك بالعراق قال خير منزل

الله

لو كان الله بلغني أربعة فتقربت إليه بدمائهم قبلك ومن هم
قال مقاتل بن مسمع ولي سجستان فأتاه الناس فأعطاهم
الأموال فلما عزل دخل مسجد البصرة فبسط له الناس أرديتهم
فمشى عليها لرجل يماشيه وعبيد الله
ابن زياد بن ظبيان التيمي خوف أهل البصرة أمرا فخطب خطبة
أوجز فيها فنادى الناس من أعراض المسجد أكثر الله فينا أمثالك
فقال لقد كلفتم الله شططا ۞ ومعبد بن زرارة كان ذات يوم
جالسا في طريق فمرت به امرأة فقالت يا عبد الله كيف الطريق
إلى موضع كذا فقال يا هنتاه مثلي يكون من عبيد الله ۞ وأبو سماك
الأسدي ضلت راحلته فالتمسها الناس فلم يجدوها فقال والله
لئن لم يرد علي راحلتي لا صليت له أبدا فالتمسها الناس حتى
وجدوها فقالوا له قد رد الله راحلتك فصل إن يميني يمين مصر
انظر إلى هؤلاء كيف أفضى بهم العجب إلى حمق صاروا به نكالا
في الأولين ومثلا في الآخرين ولو تصور المعجب المتكبر ما فطر
عليه من جبلة وبلي به من مهنة لخفض جناح نفسه واستبدل
لينا من عتوه وسكونا من نفوره ۞ قال الأحنف بن قيس عجبت
لمن جرى في مجرى البول مرتين كيف يتكبر ۞ وقد وصف

وقال

فقال

بعض الشعراء الانسان فقال ۞

۞ يا مظهر الكبر اعجابا بصورته ۞ ابطن خلاك فان النتن تثريب ۞

لو فكر الناس فيما في بطونهم ۞ ما استشعر الكبر شبان ولا شيب

هل في ابن آدم مثل الراس مكرمة ۞ وهو بخمس من الاقذار مضروب

انف يسيل واذن ريحها سهك ۞ والعين مرمصة والثغر ملعوب

۞ يا ابن التراب وماكول التراب غدا ۞ اقصر فانك ماكول ومشروب ۞

واحق من كان للكبر مجانبا وللاعجاب مباينا من جل في الدنيا قدره وعظم فيها خطره لانه قد يستقل بعالي همته كل كثير ويستصغر معها كل كبير وقد قال محمد بن علي لا ينبغي للشريف ان يرى شيئا من الدنيا لنفسه خطرا فيكون به تائها وقال ابن السماك لعيسى بن موسى تواضعك في شرفك اشرف لك من شرفك ۞ وكان يقال اسمان متضادان بمعنى واحد التواضع والشرف ۞ وللكبر اسباب فمن اقوى اسبابه علو اليد ونفاذ الامر وقلة مخالطة الاكفاء ۞ وحكي ان قوما مشوا خلف علي بن ابي طالب رضي الله عنه فقال ابعدوا عني خفق نعالكم فانها مفسدة لقلوب نوكى الرجال ۞ ومشوا خلف ابن مسعود فقال ارجعوا فانها ذلة للتابع وفتنة للمتبوع

وروى قيس بن ابي حازم ان رجلا اتى النبي عليه السلم فاصابته رعدة فقال النبي صلى الله عليه وسلم هون عليك فانما انا ابن امراة كانت تاكل القديد وانما قال ذلك حسما لمواد الكبر وقطعا لذرائع الاعجاب وكسرا لاشراب النفس وتذليلا لسطوة الاستعلاء ۞ ومثل ذلك ما روي عن عمر بن الخطاب رضوان الله عليه انه نادى الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس صعد المنبر فحمد الله واثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم قال ايها الناس لقد رايتني ارعى على خالات لي من بني مخزوم فتقبض لي القبضة من التمر والزبيب فاظل عليها اليوم فقال له عبد الرحمن بن عوف والله يا امير المومنين ما زدت على ان قصرت بنفسك فقال له عمر ويحك يا ابن عوف اني خلوت بنفسي فحدثتني نفسي فقالت انت امير المومنين فمن ذا افضل منك فاردت ان اعرفها نفسها ۞ وللاعجاب اسباب فمن اقوى اسبابه كثرة مديح المتقربين واطراء المتملقين الذين قد جعلوا النفاق مادة ومكسبا والتملق خديعة وملعبا فاذا وجدوه مقبولا في العقول الضعيفة اغروا اربابها باعتقاد كذبهم وجعلوا ذلك ذريعة الى الاستهزاء بهم ۞ وروى عن النبي عليه السلم

أنه سمع رجلاً يزكي رجلاً فقال له قطعت مطاه لو سمعها ما أفلح
بعدها • وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه المدح ذبح
وقال ابن المقفع قابل المدح كمادح نفسه • وروي عن النبي
عليه السلم أنه قال إياكم والتمادح فإنه الذبح إن أحدكم
يمدح أخاه لا محالة فليقل أحسب ولا أزكي على الله أحداً
وقال بعض الحكماء من رضي أن يمدح بما ليس فيه فقد أمكن
الساخر منه • وقيل فيما أنزل الله تعالى من الكتب السالفة
عجب لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح وعجب لمن قيل
فيه الشر وهو فيه كيف يغضب • وقال بعض الشعراء

يا جاهلاً غره إفراط مادحه • لا يغلبن جهل من أطراك علمك بك
أثنى وقال بلا علم أحاط به • وأنت أعلم بالمحصول من ريبك

وهذا أمر ينبغي للعاقل أن يضبط نفسه عن أن يستفزها
ويمنعها من تصديق المدح لها فإن للنفس ميلاً إلى حب الثناء
وسماع المدح • قال الشاعر

يهوى الثناء مبرز ومقصر • حب الثناء طبيعة الإنسان

وإذا سامح نفسه في هذه الصبوة وتابعها على هذه الشهوة
تشاغل بها عن الفضائل الممدوحة ولها بها عن المحاسن الممنوحة

فصار الظاهر من مدحه كذباً والباطن من ذمه صدقاً
وعند تقابلهما يكون الصدق ألزم الأمرين وهذه خدعة لا
يرتضيها عاقل ولا ينخدع بها مميز • وليعلم أن المتميز بالمدح
يسرق مع القبول ويكف مع الإباء ولا يغلبه حسن الظن على
تصديق مدح هو أعرف بحقيقته ولتكن تهمة المادح أغلب
عليه فقل مدح كان جميعه صدقاً وقل ثناء كان كله حقاً
ولذلك كره أهل الفضل أن يطلقوا ألسنتهم بالثناء والمدح
تحرزاً من التجوز فيه وتنزهاً عن التملق به • وقد روى مكحول
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكونوا عيابين ولا
تكونوا لعانين ولا متمادحين ولا متماوتين • وحكى الأصمعي
أن أبا بكر الصديق رضوان الله عليه كان إذا مدح قال اللهم
أنت أعلم بي من نفسي وأنا أعلم بنفسي منهم اللهم اجعلني خيراً
مما يحسبون واغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون
• وقال بعض الشعراء •

إذا المرء لم يمدحه حسن فعاله • فمادحه يهذي وإن كان مفصحا

وربما آل حب المدح بصاحبه إلى أن يصير مادح نفسه إما

لتوهمه ان الناس قد غفلوا عن فضله واخلوا بحقه واما ليخدعهم بتدليس
نفسه فيعتقدوا ان قوله حق متبع وصدق مستمع واما ليتلذذ
بسماع الثناء ويسر نفسه بالمدح والاطراء كما يتغنى لنفسه طربا
اذا لم يسمع صوتا مطربا ولا غناء ممتعا ولاي ذلك كان فهو الجهل
الصريح والنقص الفاضح وقال بعض الشعراء

وما شرف ان يمدح المرء نفسه ولكن اعمالا تذم وتمدح
وما كل حين يصدق المرء ظنه ولا كل اصحاب التجارة يربح
وما كل من ترجو لغيبك حافظا ولا كل من ضم الوديعة يصلح

وينبغي للعاقل ان يسترشد اخوان الصدق الذين هم اصفياء القلوب
ومرايا المحاسن والعيوب على ما ينبهونه عليه من مساويه التي
صرفه حسن الظن عنها فانهم امكن نظرا واسلم فكرا ويجعل ما
ينبهونه عليه من مساويه عوضا عن تصديق المدح فيه وقد
روى انس بن مالك عن النبي عليه السلم انه قال المومن مراة
المومن اذا راى فيه عيبا اصلحه وكان عمر بن الخطاب رضي الله
عنه يقول رحم الله امرا اهدى الينا مساوينا وقيل لبعض
الحكماء اتحب ان تهدى اليك عيوبك قال نعم من ناصح ومما
يقارب هذا المعنى والقول ما روي عن عمر انه قال لابن عباس

رضي الله عنهما من ترى ان نوليه حمصا قال رجلا صحيحا منك
صحيحا لك قال فكن انت ذلك الرجل فقال لا تنتفع بي مع سوء ظني
بك وسوء ظنك بي وقد قيل في منثور الحكم من اظهر عيب نفسه
فقد زكاها فاذا قطع اسباب الكبر وحسم مواد العجب اعتاض
بالكبر تواضعا وبالعجب توددا وذلك من اوكد اسباب الكرامة
واقوى مواد النعم وابلغ شافع الى القلوب يعطفها الى المحبة ويثنيها
عن البغضة وقال بعض الحكماء من برئ من ثلث نال ثلثا من
برئ من الشر نال العز ومن برئ من البخل نال الشرف
ومن برئ من الكبر نال الكرامة وقال مصعب بن الزبير التواضع
من مصايد الشرف وقيل في منثور الحكم من دام تواضعه
كثر صديقه وقد تحدث المنازل والولايات لقوم اخلاقا مذمومة
يظهرها سوء طباعهم ولاخرين فضايل محمودة يبعث عليها زكي
شيمهم لان لتقلب الاحوال سكرة تظهر من الاخلاق مكنونها ومن
السرائر مخزونها لا سيما اذا هجمت بغير تدريج وطرقت من غير
تاهب وقد قال بعض الحكماء في تقلب الاحوال تعرف جواهر
الرجال وقال الفضل بن سهل من كانت ولايته فوق قدره تكبر
لها ومن كانت ولايته دون قدره تواضع لها وقال بعض البلغاء

الناس في ولايته رجلان رجل يجل عن العمل بفضله ومروته ورجل
يجل بالعمل لنقصه ودناءته فمن جل عن عمله ازداد به تواضعا
وبشرا ومن جل بعمله لبس به تجبرا وكبرا

الفصل الثاني في حسن الخلق

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان
الله تعالى اختار لكم الاسلام دينا فاكرموه بحسن الخلق والسخاء
فانه لا يكمل الا بهما. وقال الاحنف بن قيس الا اخبركم بادوا
الداء قالوا بلى قال الخلق الدني واللسان البذي. وقال بعض
الحكماء من ساء خلقه ضاق رزقه وعلة هذا القول ظاهرة
وقال بعض البلغاء الحسن الخلق من نفسه في راحة والناس منه
في سلامة والسيء الخلق الناس منه في بلاء وهو من نفسه في عناء
وقال بعض الادباء عاشر اهلك باحسن اخلاقك فان الثواء فيهم قليل

قال الشاعر

اذا لم تتسع اخلاق قوم يضيق بهم الفسيح من البلاد

اذا ما المرء لم يخلق لبيبا فليس اللب عن قدم الولاد

واذا حسنت اخلاق الانسان كثر مصافوه وقل معادوه فتسهلت
عليه الامور ولانت له القلوب الغضاب (الصعاب) وقد روى عن النبي صلى
الله عليه وسلم انه قال حسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار
ويزيدان في الاعمار وقال بعض الحكماء في سعة الاخلاق كنوز

الارزاق. وسبب ذلك ما ذكرناه من كثرة الاصفياء المسعدين وقلة
الاعداء المجحفين ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم احبكم الى
احاسنكم اخلاقا الموطاون اكنافا الذين يالفون ويولفون. وحسن
الخلق ان يكون سهل العريكة لين الجانب طلق الوجه قليل النفور طيب
الكلمة وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الاوصاف فقال
اهل الجنة كل هين لين سهل طلق. ولما ذكرناه من هذه الاوصاف
حدود مقدرة ومواضع مستحقة. كما قال الشاعر

اصفو واكدر احيانا لمختبري وليس مستحسنا صفو بلا كدر

وليس يريد الكدر الذي هو البذاء او شراسة الخلق فان ذلك ذم له
يستحسن وعيب له يرتضى وانما يريد الكف والانقباض في موضع
يلام فيه المساعد ويذم فيه المرافق فاذا كانت لمحاسن الاخلاق
حدود مقدرة ومواضع مستحقة فان تجاوز بها صارت ملقا
وان عدل بها عن مواضعها صارت نفاقا والملق ذل والنفاق لوم
وليس لمن وسم بهما ود مبرور ولا اثر مشكور. وقد روى حكيم
عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم شر
الناس ذو الوجهين الذي ياتي هولاء بوجه وهولاء بوجه. وروى
مكحول عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

لا ينبغي لذي وجهين أن يكون وجيهاً عند الله. وقال سعيد بن أبي عروبة
لأن يكون لي نصف وجه ونصف لسان على ما فيهما من قبح المنظر وعجز
المخبر أحب إلي من أن أكون ذا وجهين وذا لسانين وذا قولين مختلفين

قال الشاعر
خل النفاق لأهله وعليك فالتمس الطريقا
وارغب بنفسك أن ترى إلا عدواً أو صديقا

وقال ابرهيم بن محمد
وكم من صديق وده بلسانه خؤون بظهر الغيب لا يتذمم
كذلك ذو الوجهين يرضيك شاهداً وفي غيبه إن غاب صاب وعلقم

وربما تغير حسن الوطا إلى الشراسة والبذاء لأسباب عارضة
وأمور طارئة تجعل اللين خشونة والوطاء غلظة والطلاقة عبوساً
فمن أسباب ذلك الولاية التي قد تحدث في الأخلاق تغيراً وعلى
الخلطاء تنكراً إما من لؤم طبع وإما من ضيق صدر. وقد قيل
من تاه في ولايته ذل في عزله. وقيل ذل العزل يضحك من تيه الولاية
ومنها العزل فقد يسوء به الخلق ويضيق به الصدر إما لشدة
أسف أو لقلة صبر. حكى حميد الطويل أن عمار بن ياسر عزل
عن ولاية فاستثقل عليه وقال إني وجدتها حلوة الرضاع مرة الفطام
ومنها الغنى فقد تتغير به أخلاق اللئيم بطراً وتسوء طرائقه أشراً

ذلك

وقد قيل من نال استطال. وأنشد الرياشي
غضبان يعلم أن المال ساق له ما لم يسقه له دين ولا خلق
فمن يكن عن كرام الناس يسألني فأكرم الناس من كانت له ورق

ولبعض الشعراء
فإن تكن الأيام أبلت لك ثروة فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر
لقد كشف الإثراء منك خلائقاً من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

وبحسب ما أفسده الغنى يصلحه الفقر. كتب قتيبة بن مسلم إلى
الحجاج أن أهل الشام قد التاثوا عليه فكتب إليه أن اقطع عنهم
الأرزاق ففعل فساءت حالهم فاجتمعوا إليه فقالوا أقلنا فكتب
إلى الحجاج فيهم فكتب إليه إن كنت آنست منهم رشداً فأجر ما كنت
تجري. واعلم أن الفقر جند الله الأكبر يذل به كل جبار عنيد
متكبر. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لولا
أن الله تعالى أذل ابن آدم بثلث ما طأطأ رأسه شيء الفقر
والمرض والموت. ومنها أن الفقر قد يتغير به الخلق إما
أنفة من ذل الاستكانة وإشفاقاً على فائت الغنى ولذلك قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم كاد الفقر يكون كفراً وكاد الحسد
أن يغلب القدر. وقال ابو تمام الطائي

لهم

أن

واكثر حالات ابن آدم خلقه يضل اذا فكرت في كنهه الفكر
فيفرح بالشيء القليل بقاؤه ويجزع لما صار وهو له ذخر
وربما تسلى من هذه حاله بالاماني وان قل صدقها فقد قيل
قل ما تصدق الامنية لكن قد يعتاض بها سلوة من هم ومسرة
ترجى وقد قال ابو العتاهية حرك مناك اذا اغتممت فانها مرواح
وقال آخر اذا تمنيت بت الليل مغتبطا ان المنى راس اموال المفاليس
ومنها الهموم التي تذهل اللب وتشغل القلب فلا يتسع لاحتمال
ولا يقوى على صبر وقد قيل الهم كالسم وقال بعض الادباء
الحزن كالداء المخزون في فؤاد المحزون وقال بعض الشعراء
همومك بالعيش مقرونة فما تقطع العيش الا بهم
اذا تم امر بدا نقصه توقع زوالا اذا قيل تم
اذا كنت في نعمة فارعها فان المعاصي تزيل النعم
وحام عليها بشكر الاله فان الاله سريع النقم
حلاوة دنياك مسمومة فما تاكل الشهد الا بسم
فكم قدر دب في مهلة فلم يعلم الناس حتى هجم
ومنها الامراض التي يتغير بها الطبع كما يتغير بها الجسم ولا
تبقى الاخلاق على اعتدال ولا يقدر معها على احتمال وقد قال المتنبي

حامي

فكم قدر

آلة العيش صحة وشباب فاذا وليا عن المرء ولى
ابدا تسترد ما تهب الدنيا فيا ليت جودها كان بخلا
ومنها علو السن وحدوث الهرم لتاثيره في آلة الجسد كذلك
يكون تاثيره في اخلاق النفس وكما كان يضعف الجسد عن احتمال
ما يكون يطيقه من الاثقال فكذلك تعجز النفس عن احتمال ما كانت
في مخالفة الوفاق ومقارعة الشقاق وكذلك ما ضاهاه قال منصور النمري
ما كنت اوفى شبابي كنه غرته حتى مضى فاذا الدنيا له تبع
اصبحت لم تطعمي ثكل الشباب ولم تشجي بغصته فالعذر لا يقع
ما كان اقصر ايام الشباب وما ابقى حلاوة ذكراه التي تدع
ما واجه الشيب من عين وان رمقت الا له نبوة عنه ومرتدع
قد كدت اقضي على فوت الشباب اسى لولا يعزيك ان الشيب منقطع
فهذه سبعة اسباب ان احدثت سوء الظن كان عاما وها هنا سبب
خاص قد يحدث سوء خلق خاص وهو البغض الذي تنفر منه النفس
فيحدث نفورا على المبغوض يؤول الى سوء خلق يخصه دون غيره
واذا كان سوء الخلق حادثا لسبب كان زواله مقرونا بزوال
ذلك السبب ثم بالضد

الفصل الثالث في الحياء

ان الخير والشر كامنة تعرف بسمات دالة كما قالت العرب

ثم

معان

في أمثالها تخبر عن مجهولها مرآته. وكما قال عمرو بن سلم الشاعر

لا تسأل المرء عن خلائقه في وجهه شاهد من الخبر

فسمة الخير الدعة والحياء وسمة الشر القحة والبذاء وكفى
بالحياء خيرا أن يكون على الخير دليلا وكفى بالقحة والبذاء شرا
أن يكونا إلى الشر سبيلا. وقد روى حسان بن عطية عن أبي
أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحياء والعي
شعبتان من الإيمان والبذاء والبيان شعبتان من النفاق
ويشبه أن يكون العي في معنى الصمت والبيان في معنى التشدق
وكما جاء في الحديث الآخر أبغضكم إلى الثرثارون المتفيهقون
المتشدقون. وروى أبو سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال الحياء من الإيمان والإيمان في الجنة
والبذاء من الجفاء والجفاء في النار. وقال بعض الحكماء من
كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه. وقال بعض البلغاء
حياة الوجه بحيائه كما أن حياة الغرس بمائه. وقال بعض
الأدباء العلماء يا عجبا كيف لا تستحيي من كثرة ما لا تستحيي
وتتقي من طول ما لا تتقي. وقال صالح بن عبد القدوس

إذا قل ماء الوجه قل حياؤه ولا خير في وجه إذا قل ماؤه

حياءك فاحفظه عليك فإنما يدل على فعل الكريم حياؤه

وليس لمن سلب الحياء صاد عن قبيح ولا زاجر عن محظور فهو يقدم
على ما يشاء ويأتي ما يهوى وبذلك جاء الخبر. روى شعبة عن
منصور عن ربعي عن أبي مسعود البدري قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى
يا ابن آدم إذا لم تستحي فاصنع ما شئت. وليس هذا القول إغراء منه بفعل
المعاصي عند قلة الحياء كما توهمه بعض من جهل معاني الكلام ومواضعات
الخطاب وفي مثل هذا الخبر قول الشاعر

إذا لم تخش عاقبة الليالي ولم تستحي فاصنع ما تشاء
ولا والله ما في العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

واختلف أهل العلم في معنى هذا الخبر فقال أبو بكر محمد بن علي الشاشي
في أصول الفقه معنى هذا الخبر أن من لم يستحي دعاه ترك الحياء
إلى أن يعمل ما يشاء لا يردعه عنه رادع فليستحي المرء فإن الحياء
يردعه. وسمعت من يحكي عن أبي بكر الرازي من أصحاب أبي حنيفة
رحمه الله أن المعنى فيه إذا عرضت عليك أفعالك التي هممت
بفعلها فلم تستحي منها لحسنها وجمالها فاصنع ما شئت منها
فجعل الحياء حكما على أفعاله. وكلا القولين حسن والأول أشبه

الكلام

لان الكلام خرج من النبي عليه السلم مخرج الذم لا مخرج
الامر لكن قد جاء الحديث مما يضاهي القول الثاني وهو قوله
عليه السلم ما احببت ان تسمعه اذناك فأته وما كرهت ان
تسمعه اذناك فاجتنبه. ويجوز ان يحمل الحديث على المعنى الصحيح
ويكون التاويل الاول في الحديث المتقدم اصح اذ ليس يلزم
ان يكون احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم متفقة المعاني
بل اختلاف معانيها ادخل في الحكمة وابلغ في الفصاحة اذا
لم يضاد بعضها. واعلم ان الحياء يكون في الانسان من ثلثة اوجه
احدها حياؤه من الله تعالى. والثاني حياؤه من الناس
والثالث حياؤه من نفسه. فاما حياؤه من الله تعالى فيكون
بامتثال اوامره والكف عن زواجره. روي ان النبي عليه السلم
قال استحيوا من الله تعالى حق الحياء قيل يا رسول الله كيف
نستحيي من الله حق الحياء قال من حفظ الراس وما حوى والبطن
وما وعى وترك زينة الحياة الدنيا وذكر الموت والبلى فقد استحيا
من الله حق الحياء. وهذا الحديث من ابلغ الوصايا. ورأيت رسول
الله في المنام ذات ليلة فقلت يا رسول الله اوصني فقال استحي
من الله حق الحياء ثم قال تغير الناس فقلت وكيف يا رسول الله

فأته

بعضا

قال كنت انظر الى الصبي فارى في وجهه البشر والحياء وانا
انظر اليوم اليه فلا ارى ذلك في وجهه. ثم بعد ذا بوصايا
وعظات فصورتها فاذهلني السرور عن حفظها ووددت ان
لو حفظتها فلم يبدا صلى الله عليه وسلم بشيء قبل الوصية الا
بالحياء من الله تعالى وجعل ما سلبه الصبي من البشر والحياء
سببا لتغير الناس وخص الصبي لان ما ياتيه بالطبع غير
تكلف فصلى الله من هادي امة تابع انذارها وقطع اعذارها
وواصل تاديبها وحفظ تهذيبها وجعل لكل عصر حظا من
زواجره ونصيبا من اوامره اعان الله على قبولها بالعمل وعلى
استدامته بالتوفيق. وقد روي ان علقمة بن علاثة قال
يا رسول الله عظني فقال النبي عليه السلم استحي من الله تعالى
استحياءك من ذوي الهيبة من قومك. وهذا النوع من الحياء
يكون من قوة الدين وصحة اليقين. ولذلك قال النبي عليه السلم
قلة الحياء كفر يعني من الله تعالى لما فيه من مخالفة اوامره.
ولذلك قال النبي عليه السلم الحياء نظام الايمان فاذا انحل
نظام الشيء تبدد ما فيه وتفرق. واما حياؤه من الناس
فيكون بكف الاذى وترك المجاهرة بالقبيح. وقد روي عن النبي

تكلم

عليه

عليه السلم من تقوى الله اتقاء الناس • وروى ان حذيفة بن اليمان
اتى الجمعة فوجد الناس قد انصرفوا فتنكب الطريق وقال لا خير
فيمن لا يستحيي من الناس • وقال بشار بن برد ❀

ولقد اصرف الفؤاد عن الشي حياء وحبه في السواد ❀
امسك النفس بالعفاف وامسي ذاكرا في غد حديث الاعادي

وهذا النوع من الحياء قد يكون من كمال المروة وحب الشكر
ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم من القى جلباب الحياء
فلا غيبة له يعني والله اعلم لقلة مروته وظهور شهوته • وروى
الحسن عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
ان من مروة الرجل ممشاه ومدخله ومخرجه ومجلسه والفه جليسه

قال الشاعر ورب قبيحة ما حال بيني وبين ركوبها الا الحياء ❀
اذا رزق الفتى وجها وقاحا تقلب في الامور كما يشاء ❀

وقال آخر اذا لم تصن عرضا ولم تخش خالقا وتستحي مخلوقا فما شئت فاصنع

واما حياؤه من نفسه فيكون بالعفة وصيانة الخلوات • وقد قال
بعض الحكماء ليكن استحياؤك من نفسك اكثر من استحيائك
من غيرك • وقال بعض الادباء من عمل في السر عملا يستحيي
منه في العلانية فليس لنفسه عنده قدر • ودعا قوم رجلا كان

يألف عشرتهم فلم يجبهم وقال اني دخلت البارحة في الاربعين وانا
استحيي من سني • وقال بعض الشعراء ❀

فسري كاعلاني وتلك خليقتي وظلمة ليلي مثل ضوء نهاريا ❀

وهذا النوع من الحياء قد يكون من فضيلة النفس وحسن
السريرة فمتى كمل حياء الانسان من وجوهه الثلثة فقد كملت
فيه اسباب الخير وانتفت عنه اسباب الشر وصار بالفضل
مشهورا وبالجميل مذكورا وقد قال بعض الشعراء ❀

واني ليثنيني عن الجهل والخنا وعن شتم ذي القربى خلائق اربع •
حياء واسلام وتقوى وانني كريم ومثلي من يضر وينفع ❀

وان اخل باحد من وجوه الحياء لحقه من النقص باخلاله بقدر
ما كان يلحقه من الفضل بكماله • وقد قال الرياشي ان ابا بكر
الصديق رضي الله عنه كان يتمثل بهذا الشعر ❀

وحاجة دون اخرى قد سنحت لها جعلتها للذي اخفيت عنوانا •
واني لاري من لا حياء له ولا امانة وسط الناس عريانا ❀

الفصل الرابع في الحلم والغضب

روى عن محمود بن جابر الهلالي ان جبريل عليه السلم نزل على
النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد اني اتيتك بمكارم الاخلاق

في الدنيا والآخرة. خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين
وروى سفيان بن عيينة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال حين
نزلت هذه الآية خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين
يا جبريل ما هذا قال ما أدري حتى أسأل العالم ثم عاد جبريل
وقال يا محمد إن ربك يأمرك أن تصل من قطعك وتعطي من
حرمك وتعفو عمن ظلمك. وروى هشام عن الحسن أن النبي
عليه السلام قال أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم كان إذا خرج
من منزله قال اللهم إني قد تصدقت بعرضي على عبادك. وروي
عن النبي عليه السلام أنه قال إن الله تعالى يحب الحليم الحيي
ويبغض الفاحش البذي. وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه
من حلم ساد ومن تفهم ازداد. وقال بعض الأدباء من غرس
شجرة الحلم اجتنى ثمرة السلم. وقال بعض البلغاء ما ذب عن
الأعراض كالصفح والإعراض. وقال بعض الشعراء

أحب مكارم الأخلاق جهدي وأكره أن أعيب وأن أعابا
وأصفح عن سباب الناس حلما وشر الناس من يهوى السبابا
ومن هاب الرجال تهيبوه ومن حقر الرجال فلن يهابا

فالحلم من أشرف الأخلاق وأجدرها بذوي الألباب لما فيه من سلامة
العرض وراحة الجسد واجتلاب الحمد. وقد قال علي بن أبي طالب
كرم الله وجهه أول ما عوض الحليم عن حلمه أن الناس أنصاره
وحد الحلم ضبط النفس عن هيجان الغضب وهذا يكون لباعث
وسبب. وأسباب الحلم الباعثة على ضبط النفس عشرة أحدها
الرحمة للجهال وذلك من خير يوافق رقة. وقد قيل في منثور الحكم
من أوكد أسباب رحمة الجهال. وقال أبو الدرداء لرجل أسمعه
كلاما يا هذا لا تغرقن في سبنا ودع للصلح موضعا فإنا لا نكافي
من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه. وشتم رجل الشعبي
فقال إن كنت كما قلت فغفر الله لي وإن لم أكن كما قلت فغفر الله لك
واغتاظت عائشة رضوان الله عليها على خادم لها ثم رجعت إلى
نفسها فقالت لله در التقوى ما تركت لذي غيظ شفاء. وقسم
معاوية رضي الله عنه قطفا فأعطى شيخا من أهل دمشق قطيفة
فلم تعجبه فحلف أن يضرب بها رأس معاوية فأتاه فأخبره فقال
له معاوية أوف بنذرك وليرفق الشيخ بالشيخ. والثاني من
أسبابه القدرة على الانتصار وذلك من سعة الصدر وحسن
الثقة. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا قدرت
على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا للقدرة عليه. وقال بعض الحكماء

لیس من الکرم عقوبة من لا یجد امتناعا من السطوة وقال
بعض البلغاء احسن المكارم عفو المقتدر وجود المفتقر
والثالث من اسبابه الترفع عن السباب وذلك من شرف
النفس وعلو الهمة كما قالت الحكماء شرف النفس ان تحمل
المكاره كما تحمل المكارم وقد قيل ان الله تعالى سمى يحيى
سيدا لحلمه وقال بعض الشعراء

لن يبلغ المجد اقوام وان كرموا حتى يذلوا وان عزوا لاقوام
ويشتموا فترى الالوان مسفرة لا صفح ذل ولكن صفح احلام

ويشتموا

والرابع من اسبابه الاستهانة بالساب وذلك عن ضرب من
الكبر والاعجاب كما حكي عن مصعب بن الزبير انه لما ولي
العراق جلس لعطاء الجند فامر مناديه فنادى اين عمرو بن
جرموز وهو الذي قتل اباه الزبير فقيل له ايها الامير انه قد تباعد
في الارض فقال او ظن الجاهل انني اقيده بابي عبد الله فليظهر
آمنا وليأخذ عطاءه مسلما فعد الناس ذلك من مستحسن الكبر
ومثل ذلك قول بعض الزعماء في شعره

او كلما طن الذباب طردته ان الذباب اذا علي كريم

واكثر رجل من سب الاحنف وهو لا يجيبه فقال والله ما منعه

من جوابي الا هواني عليه وفي مثل ذلك يقول الشاعر

نجا بك لومك منجى الذباب حمته مقاذيره ان ينالا

واسمع رجل ابن هبيرة فاعرض عنه فقال له الرجل اياك اعني
قال وعنك اعرض وفي مثله يقول الشاعر

فاذهب فانت طليق عرضك انه عرض عززت به وانت ذليل

وقال عمر بن علي

اذا نطق السفيه فلا تجبه فخير من اجابته السكوت
سكت عن السفيه فظن اني عييت عن الجواب وما عييت

والخامس من اسبابه الاستحياء من خنى الجواب وهذا يكون
من صيانة النفس وكمال المروءة وقد قال بعض الحكماء احتمال
السفيه ايسر من التحلي بصورته والاغضاء عن الجاهل خير
من مشاكلته وقال بعض الادباء ما افحش حليم ولا اوحش كريم

وقال لقيط بن زرارة

وقل لبني سعد فما لي وما لكم ترومون مني ما استطعتم واعتق
اغركم اني باحسن شيمة بصير واني بالفواحش اخرق
وانك قد ساببتني فقهرتني هنيئا مريئا انت بالفحش احذق

والسادس من اسبابه التفضل على الساب وهذا يكون من
الكرم وحب التألف كما قيل للاسكندر ان فلانا وفلانا ينتقصانك

وثلباك فلو عاقبتهما قال انما بعد العقوبة اعذر في نقصي
وثلبي فهذا كان تفضلا منه وتالفا وقد حكي عن الاحنف
ابن قيس انه قال ما عاداني احد قط الا اخذت بامره باحدى
ثلث خصال ان كان اعلى مني عرفت له قدره وان كان دوني
رفعت قدري عنه وان كان نظيري تفضلت عليه فاخذه الخليل
فنظمه شعرا فقال

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب … وان عظمت منه اليّ الجرائم
فما الناس الا واحد من ثلثة … شريف ومشروف ومثل مقاوم
فاما الذي فوقي فاعرف قدره … واتبع فيه الحق والحق لازم
فاما الذي دوني فاحلم دائبا … اصون به عرضي وان لام لائم
واما الذي مثلي فان زل او هفا … تفضلت ان الفضل بالعز حاكم

والسابع من اسبابه استنكاف السباب وقطع السباب وهذا
يكون من الحزم كما حكي ان رجلا قال لضرار بن القعقاع
والله لو قلت واحدة لسمعت عشرا فقال ضرار والله لو قلت عشرا
لم تسمع واحدة وحكي ان علي بن ابي طالب رضي الله عنه
قال لعامر بن مرة الزهري من احمق الناس قال من ظن
انه اعقل الناس قال صدقت فمن اعقل الناس قال من لم يتجاوز
الصمت في عقوبة الجهال وقال الشعبي ما ادركت امي فابرها

ولكن لا اسب احدا فيسبها وقال بعض الحكماء في اعراضك
صون اعراضك وقال بعض الشعراء

وفي الحلم ردع للسفيه عن الاذى … وفي الخرق اغراء فلا تك اخرقا
فتندم اذ لا تنفعنك ندامة … كما ندم المغبون لما تفرقا

قال آخر

قل ما بدا لك من زور ومن كذب … حلمي اصم واذني غير صماء

والثامن من اسبابه الخوف من العقوبة على الجواب وهذا يكون
من ضعف النفس وربما اوجبه الرأي واقتضاه الحزم وقد قيل
في منثور الحكم الحلم حجاب الآفات وقال الشاعر

ارفق اذا خفت من ذي هفوة خرقا … ليس الحليم كمن في امره خرق

والتاسع من اسبابه الرعاية ليد سالفة وحرمة لازمة وهذا
يكون من الوفاء وحسن العهد وقد قيل في منثور الحكم اكرم
الشيم ارعاها للذمم وقال الشاعر

ان الوفاء على الكرام فريضة … واللوم مقرون بذي الاخلاف
وترى الكريم لمن يعاشر منصفا … وترى اللئيم مجانبا للانصاف

والعاشر من اسبابه المكر وتوقع الفرص الخفية وهذا
يكون من الدهاء وقد قيل في منثور الحكم من ظهر غضبه
قل كيده وقال بعض الادباء غضب الجاهل في قوله وغضب

العاقل في فعله. وقال بعض الحكماء إذا سكت عن الجاهل
فقد أوسعته جوابا وأوجعته عقابا. وقال إياس بن قتادة

تعاقب أيدينا ويحلم رأينا ونشتم بالأفعال لا بالتكلم

وقال بعض الشعراء

والكف عن شتم اللئيم تكرما أضر له من شتمه حين يشتم

فهذه عشرة أسباب تدعو إلى الحلم وبعض الأسباب أفضل من
بعض وليس إذا كان بعض أسبابه مفضولا ما يقتضي أن تكون نتيجته
من الحلم مذموما وإنما الأولى بالإنسان أن يدعوه إلى الحلم أفضل
أسبابه مفضولا وإن كان الحلم كله فضلا فإن عري عن أحد
هذه الأسباب كان ذلا ولم يكن حلما لأننا قد ذكرنا في حد الحلم
أنه ضبط النفس عن هيجان الغضب فإذا فقد الغضب بسماع
ما يغضب منه كان ذلك من ذل النفس وقلة الحمية ولذلك
قالت الحكماء ثلاثة لا يعرفون إلا في ثلاثة مواطن لا يعرف الجواد
إلا في العسرة ولا الشجاع إلا في الحرب ولا الحليم إلا مع الغضب
قال الشاعر وليست الأحلام في حال الرضا وإنما الأحلام في حال الغضب
وقال آخر من يدعي الحلم أغضبه لتعرفه لا يعرف الحلم إلا ساعة الغضب
وأنشد النابغة الجعدي بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادر تحمي صفوه أن يكدرا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

فلم ينكر قوله عليه. ومن فقد الغضب في الأشياء المغضبة
حتى استوت حالتاه قبل الإغضاب وبعده فقد عدم من فضائل
النفس الشجاعة والأنفة والحمية والغيرة والدفاع والأخذ
بالثأر لأنها خصال مركبة من الغضب فإذا عدمها الإنسان
هان بها ولم يكن الباقي من فضائله في النفوس موضع ولا لوفور
حلمه في القلوب موقع. وقد قال المنصور إذا كان الحلم
مفسدة كان العفو معجزة. وقال بعض الحكماء العفو
يفسد من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم. وقال عمرو بن العاص
أكرموا سفهاءكم فإنهم يكفونكم العار والشنار. وقال مصعب
ابن الزبير ما قل سفهاء قوم إلا ذلوا. وقال أبو تمام الطائي

والحرب تركب رأسها في مشهد عدل السفيه به بألف حليم

وليس هذا القول إغراء بتحكيم الغضب والانقياد له عند حدوث
ما يغضب فيكتسب بالانقياد للغضب من الرذائل أكثر مما
يسلبه عدم الغضب من الفضائل ولكن إذا ثار به الغضب عند

بهجوم ما يغضب كف سورته بحزمه واطفا نايرته بحلمه وكل
من يستحق المقابلة الى غيره فلن يعدم مسيء مكافيا كما لن يعدم
محسن مجازيا. والعرب تقول دخل بيتا ما خرج منه اي ان خرج
منه خير دخله خير وان خرج منه شر دخله شر. وانشد ابن دريد
عن ابي حاتم

اذا انت جازيت السفيه كما جزى فانت سفيه مثله غير ذي حلم
اذا امن الجهال جهلك مرة فعرضك للجهال غنم من الغنم
ولا تغضبن عرض السفيه وداره بحلم فان اعيا عليك فبالصرم
وعم عليه الحلم والجهل والقه بمنزلة بين العداوة والسلم
فيرجوك تارات ويخشاك تارة ويأخذ فيما بين ذلك بالحزم
فان لم تجد بدا من الحزم فاستعن عليه بجهال فذاك من العزم

وهذه من احكم ابيات وجدتها في تدبير الحلم والغضب وهذا
التدبير انما يستعمل فيمن لا يجد الانسان بدا من مقاربته ولا
سبيلا الى اطراحه ومتاركته اما لخوف شر او للزوم امر فاما
من امكن اطراحه ولم يضر ابعاده فالاهوان به اولى والاعراض
عنه اصوب فاذا كان على ما وصفنا استفاد بتحريك الغضب فضايله
وامن بكف نفسه عن الانقياد لرذايله وصار الحلم مدبرا للامور

المغضبة بقدر لا يعتوره نقص بعدم الغضب ولا تلحقه زيادة
بفقد الحلم ولو عزب عنه العلم حتى انقاد لغضبه ضل عنه وجه
الصواب فيه وضعف رايه عن خبرة اسبابه ودواعيه حتى
يصير بليد الراي مغمور الروية مقطوع الحجة مسلوب العزاء قليل
الحيلة مع ما يناله من اثر ذلك في نفسه وجسده حتى يصير
غضبه اضر عليه مما غضب له. وقد قال بعض الحكماء من
كثر شططه كثر غلطه. وروي ان سلمان قال لعلي بن ابي
طالب رضي الله عنه ما الذي يباعدني من غضب الله تعالى قال
لا تغضب. وقال بعض السلف اقرب ما يكون العبد من غضب
الله تعالى اذا غضب. وقال بعض البلغاء من رد غضبه هد
من اغضبه. وقال بعض الادباء ما هيج جاشك لغيظ اجاشك
وقال رجل لبعض الحكماء عظني قال لا تغضب. فينبغي لذي
اللب السوي والحزم القوي ان يتلقى فوران الغضب بحلمه فيصدها
ويقابل دواعي شرته بحزمه فيردها ليحظى باجلاء الحيرة
ويسعد بحميد العاقبة. وقد قال بعض الادباء في اغضائك راحة
اعضائك. وسبب الغضب هجوم ما تكرهه النفس ممن دونها
وسبب الحزن هجوم ما تكرهه النفس ممن فوقها والغضب يتحرك

من داخل الجسد الى خارجه والحزن يتحرك من خارج الجسد
الى داخله ولذلك قتل الحزن ولم يقتل الغضب لبروز الغضب
وكمون الحزن وصار الحادث عن الغضب السطوة والانتقام لبروزه
والحادث عن الحزن المرض والسقم لكمونه فمن اجل ذلك افضى
الحزن الى الموت ولم يفض اليه الغضب • فهذا فرق ما بين الحزن
والغضب • واعلم ان لتسكين الغضب اذا هجم اسبابا يستعان
بها على الحلم منها ان يذكر الله تعالى فيدعوه ذكر الله الى الخوف منه
ويبعثه الخوف منه على الطاعة له فيرجع الى ادبه ويأخذ بندبه
فعند ذلك يزول الغضب قال الله تعالى • واما ينزغنك من الشيطان
نزغ فاستعذ بالله • ومعنى قوله ينزغنك اى يغضبنك فاستعذ
بالله انه سميع عليم يعنى سميعا بجهل من جهل عليما بما يذهب عنك
الغضب وذكر ان فى التورية مكتوبا يا ابن آدم اذكرنى حين
تغضب اذكرك حين اغضب فلا امحقك فيمن امحق • وحكى ان
بعض ملوك الفرس كتب كتابا ودفعه الى حاجبه • وقال له اذا
غضبت فناولنيه وكان فيه مكتوب ما لك وللغضب انما انت
بشر ارحم من فى الارض يرحمك من فى السماء • وقال بعض الحكماء
من ذكر قدرة الله تعالى لم يستعمل قدرته فى ظلم عباد الله • وقال عبد الله

ابن مسلم بن محارب لهرون الرشيد يا امير المؤمنين اسألك بالذى
انت بين يديه اذل منى بين يديك وبالذى هو اقدر على عقابك منك
على عقابى لما عفوت عنى فعفا عنه لما ذكره قدرة الله تعالى عليه
وروى ان رجلا شكا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم القسوة
فقال اطلع فى القبور واعتبر بالنشور • وكان بعض ملوك الطوايف
اذا غضب القى عنده مفاتيح ترب الملوك فيزول غضبه • ولذلك
قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه • من اكثر ذكر الموت رضى من
الدنيا باليسير • ومنها ان ينتقل عن الحالة التى هو فيها الى حالة
غيرها فيزول عنه الغضب بتغير الاحوال والتنقل من حال الى
حال وهكذا كان مذهب المأمون اذا غضب وسام وكانت الفرس
تقول اذا غضب القائم فليجلس او الجالس فليقم ومنها ان يتذكر
ما يؤول اليه الغضب من الندم ومذمة الانتقام • كتب ابرويز
الى ابنه شيرويه • ان كلمة منك تسفك دما وان اخرى منك تحقن
دما وان نفاذ امرك مع ظهور كلامك فاحترس فى غضبك من
قولك ان تخطى ومن لونك ان يتغير ومن جسدك ان يخف فان
الملوك تعاقب قدرة وتعفو حلما • وقال بعض الحكماء • الغضب
على من لا تملك عجز وعلى من تملك لؤم • وقال بعض الادباء

فيزول غضبه

اياك وعزة الغضب فانها تفضي بك الى ذل العذر قال الشاعر

واذا ما اعترتك في الغضب العزة فاذكر تذلل الاعتذار

ومنها ان يذكر ثواب العفو وحسن الصفح فيقهر نفسه على الغضب رغبة في الجزاء والثواب وحذرا من استحقاق الذم والعقاب روي عن النبي عليه السلم انه قال ينادي مناد يوم القيامة من له اجر على الله فليقم فيقوم العافون عن الناس ثم تلا فمن عفا واصلح فاجره على الله وقال رجاء بن حياة لعبد الملك بن مروان في اسارى ابن الاشعث ان الله قد اعطاك ما تحب من الظفر فاعط الله ما يحب من العفو وقد روي عن النبي عليه السلم انه قال في الخبر ثلث خصال من كن فيه فقد استكمل الايمان من اذا رضي لم يدخله رضاه في باطل واذا غضب لم يخرجه غضبه من حق واذا قدر عفا واسمع رجل كلاما لعمر بن عبد العزيز فقال عمر اردت ان يستفزني الشيطان بعزة السلطان فانال منك اليوم ما تناله مني غدا انصرف رحمك الله ومنها ان يتذكر انعطاف القلوب عليه وميل النفوس اليه فلا يرى اضاعة ذلك بتغير الناس عنه وبعدهم منه فيكف عن متابعة الغضب ويرغب في التألف و

جميل الثناء وروى ابن ابي ليلى عن عطية بن ابي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ازداد احد بعفو الله الا عزا فاعفوا يعزكم الله وقال بعض البلغاء ليس من عادة الكرام سرعة الانتقام ولا من شروط الكرم ازالة النعم وقال المامون لابرهيم بن المهدي اني شاورت في امرك فاشاروا علي بقتلك الا وجدت قدرك فوق ذنبك فكرهت القتل للازم حرمتك

اني

فقال يا امير المؤمنين ان المشير اشار بما جرت به العادة في السياسة الا انك ابيت ان تطلب النصر الا من حيث عودته من العفو فان عاقبت فلك نظير وان عفوت فلا نظير لك وانشا يقول

البر بي منك وطاء العذر عندك لي فيما فعلت فلم تعذل ولم تلم

وقام علمك بي فاحتج عندك لي مقام شاهد عدل غير متهم

لئن جحدتك معروفا مننت به اني لفي اللوم احظى منك في الكرم

تعفو بعدل وتسطو ان سطوت به فلا عدمتك من عاف ومنتقم

الفصل الخامس

الفصل الخامس في الصدق والكذب

قال الله تعالى وهو اصدق القائلين ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين وقال انما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون وروى عن النبي عليه السلم انه قال للحسين بن علي دع ما يريبك الى ما

لا يريبك فان الكذب ريبة والصدق طمانينة • وروى عنه عليه
السلم انه قال رحم الله امرأ اصلح من لسانه واقصر من عنانه
والزم طريق الحق بقوله ولم يعود الخطل مفصله • وروى صفوان
ابن سليم قال قيل للنبى عليه السلم ايكون المؤمن جبانا قال نعم
قيل افيكون بخيلا قال نعم قيل افيكون كذابا قال لا وقال ابن
عباس فى قوله تعالى لا تلبسوا الحق بالباطل اى لا تخلطوا
الصدق بالكذب • وقيل فى منثور الحكم الكذاب لص لان
اللص يسرق مالك والكذاب يسرق عقلك • وقال بعض
الحكماء الخرس خير من الكذب وصدق اللسان اول
السعادة وقال بعض البلغاء الصادق مصان جليل
والكاذب مهان ذليل وقال بعض الادباء لا سيف كالحق
ولا عون كالصدق وقال بعض الشعراء

وما شىء اذا فكرت فيه باذهب للمروة والجمال •
من الكذب الذى لا خير فيه وابعد بالبهاء من الرجال •

والكذب جماع كل شر واصل كل ذم لسوء عواقبه وخبث
نتائجه لانه ينتج النميمة والنميمة تنتج البغضاء والبغضاء
تؤول الى العداوة وليس مع العداوة امن ولا راحة ولذلك قيل

من قل صدقه قل صديقه • والصدق والكذب يدخلان
الاخبار الماضية كما ان الوفاء والخلف يدخلان المواعيد
المستقبلة والصدق هو الاخبار عن الشى على ما هو عليه
والكذب الاخبار عن الشى بخلاف ما كان عليه ولكل واحد
منهما دواع فدواعى الصدق لازمة ودواعى الكذب عارضة
لان الصدق يدعو اليه عقل موجب وشرع مؤكد والكذب
يمنع منه العقل ويصد عنه الشرع ولذلك جاز ان تستفيض
الاخبار الصادقة حتى تصير متواترة ولم يجز ان تستفيض
الاخبار الكاذبة لان اتفاق الناس فى الصدق والكذب انما هو
لاتفاق الدواعى فدواعى الصدق يجوز ان يتفق الجمع الكثير
عليها حتى اذا نقلوا خبرا وكانوا عددا ينتفى عن مثلهم المواطاة
وقع فى النفس صدقه لان الدواعى اليه نافعة واتفاق الناس
فى الدواعى النافعة ممكن • ولا يجوز ان يتفق العدد الكثير الذى
لا يمكن مواطاة مثلهم على نقل خبر يكون كذبا لان الدواعى اليه
غير نافعة وربما كانت ضارة وليس فى جارى العادة ان يتفق
الجمع الكثير على دواع غير نافعة فلذلك جاز اتفاق الناس على
الصدق لجواز اتفاق دواعيهم ولا يجوز ان يتفقوا على الكذب

لامتناع اتفاق دواعيهما فاذا كان للصدق وللكذب دواعٍ فلا بد من ذكر ما سنح به الخاطر من دواعيهما • أما دواعي الصدق • فمنها العقل لأنه موجب لقبح الكذب لا سيما إذا لم يجلب نفعا ويدفع ضررا والعقل يدعو إلى فعل ما كان فيه مستحسنا ويمنع من اتيان ما كان فيه مستقبحا وليس ما استحسن من مبالغات الشعراء حتى صارت كذبا صريحا استحسانا للكذب في العقل كالذي أنشدنيه الأزدي لبعض الشعراء •

توهمه فكري فأصبح خده • وفيه مكان الوهم من فكري أثر
وصافحه كفي فآلم كفه • فمن لمس كفي في أنامله عقر
ومر بقلبي خاطرا فجرحته • ولم أر شيئا قط يجرحه فكر

وكقول العباس بن الأحنف وإن كان دون هذه المبالغة

تقول وقد كتبت دقيق خطي • إليها لم تجنبت الجليلا
فقلت لها نحلت فصار خطي • مساعدة لكاتبه نحيلا

لأنه خرج مخرج المبالغة في التشبيه والاقتدار على صنعة الشعر وإن شواهد الحال تخرجه عن تلبيس الكذب فلذلك استحسن في الصنعة ولم يستقبح في العقل وإن كان الكذب مستقبحا فيه • ومنها الدين الوارد باتباع الصدق وحظر الكذب لأن

الشرع لا يجوز أن يرد بإرخاص ما حظره العقل بل قد جاء الشرع زائدا على ما اقتضاه العقل من حظر الكذب لأن الشرع ورد بحظر الكذب وإن جر نفعا أو دفع ضررا والعقل إنما حظر ما لا يجلب نفعا ولا يدفع ضررا • ومنها المروءة فإنها مانعة من الكذب باعثة على الصدق لأنها قد تمنع من فعل ما كان مستنكرا فأولى أن تمنع من فعل ما كان مستقبحا • ومنها حب الثناء والاشتهار بالصدق حتى لا يرد عليه قول ولا يخلف بذم • وقال بعض البلغاء ليكن مرجعك إلى الحق ومفزعك إلى الصدق فالحق أقوى معين والصدق أفضل قرين • وقال بعض الشعراء •

عود لسانك صدق القول تحظ به • إن اللسان لما عودت معتاد
موكل بتقاضي ما سننت له • فاختر لنفسك وانظر كيف ترتاد

وأما دواعي الكذب فمنها اجتلاب النفع واستدفاع الضر ليرى أن الكذب أسلم وأغنم فيرخص لنفسه فيه اغترارا بالخدع واستشفافا للطمع وربما كان الكذب أبعد لما يؤمل وأقرب لما يخاف لأن القبيح لا يكون حسنا والشر لا يصير خيرا وليس يجنى من الشوك العنب ولا من الكرم الحنظل • وقد روي عن النبي عليه السلام أنه قال تحروا الصدق وإن رأيتم أن فيه الهلكة فإن فيه النجاة وتجنبوا الكذب

عودت

فاختر

الصدق

وإن رأيتم أن فيه النجاة فإن فيه الهلكة. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأن يضعني الصدق وقلّ ما يضع أحب إليّ من أن يرفعني الكذب وقلّ ما يرفع. وقال بعض الحكماء: الصدق منجيك وإن خفته، والكذب مرديك وإن أمنته. وقال الجاحظ: الصدق والوفاء توأمان، والصبر والحلم توأمان، فيهن تمام كل دين وصلاح كل دنيا، وأضدادهن سبب كل فرقة وأصل كل فساد. ومنها أن يؤثر أن يكون حديثه مستعذبا وكلامه مستظرفا فلا يجد صدقا يعذب ولا حديثا يستطرف فيستمدّ الكذب الذي ليست غرائبه معوزة ولا طرائفه معجزة. وهذا النوع أسوأ حالا مما قبل لأنه يصدر عن مهانة النفس ودناءة الهمة. وقد قال الجاحظ: لم يكذب أحد قط إلا لصغر قدر نفسه عنده. وقال ابن المقفع: لا تتهاونن بإرسال الكذب من الهزل فإنها يسرع إلى إبطال الحق. ومنها أن يقصد بالكذب التشفي من عدوه فيسمه بقبائح يخترعها عليه ويصفه بفضائح ينسبها إليه ويرى أن معرة الكذب غنم وأن إرسالها في العدو سهم وسم. وهذا أسوأ حالا من النوعين الأولين لأنه قد جمع بين الكذب المعر والشر المضر. ولذلك ورد الشرع برد شهادة العدو على عدوه. ومنها أن تكون

دواعي الكذب قد ترادفت عليه حتى ألفها فصار الكذب له عادة ونفسه إليه منقادة حتى لو رام مجانبة الكذب عسر عليه لأن العادة طبع ثان. وقد قالت الحكماء: من استحلى الكذب عسر فطامه. وقيل في منثور الحكم: لا يلزم الكذب شيئا إلا غلب عليه. واعلم أن للكاذب قبل خبرته أمارات دالة عليه فمنها أنك إذا لقنته الحديث تلقنه ولم يكن بين ما لقنته وبين ما أورده فرق عنده. ومنها أنك إذا شككته فيه تشكك حتى يكاد أن يرجع فيه ولولاك ما تخالجه الشك فيه. ومنها أنك إذا رددت عليه قوله حصر وارتبك ولم تكن عنده نصرة المحتجين ولا برهان الصادقين. ولذلك قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الكذاب كالسراب. ومنها ما يظهر عليه من ريبة الكذابين وينم عليه من ذلة المتوهمين لأن هذه أمور لا يمكن الإنسان دفعها عنه لما في الطبع من آثارها. ولذلك قالت الحكماء: العينان أنم من اللسان. وقال بعض البلغاء: الوجوه مرايا تريك أسرار البرايا. وقال بعض الشعراء:

تريك أعينهم ما في صدورهم ... إن العيون يؤدي سرها النظر

وإذا وسم بالكذب نسبت إليه شوارد الكذب المجهولة وأضيفت إلى أكاذيبه زيادات مفعولة حتى يصير الكاذب مكذوبا عليه

عليه فجمع بين معرّة الكذب فيه ومضرّة الكذب وقال الشاعر

حسب الكذوب من البليّة بعض ما يُحكى عليه ●
ما إن سمعت بكذبةٍ من غيره نُسبت إليه ●

ثم إن تحرّى الصدق اتُّهم وإن جانب الكذب حتى لا
يُعتقد له حديث مصدّق ولا كذب مستنكر قال الشاعر

إذا عُرف الكذّاب بالكذب لم يكد يُصدَّق في شيء وإن كان صادقا ●
ومن آفة الكذّاب نسيان كذبه وتلقاه ذا حفظ إذا كان حاذقا ●

وقد وردت السنّة بإرخاص الكذب في الحرب وإصلاح ذات
البين على وجه التورية والتأويل دون التصريح فإنّ السنّة لا
تجوز أن ترد بإباحة الكذب لما فيه من التنفير وإنما ذلك على طريق
التورية والتعريض كما سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم
وقد تطرّف بدرا وانفرد عن أصحابه فقال الرجل ممّن أنت فقال
من ماء فورّى عن الإخبار بنسبه بأمر محتمل فظنّ السائل أنه من
عن القبيلة المنسوبة إلى ذلك وإنما أراد رسول الله صلى الله عليه
وسلم من الماء الذي يُخلق منه الإنسان فبلغ ما أحبّ من إخفاء
نسبه وصدق في خبره وكالذي حُكي عن أبي بكر الصديق
رضوان الله عليه أنه كان يسير خلف رسول الله صلى الله عليه

وسلم حين هاجر معه فتلقاه العرب وهم يعرفون أبا بكر ولا يعرفون
رسول الله فيقولون يا أبا بكر من هذا فيقول هادٍ يهديني السبيل
فيظنّون أنه يعني هداية الطريق وهو إنما يريد سبيل الخير
فيصدق في قوله ويورّي عن مراده ● وقد روي عن النبي صلى الله
عليه وسلم أنه قال إنّ في المعاريض لمندوحة عن الكذب
وقال عمر بن الخطاب إنّ في المعاريض ما يكفي أن يعفّ الرجل
عن الكذب ● وقال بعض أهل التأويل في قوله تعالى لا تؤاخذني
بما نسيت إنه لم ينس ولكنه معاريض الكلام ● وقال ابن سيرين
الكلام أوسع من أن يصرّح فيه بالكذب ● واعلم أنّ في الصدق
ما يقوم مقام الكذب في القبح والمعرّة ويزيد عليه في الأذى
والمضرّة وهو الغيبة والنميمة والسعاية فأما الغيبة
فإنها خيانة وهتك ستر يحدثان عن حسد وغدر قال الله
تعالى ولا يغتب بعضكم بعضا أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم
أخيه ميتا ● يعني أنه كما لا يحلّ لحمه ميتا لا تحلّ غيبته
حيًّا ● وروي أنّ امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله
عليه وسلم فجعلتا تغتابان الناس فأخبر بذلك رسول الله
فقال صامتا عمّا أحلّ لهما وأفطرتا على ما حرّم عليهما

وروت اسما بنت يزيد قالت قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم من ذب عن لحم اخيه بظهر الغيب كان حقا على الله
ان يحرم لحمه على النار • وقال عدي بن حاتم الغيبة رعي
اللئام وكان الحسن البصري يقول الغيبة فاكهة النساك
وقال رجل لابن سيرين اني اغتبتك فاجعلني في حل فقال
ما احب ان احل لك ما حرم الله عليك • وقال ابن السماك
لا تعن الناس على غيبتك بسوء غيبك • وقال الشاعر
لا تلتمس من مساوي الناس ما ستروا فيهتك الناس سترا من مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم اذا ذكروا ولا تعب احدا منهم بما فيكا
وربما عذر المغتاب نفسه بانه يقول حقا ويعلن فسقا ويستشهد
بما روي عن النبي عليه السلام انه قال ثلثة ليست غيبتهم بغيبة
الامام الجائر وشارب الخمر والمعلن بفسقه فيبعد من الصواب
ويجانب الادب لانه وان كان بالغيبة صادقا فقد هتك سترا
كان بصونه اولى وجاهر من اسر واخفى وربما دعا المغتاب
ذلك الى اظهار ما كان يستره والمجاهرة بما كان يضمره فلم
يفده ذلك الا فسادا اخلاقه من غير ان يكون فيه صلاح لغيره
وقد قيل لانوشروان من الذي لا خير فيه فقال من ضرني

ولم ينفع غيري او ضر غيري ولم ينفعني لا اعلم فيه خيرا
وقيل في منثور الحكم لا تبد من العيوب ما يستره علام الغيوب
وقد روى العلاء بن عبد الرحمن عن ابيه عن ابي هريرة قال
سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة فقال هو ان تقول
لاخيك ما فيه فان كنت صادقا فقد اغتبته وان كنت كاذبا
فقد بهته • وقال عبد الرحمن بن زيد في قوله تعالى يا ايها الذين
آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم انه استهزاء
المسلم بمن هو اعلن بفسقه • ودخلت امراة على النبي صلى الله
عليه وسلم تستفتيه فلما خرجت قالت عائشة يا رسول الله
ما اقصرها فقال النبي صلى الله عليه وسلم مهلا اياك والغيبة
قالت يا رسول الله انما قلت ما فيها قال اجل ولولا ذاك لكان
بهتانا • وسئل بعض الادباء عن صفة اللئيم فقال اذا غاب
عاب واذا حضر اغتاب • فاما الخبر فمحمول على الانكار لافعال
هؤلاء ولا يكون الانكار غيبة لانه نهي عن منكر وفرق بين انكار
المجاهر وغيبة المساتر • فاما النميمة فهي تجمع الى مذمة الغيبة
رداءة وشرا وتضم الى لؤمها دناءة وغدرا ثم تؤول الى تقاطع
المتواصلين وتباعد المتقاربين وتباغض المتحابين • وقد

روى شهر بن حوشب عن اسما بنت يزيد عن النبي عليه السلم انه
قال الا اخبركم بشراركم قالوا بلى يا رسول الله قال من شراركم
المشاؤون بالنميمة المفسدون بين الاحبة الباغون العيوب
وروى محمد بن عمرو عن ابي سلمة عن ابي هريرة قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم ملعون ذو الوجهين ملعون ذو اللسانين
ملعون كل شغار ملعون كل قتات ملعون كل منان الشغار
المحرش بين الناس يلقي بينهم العداوة والقتات النمام وقيل
النمام هو الذي يكون مع القوم يتحدثون فينم حديثهم والمنان
الذي يفعل الخير ويمن به وقيل في منثور الحكم النميمة
سيف قاتل وقال بعض الادباء لم يمش ماش شر من واش
واما السعاية فهي شر الثلثة لانها تجمع الى مذمة الغيبة
ولوم النميمة التغرير بالنفوس والاموال والقدح في المنازل
والاحوال روى ابن قتيبة ان النبي صلى الله عليه وسلم
قال الجنة لا يدخلها ديبوب ولا قلاع فالديبوب الذي
يجمع بين الرجال والنساء سمي بذلك لانه يدب بينهم والقلاع
هو الساعي الذي يقع في الناس عند الامراء سمي قلاعا لانه
ياتي الرجل المتمكن عند الامير فلا يزال يقع فيه حتى يقلعه

القتات هو الذي يتسمع على القوم وهم لا يعلمون ثم ينم

وقال بعض الحكماء الساعي بين منزلتين قبيحتين اما ان
يكون صدق فقد خان الامانة واما ان يكون قد كذب فخالف
المروة وقال بعض حكماء الفرس الصدق يزين كل احد
الا السعاة فان الساعي اذم واثم ما يكون اذا صدق
وقال بعض البلغاء النميمة دناءة والسعاية رداءة وهما راس
الغدر واساس الشر فتجنب سبيلهما واجتنب اهلهما ووقع
الفضل بن سهل على قصة ساع سعى اليه نحن نرى قبول السعاية
شرا منها لان السعاية دلالة والقبول اجازة فاتقوا الساعي
فانه ان كان في سعايته صادقا كان في صدقه اثما اذ لم
يحفظ الحرمة ويستر العورة وقال الاسكندر لساع سعى
اليه في رجل اتحب ان نقبل منك ما تقول فيه على ان نقبل منه ما يقول
فيك قال لا قال فكف عن الشر يكف عنك الشر وحكي ان
الله تعالى اوحى الى موسى عليه السلم ان في بلدك ساعيا ولست
امطر لك وهو في ارضك فقال يا رب دلني عليه حتى اخرجه فقال
يا موسى اكره النميمة وانم

الفصل السادس

في الحسد والمنافسة ان الحسد خلق ذميم مع اضراره بالبدن
وفساده للدين حتى لقد امر الله تعالى بالاستعاذة من شره فقال

تعالى من شر حاسد اذا حسد ونا هيك بحال ذلك شرا . روي
عن النبي عليه السلم انه قال دب اليكم داء الامم قبلكم البغضاء
والحسد هي الحالقة حالقة الدين لا حالقة الشعر والذي نفس
محمد بيده لا تومنوا حتى تحابوا الا انبيكم بامر اذا فعلتموه
تحاببتم افشوا السلام بينكم فاخبر عليه السلم بحال الحسد التحاب [التحابب وان]
بنفيه وان السلم يبعث على التحابب فصار السلام اذا نافيا للحسد
وقد جاء كتاب الله تعالى بما يوافق هذا القول قال الله تعالى ادفع
بالتي هي احسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كانه ولي حميم
فحكي عن مجاهد ان معناه ادفع بالسلام اساءة المسيء وقال [الشاعر]
قد يلبث الناس حينا ليس بينهم ود فيزرعه التسليم واللطف
وقال بعض السلف الحسد اول ذنب عصي الله تعالى به في السماء
يعني حسد ابليس لادم عليه السلم واول ذنب عصي الله تعالى
في الارض يعني حسد ابن ادم لاخيه حتى قتله . وقال بعض
الحكماء من رضي بقضاء الله تعالى لم يسخطه احد ومن
قنع بعطائه لم يدخله حسد . وقال بعض البلغاء الناس حاسد
ومحسود ولكل نعمة حسود . وقال بعض الادباء ما رايت ظالما
اشبه بمظلوم من الحسود نفس دايم وهم لازم وقلب هايم

فاخذه بعض الشعراء وقال ⁂

ان الحسود الظلوم في كرب يخاله من يراه مظلوما ⁂
ذا نفس دايم على نفس يظهر منه ما كان مكتوما ⁂

ولو لم يكن من ذم الحسد الا انه خلق دنيء يتوجه نحو الاكفاء
والاقارب ويخص بالمخالط والمصاحب لكانت النزاهة عنه
كرما والسلامة منه مغنما فكيف وهو بالنفس مضر وعلى الهم
مصر حتى ربما افضى بصاحبه الى التلف من غير نكاية في عدو
ولا اضرار بمحسود . وقد قال معاوية رضي الله عنه ليس في
خصال الشر اعدل من الحسد يقتل الحاسد قبل ان يصل
الى المحسود . وقد قال بعض الحكماء يكفيك من الحسود ان
يغتم في وقت سرورك . وقيل في منثور الحكم عقوبة الحاسد
من نفسه . وقال الاصمعي قلت لاعرابي ما اطول عمرك
قال تركت الحسد فبقيت . وقال رجل لشريح القاضي اني
لاحسدك على ما ارى من صبرك على الخصوم ووقوفك على غامض
الحكم فقال ما نفعك الله بذلك ولا ضرني . وقال عبد الله بن المعتز
اصبر على كيد الحسود فان صبرك قاتله . فالنار تاكل بعضها ان لم تجد ما تاكله
وحقيقة الحسد شدة الاسى على الخيرات تكون للناس الافاضل

وهو عين المنافسة وربما غلط قوم فظنوا ان المنافسة في الخير
هي الحسد وليس الامر كما ظنوا لان المنافسة طلب التشبه بالافاضل
من غير ادخال ضرر على الفاضل والحسد مصروف الى الضرر
لان غايته ان يعدم الفاضل فضله من غير ان يصير الفضل له
فهذا هو الفرق بين المنافسة والحسد والمنافسة اذاً فضيلة
لانها داعية الى اكتساب الفضايل والاقتداء بالاخيار والافاضل
وقد روي عن النبي عليه السلم انه قال المؤمن يغبط والمنافق
يحسد وقال بعض الشعراء

نافس على الخير اهل الغنى فانما الدنيا احاديث
كل امرئ في شانه كادح فوارث منهم وموروث

واعلم ان دواعي الحسد ثلثة احدها بغض المحسود فياسى عليه
بفضيلة تظهر ومنقبة تشكر فيثير حسداً قد خامر بغضاً وهذا
النوع لا يكون عاماً وان كان اضرها لانه ليس يبغض كل الناس
والثاني ان يظهر من المحسود فضل يعجز عنه الحاسد فيكره تقدمه
فيه واختصاصه فيثير ذلك حسداً لولاه لكف عنه وهذا
اوسطها لانه لا يحسد الاكفاء ومن دنا وانما يختص بحسد
من علا وقد يمتزج بهذا النوع ضرب من المنافسة ولكنها مع عجز
فلذلك صار حسداً والثالث ان يكون في الحاسد شح بالفضايل
وبخل بالنعم وليست اليه فيمنع منها ولا بد فيدفع عنها لانها
مواهب منحها الله تعالى من يشاء فيسخط على الله تعالى في قضايه
ويحسد على ما منح من عطايه وان كانت نعم الله عنده اكثر
ومنحه عليه اظهر وهذا النوع من الحسد اعمها واخبثها
اذ ليس لصاحبه راحة ولا لرضاه غاية فان اقترن بشر وقدرة
كان بواراً وانتقاماً وان صادف عجزاً ونهاية كان حمداً وسقاماً
وقد قال عبد الحميد الحسود من الهم كساقي السم فاذا سرى سمه
سرى عنه همه واعلم ان بحسب فضل الانسان وظهور النعمة
عليه يكون حسد الناس له فان كثر فضله كثر حساده وان
قل قلوا لان ظهور الفضل يثير الحسد وحدوث النعمة يضاعف
الكمد ولذلك قال النبي عليه السلم استعينوا على قضاء الحوايج
بسترها فان كل ذي نعمة محسود وقال عمر بن الخطاب
ما كانت لله تعالى على احد نعمة الا وجد لها حاسداً ولو كان الرجل
اقوم من القدح لما عدم غامزاً قال الشاعر

ان يحسدوني فاني غير لايمهم قبلي من الناس اهل الفضل قد حسدوا
فدام لي ولهم ما بي وما بهم ومات اكثرنا غيظاً بما يجدوا

وربما كان الحسد منبها على فضل المحسود ونقص الحسود قال ابو تمام

واذا اراد الله نشر فضيلة طويت اتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

لولا التخوف للعواقب لم يزل للحاسد النعمى على المحسود

فاما ما يستعمله من كان الحسد عليه غالبا وكان طبعه اليه مايلا
ليتنفي عنه فيكفاه ويسلم من ضرره وعدواه فامور هي له ان صادفها
عدم منها اتباع الدين في اجتنابه والرجوع الى الله تعالى في تدبيره وآدابه
فيقهر نفسه على مذموم خلقها وينقلها على لئيم طبعها وان كان نقل
الطباع عسرا لكن بالرياضة والتدريج يسهل ما استصعب
ويحبب منه ما اتعب وان تقدم قول القايل

من رتبة خلقه كيف تخلى خلقه غير انه اذا عاني تهذيب نفسه

تظاهر بالخلق دون الخلق ثم بالعادة يصير كالخلق قال ابو تمام

فلم اجد الاخلاق الا تخلقا ولم اجد الافضال الا تفضلا

ومنها العقل الذي يستقبح به من نتايج الحسد ما لا يرتضيه و
يستنكف من هجنة مساويه فيذلل نفسه انفة ويقهرها حمية
فيذعن لرشدها ويجيب الى صلاحها وهذا انما يصح لذي النفس
الابية والهمة العالية وان كان ذو الهمة يجل عن دناءة الحسد

وقال الشاعر

ابى له نفسا ان نفس زكية ونفس اذا ما خافت الظلم تشمس

ومنها ان يستدفع ضرره ويتوقى اثره ويعلم ان مكانته في نفسه ابلغ
ومن المحسود ابعد فيستعمل الحزم في دفع ما كره واجتهد ليكون
اطيب نفسا واهنى عيشا وقد قيل العجب لغفلة الحساد عن
سلامة الاجساد وقال الشاعر

بصير باعقاب الامور كانما يرى بصواب الراي ما هو واقع

ومنها ما يرى من نفور الناس عنه وبعدهم منه فيخافهم اما على نفسه
من عداوة او على عرضه من ملامة فيتلقاهم بمعالجة نفسه ويراهم
ان صلحوا اجدى نفعا واخلص ودا وقد قال ابن العميد

داوى جوى وكيس حازم من يستكف النار بالحلفاء

وقال المومل بن اميل

لا تحسبوني غنيا عن مودتكم اني اليكم وان ايسرت مفتقر

ومنها ان يساعد القضاء ويستسلم للمقدور ولا يرى ان يغالب
قضاء الله تعالى فيرجع مغلوبا ولا ان يعارضه في امره فيرد محروما
مسلوبا وقد قال اردشير بن بابك اذا لم يساعدنا القضاء ساعدناه

قدر الله كاين حين يقضي وروده قد مضى في علمه وانتهى ما يريده

وقال محمود الوراق

واخو الحزم حزمه ليس ما يزيده • فارد ما يكون ان لم يكن مما تريد •
فان اظفرته السعادة باحد هذه الاسباب وهدته المراشد
الى استعمال الصواب سلم من سقامه وخلص من غرامه واستبدل
بالنقص فضلا واعتاض من الذم حمدا وان استنزل نفسه عن
مذمة وصرفها عن لايمة فهو اظهر حزما واقوى عزما ممن كفته
النفس جهادها واعطته قيادها • ولذلك قال علي بن ابي طالب
رضي الله عنه خياركم كل مفتتن تواب وان صدته الشقوة عن
مراشده واضله الحرمان عن مقاصده فانقاد للطبع اللئيم
وغلب عليه الخلق الذميم حتى ظهر حسده واستمر كمده فقد
باء باربع مذام احدهن حسرات الحسد وسقام الجسد ثم
لا يجد لحسرته انتهاء ولا يامل لسقامه شفاء • وقد قال
ابن المعتز الحسد داء الجسد • والثانية انخفاض المنزلة
وانحطاط الرتبة لانحراف الناس عنه ونفورهم منه وقد
قيل في منثور الحكم الحسود لا يسود • والثالثة مقت
الناس له حتى لا يجد فيهم محبا وعداوتهم له حتى لا يرى فيهم وليا
فيصير بالعداوة ماثورا وبالمقت مزجورا ولذلك قال النبي
صلى الله عليه وسلم شر الناس من يبغض الناس ويبغضونه

مفتتن

والرابعة اسخاط الله تعالى في معارضته واجتناب الاوزار في
مخالفته اذ ليس يرى قضاء الله عدلا ولا لنعمه من الناس اهلا
ولذلك قال النبي عليه السلم ان الحسد ياكل الحسنات كما
تاكل النار الحطب وقال عبد الله بن المعتز الحاسد مغتاظ
على من لا ذنب له بخيل بما لا يملكه طالب لما لا يجده • فاذا بلي الانسان
بمن هذه حاله من حساد النعم واعداء الفضل استعاذ بالله
من شره وتوقى مصارع كيده وتحرز من غوائل حسده وبعد عن
ملامسته وادنائه لفضل دائه واعوان دوائه فقد قيل حاسد
النعمة لا يرضيه الا زوالها وقال بعض الحكماء من ضر بطبعه
فلا تانس بقربه فان قلب الاعيان صعب المرام وقال عبد الحميد
اسد تقاربه خير من حسود تراقبه وقال محمود الوراق
اعطيت كل الناس من نفسي الرضا الا الحسود فانه اعياني
ما ان لي ذنبا اليه علمته الا تظاهر نعمة الرحمان
وابى فما يرضيه الا ذلتي وذهاب اموالي وقطع لساني
وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ثلث لا يسلم احد
منهن الطيرة وسوء الظن والحسد فاذا تطيرت فلا ترجع واذا
ظننت فلا تحقق واذا حسدت فلا تبغ فصل واما ادب

المواضعة والاصطلاح فضربان أحدهما ما تكون المواضعة
في فروعه والعقل موجب لأصوله والثاني ما تكون المواضعة
في فروعه وأصوله وذلك متضح في الفصول التي نذكرها إذا استبرت
وهي ثمانية. الفصل الأول في الكلام والصمت. اعلم أن
الكلام ترجمان يعبر عن مستودعات الضمائر ويخبر بمكنونات
السرائر لا يمكن استرجاع بوادره ولا يقدر على رد شوارده فحق
على العاقل أن يحترز من زلله بالإمساك عنه أو بالإقلال منه
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال رحم الله من قال
خيرا فغنم أو سكت فسلم. وقال عليه السلام لمعاذ يا معاذ
أنت سالم ما سكت فإذا تكلمت فعليك أو لك. وقال علي بن أبي
طالب كرم الله وجهه اللسان معيار أطاشه الجهل وأرجحه
العقل. وقال بعض الحكماء الزم الصمت تعد حكيما جاهلا
كنت أو عالما. وقال بعض الأدباء سعد من لسانه صموت
وكلامه قوت. وقال بعض العلماء من أعود ما يتكلم به العاقل
أن لا يتكلم إلا لحاجته أو حجته ولا يتفكر إلا في عاقبته أو آخرته
وقال بعض البلغاء الزم الصمت فإنه يكسبك صفو المحبة
ويؤمنك سوء المغبة ويلبسك ثوب الوقار ويكفيك مؤونة

الاعتذار. وقال بعض الفصحاء اعقل لسانك إلا عن حق
توضحه أو باطل تدحضه أو حكمة تنشرها أو نعمة تشكرها
وقال بعض الشعراء

رأيت العز في أدب وعقل ... وفي الجهل المذلة والهوان
وما حسن الرجال لهم بحسن ... إذا لم يسعد الحسن البيان
كفى بالمرء عيبا أن تراه ... له وجه وليس له لسان

(الحسن)

واعلم أن للكلام شروطا لا يسلم المتكلم من الزلل إلا بها ولا
يعرى من النقص إلا أن يستوعبها وهي أربعة. فالشرط الأول
أن يكون الكلام لداع يدعو إليه إما في اجتلاب نفع أو دفع ضرر
والشرط الثاني أن يأتي به في موضعه ويتوخى به إصابة فرصته
والشرط الثالث أن يقتصر منه على قدر حاجته والشرط
الرابع أن يتخير اللفظ الذي يتكلم به. فهذه أربعة شروط
متى أخل المتكلم بشيء منها أوهن فضيلة باقيها وسنذكر
من تعليل كل شرط منها بما ينبئ عن لزومه. فأما الشرط
الأول وهو الداعي إلى الكلام فلأن ما لا داعي إليه هذيان
وما لا سبب له هجر. ومن سامح نفسه في الكلام إذا عن ولم
يراع صحة دواعيه وإصابة معانيه كان قوله مرذولا ورأيه

ولم يراعي

معلولاً كالذي حكى ابن عائشة أن شابًا كان يجالس الأحنف
ويطيل الصمت فأعجب ذلك الأحنف فخلت الحلقة يومًا فقال
له الأحنف تكلم يا ابن أخي فقال يا عم أرأيت لو أن رجلاً سقط
من شرافة هذا المسجد كان يضره شيء فقال يا ابن أخي
ليتنا تركناك مستورًا ثم تمثل الأحنف بقول الأعور الشني
حيث يقول وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه في التكلم .
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم .
وكالذي حكى عن أبي يوسف الفقيه رحمه الله أن رجلاً
كان يجلس إليه فيطيل الصمت فقال أبو يوسف ألا تسأل فقال
بلى متى يفطر الصائم فقال إذا غربت الشمس فقال له فإن لم تغرب
الشمس إلى نصف الليل قال فتبسم أبو يوسف وتمثل ببيتي الخطفي
جد جرير عجبت لإزراء الغبي بنفسه وصمت الذي بالعلم قد كان أعلما .
وفي الصمت ستر للغبي وإنما صحيفة لب المرء أن يتكلما .
قال القاضي أبو الحسن رحمة الله عليه ومما أطرفك به
عني أنني كنت يومًا في مجلسي بالبصرة وأنا مقبل على تدريس
أصحابي إذ دخل شيخ مسن قد ناهز الثمانين أو جاوزها فقال
لي قد قصدتك بمسألة اخترتك لها فقلت سل عافاك الله وظننته

يسأل عن حادث قد نزل به فقال أخبرني عن نجم إبليس و
نجم آدم ما هو فإن هذين لعظم شأنهما لا يسأل عنهما إلا علماء
الدين فعجبت وعجب من في مجلسي من سؤاله وبدر إليه منهم
بالإنكار قوم فكففتهم وقلت هذا لا يقتنع مع ما يظهر من حاله
إلا بجواب مثله فأقبلت عليه وقلت يا هذا إن المنجمين يزعمون
أن نجوم الناس لا تعرف إلا بمعرفة مواليدهم فإن ظفرت بمن يعلم
ذلك فاسأله فحينئذ أقبل علي وقال جزاك الله خيرًا ثم انصرف
مسرورًا فلما كان بعد أيام عاد وقال ما عرفت إلى وقتي هذا
من يعرف مولد هذين فانظر إلى هؤلاء كيف أبان الكلام عن جهلهم
وأعرب السؤال عن نقصهم إذ لم يكن داع إليه ولا روية فيما تكلموا به
ولو صدر عن روية ودعا إليه داع لسلموا من شينه وبرئوا من
عيبه ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لسان العاقل من وراء
قلبه فإذا أراد الكلام رجع إلى قلبه فإن كان له تكلم وإن كان عليه
أمسك وقلب الجاهل من وراء لسانه يتكلم بكل ما عرض له .
وقال عمر بن عبد العزيز من لم يعد كلامه من عمله كثرت خطاياه
وقال بعض الحكماء عقل المرء مخبوء تحت لسانه . وقال
بعض البلغاء احبس لسانك قبل أن يطيل حبسك أو يتلف نفسك

فلا شيء أولى بطول حبس من لسان يقصر عن الصواب ويسرع إلى
الجواب ۞ وقال أبو تمام الطائي ۞

۞ ومما كانت الحكماء قالت لسان المرء من خدم الفؤاد ۞

وكان بعض العلماء يحتشم الرخصة في الكلام ويقول إذا جالست
الجهال فانصت لهم وإذا جالست العلماء فانصت لهم فإن في إنصاتك
للجهال زيادة في الحلم وفي إنصاتك للعلماء زيادة في العلم ۞ وأما
الشرط الثاني وهو أن يأتي بالكلام في موضعه فإن الكلام في
غير حينه لم يقع موقع الانتفاع به وما لا ينفع من الكلام فقد
تقدم القول فيه بأنه هذيان وهجر فإن قدم ما يقتضي التأخير
كان عجلة وخرقا وإن أخر ما يقتضي التقديم كان توانيا وعجزا
لأن لكل مقام قولا وفي كل زمان عملا ۞ وقد قال الشاعر ۞

۞ تضع الحديث على مواضعه وكلامها من بعده نزر ۞

وأما الشرط الثالث وهو أن يقتصر منه على قدر حاجته فإن
الكلام إذا لم ينحصر بالحاجة ولم يتقدر بالكفاية لم يكن لحده غاية
ولا لقدره نهاية وما لم يكن من الكلام محصورا كان إما حصرا
إن قصر أو هذرا إن كثر ۞ روي أن أعرابيا تكلم عند رسول الله
صلى الله عليه وسلم وطول فقال له النبي عليه السلام كم دون

لسانك من حجاب ۞ فقال شفتاي وأسناني قال فإن الله يكره
الانبعاق في الكلام فنضر الله وجه امرئ أوجز في كلامه
واقتصر على حاجته ۞ وحكي أن بعض الحكماء رأى رجلا
يكثر الكلام ويقل السكوت فقال له إن الله تعالى إنما خلق لك
أذنين ولسانا واحدا ليكون ما تسمعه ضعف ما تتكلم به ۞ وقال
بعض الحكماء من كثر كلامه كثرت آثامه ۞ وقال ابن مسعود
أنذركم فضول المنطق ۞ وقال بعض البلغاء كلام المرء بيان
فضله وترجمان عقله فاقصره على الجميل واقتصر منه على
القليل وإياك وما يسخط سلطانك أو يوحش إخوانك فمن أسخط
سلطانه تعرض للمنية ومن أوحش إخوانه تبرأ من الحرية ۞ قال الشاعر

۞ وزن الكلام إذا نطقت فإنما يبدي عيوب ذوي العقول المنطق ۞

والمخالفة قدر الحاجة من الكلام حالتان تقصير يكون حصرا وتكثير
يكون هذرا وكلاهما شين وشين الهذر أشنع وربما كان في الغالب
أخوف قال النبي صلى الله عليه وسلم هل يكب الناس على
مناخرهم في نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم ۞ وقال بعض الحكماء
مقتل الرجل بين فكيه ۞ وقال بعض الشعراء

۞ رأيت اللسان على أهله إذا ساسه الجهل ليثا مغيرا ۞

وقال بعض البلغاء الحصر خير من الهذر لان الحصر يضعف
الحجة والهذر يتلف المهجة   وقال بعض الشعراء

يا رب السنة كالسيوف تقطع اعناق اصحابها ❁
وما ينتقص من شباب الرجال يزد في نهاها والبابها

وقد ذهب بعضهم الى ان الكلام اذا كثر عن قدر الحاجة وزاد على
حد الكفاية وكان صوابا لا يشوبه خطل وسليما لا يعتوره زلل
فهو البيان والسحر الحلال ❁ وقال سليمان بن عبد الملك وقد
ذم الكلام في مجلسه كلا ان من تكلم فاحسن قدر على ان يسكت
فيحسن وليس كل من سكت فاحسن قدر على ان يتكلم فيحسن ❁ ووصف
بعضهم الكاتب فقال الكاتب من اذا اخذ شبرا كفاه وان وجد
طومارا املاه وانشد بعضهم في خطبا اياد ❁

❁ يرمون بالخطب الطوال وتارة وحي الملاحظ خيفة الرقباء

وقال الهيثم بن صالح لابنه يا بني اذا اقللت من الكلام اكثرت
من الصواب قال يا ابت فان انا اكثرت يعني كلاما صوابا قال
يا بني ما رايت موعوظا احق بان يكون واعظا منك وانشدت
لأبي الفتح البستي

تكلم وسدد ما استطعت فانما كلامك حي والسكوت جماد ❁
فان لم تجد قولا سديدا تقوله فصمتك عن غير السداد سداد ❁

وقيل لاياس بن معاوية ما فيك عيب الا كثرة الكلام قال
افتسمعون صوابا ام خطا قالوا بل صوابا قال فالزيادة من الخير
خير قال ابو عثمان الجاحظ وليس كما قال فان للكلام غاية
ولنشاط السامعين نهاية وما فضل عن مقدار الاحتمال ودعا الى
الاستثقال والملال فذلك الفاضل هو الهذر وصدق ابو عثمان
لان الاكثار منه وان كان صوابا يمل السامع ويكد الخاطر فهو
صادر عن اعجاب منه ولولاه لاقصر عنه ومن اعجب بكلامه استرسل
فيه والمسترسل في كلامه كثير الزلل دائم العثار ● وقال بعض
الحكماء من اعجب بقوله اصيب بعقله ● وليس للمكثر الهذر
رجاء يقابل خوفه ولا نفع يوازي ضرره لانه يخاف من نفسه الزلل
ومن سامعه السامة والملل وليس في مقابلة هذين حاجة داعية
ولا نفع مرجو   وقد روي عن النبي عليه السلم انه قال ابغضكم
الي المتفيهق المكثار والملح المهذار ● وسال رجل حكيما قال
متى اتكلم قال اذا اشتهيت الصمت فقال متى اصمت قال اذا اشتهيت
الكلام ● وقال جعفر بن يحيى اذا كان الايجاز كافيا كان الاكثار
عيا واذا كان الاكثار واجبا كان التقصير عجزا ● وقيل في منثور
الحكم اذا تم العقل نقص الكلام   وقال بعض الادباء من اطال

صمتة اجتلب من الهيبة ما ينفعه ومن الوحشة ما لا يضره
وقال بعض البلغاء عيّ تسلم به خير من نطق تندم عليه فاقتصر
من الكلام على ما يقيم حجتك ويبلغ حاجتك واياك وفضوله فانها
تزل القدم وتورث الندم وقال بعض الفصحاء فم العاقل ملجم
اذا هم بالكلام احجم وفم الجاهل مطلق كلما شاء اطلق قال الشاعر
ان الكلام يعبر القوم حلوته حتى يلج به عيّ واكثار
واما الشرط الرابع وهو اختيار اللفظ الذي يتكلم به فلان اللسان
عنوان الانسان يترجم عن مجهوله ويبرهن عن محصوله فلزمه ان
يكون بتهذيب الفاظه حريا وبتقويم لسانه مليا روي عن النبي
عليه السلم انه قال لعمه العباس يعجبني جمالك قال وما جمال
الرجل قال لسانه وقال خالد بن صفوان ما الانسان لولا
اللسان هل كان الا بهيمة مهملة او صورة ممثلة وقال بعض
الحكماء اللسان وزن الانسان وقال بعض الادباء كلام
المرء وافد ادبه وقال بعض الادباء يستدل على عقل الرجل
بقوله وعلى اصله بفعله وقال الشاعر
وان لسان المرء ما لم تكن له حصاة على عوراته لدليل
وليس يصح اختيار الكلام الا لمن اخذ نفسه بالبلاغة وكلفها

لزوم الفصاحة حتى يصير مستبدئا بها معتادا لها فلا يأتي الكلام
مستكره اللفظ مختل المعنى لان البلاغة ليست معاني مفردة
ولا الفاظا عارية وانما البلاغة ان تكون المعاني الصحيحة مستودعة
في الفاظ فصيحة فتكون فصاحة الالفاظ مع صحة المعاني
هي البلاغة وقد قيل لليوناني ما البلاغة فقال اختيار الكلام
وتصحيح الاقسام وقيل للرومي فقال حسن الاقتصار
عند البديهة والغزارة يوم الاطالة وقيل للهندي فقال
معرفة الفصل من الوصل وقيل للعربي فقال ما حسن ايجازه
وقل مجازه وقيل للبدوي فقال ما دون السحر وفوق الشعر
يفت الخردل ويحط الجندل وقيل للحضري فقال ما كثر
اعجازه وتناسبت صدوره واعجازه وقال ابن المقفع البلاغة
قلة الحصر والجراة على البشر وسئل الحجاج ابن القبعثرى
عن الايجاز فقال ان تقول فلا تبطئ وان تصيب فلا تخطئ وقال الشاعر
خير الكلام قليل على كثير دليل
والعيّ معنى قصير يحويه لفظ طويل
وفي الكلام فضول وفيه قال وقيل
فاما صحة المعاني فتكون من ثلثة اوجه احدها ايضاح تفسيرها

ولا

[illegible]

حتى لا تكون مشكلة ولا مجملة والثاني استيفاء تقسيمها حتى
لا يدخل فيها ما ليس منها ولا تخرج عنها ما هو منها والثالث
صحة مقابلاتها والمقابلة تكون من وجهين احدهما مقابلة المعنى
بما يوافقه وحقيقة هذه المقابلة لان المعاني تصير متماثلة
والثاني مقابلته بما يضاده وهو حقيقة المقابلة وليس للمقابلة
الا هذين الوجهين الموافقة في الائتلاف او المضادة مع الاختلاف
واما فصاحة الالفاظ فتكون بثلثة اوجه احدها مجانبة الغريب
الوحشي حتى لا يمجه سمع ولا ينفر منه طبع والثاني تنكب اللفظ
المستبذل والعدول عن الكلام المسترذل حتى لا يستسقطه
خاص ولا ينبو عن فهمه عامي كما قال الجاحظ في كتاب البيان
اما انا فلم ار قوما امثل طريقة في البلاغة من الكتاب وذلك
انهم قد التمسوا من الالفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا
عاميا والثالث ان يكون بين الالفاظ ومعانيها مناسبة لمعانيها
فلا يزيد عليها ولا ينقص عنها وقد قال بشر بن المعتمر في وصيته
في البلاغة اذا لم تجد اللفظة الواقعة موقعها ولا صائرة الى
مستقرها ولا حالة في مركزها بل وجدتها قلقة في مكانها
نافرة في موضعها فلا تكرهها على القرار في غير موضعها فانك اذا

أجد

لم تتعاط قريض الشعر الموزون ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور لم يعبك
بترك ذلك احد واذا انت تكلفتهما ولم تكن حاذقا فيهما عابك من انت
اقل عيبا منه وازرى عليك من انت فوقه • واما المناسبة فهو ان
يكون المعنى يليق ببعض الالفاظ اما بعرف مستعمل او لاتفاق
مستحسن حتى اذا ذكرت تلك المعاني بغير تلك الالفاظ كانت
نافرة عنها وان كانت افصح واوضح لاعتياد ما سواها • وقد قال
بعض البلغاء لا يكون البليغ بليغا حتى يكون معنى كلامه اسبق
الى فهمك من لفظه الى سمعك • فاما معاطاة الاعراب وتجنب اللحن
فانما هو من صفات الصواب والبلاغة اعلى منه مرتبة واشرف منزلة
وليس لمن لحن في كلامه مدخل في الادباء فضلا عن ان يكون في عداد
البلغاء والفصحاء • اعلم ان للكلام آدابا ان اغفلها المتكلم اذهب
رونق كلامه وطمس بهجة بيانه ولها الناس عن محاسن فضله
بمساوي ادبه وعدلوا عن نشر مناقبه بذكر مثالبه فمن آدابه ان لا
يتجاوز في مدح ولا يسرف في ذم وان كانت النزاهة عن الذم كرما
والتجوز في المدح ملقا يصدر عن مهانة والسرف في الذم انتقام
يصدر عن شر وكلاهما شين وان سلم من الكذب • روي انه لما
قدم على رسول الله وفد تميم سال صلى الله عليه عمرو بن الاهتم

عن قيس بن عاصم فمدحه فقال قيس والله يا رسول الله لقد علم انى
خير مما وصف ولكنه حسدني فذمه عمرو وقال يا رسول الله لقد
صدقت في الاولى وما كذبت في الاخرى لاني رضيت في الاولى
فقلت احسن ما علمت وسخطت في الاخرى فقلت اقبح ما علمت
فقال النبي صلى الله عليه وسلم ان من البيان لسحرا على ان السلامة
من الكذب في المدح والذم متعذرة لا سيما اذا مدح تقربا وذم
حنقا حكي عن الاحنف بن قيس انه قال سهرت ليلتي افكر في
كلمة ارضي بها سلطاني ولا اسخط بها ربي فما وجدتها وقال
عبد الله بن مسعود ان الرجل ليدخل الى السلطان ومعه دينه
فيخرج وما معه دينه قيل وكيف ذاك قال يرضيه بما يسخط الله
تعالى وسمع ابن الرومي رجلا يصف رجلا ويبالغ في مدحه فانشا يقول

اذا ما وصفت امرأ لامرئ فلا تغل في وصفه واقصد

فانك ان تغل تغل الظنون فيه الى الامد الابعد

فيضؤل من حيث عظمته بفضل المغيب على المشهد

ومن ادابه ان لا يبعثه الرغبة على الاسترسال في وعد او وعيد
يعجز عنهما ولا يقدر على الوفاء بهما فان من اطلق بهما لسانه و
ارسل فيهما عنانه ولم يستثقل من القول ما يستثقله من العمل

صار وعده نكثا ووعيده عجزا حكي ان سليمان بن داود
عليهما السلام مر بعصفور يدور حول عصفورة فقال لاصحابه
هل تدرون ما يقول لها قالوا لا يا نبي الله قال انه يخطبها الى
نفسه ويقول تزوجيني نفسك اسكنك اي غرف دمشق شئت
قال سليمان وكذب العصفور غرف دمشق مبنية بالصخر لا يقدر
ان يسكنها هناك ولكن كل خاطب كذاب ومن ادابه انه اذا
قال قولا حققه بفعله واذا تكلم بكلام صدقه بعمله فان ارسال
القول اختيار والعمل به اضطرار ولان يفعل ما لم يقل اجمل
به من ان يقول ما لا يفعل وقد قال بعض الحكماء احسن
الكلام ما لا يحتاج فيه الى الكلام اي يكتفى بالفعل من القول
وقال محمود الوراق

القول ما صدقه الفعل والفعل ما وكده العقل

لا يثبت القول اذا لم يكن يقله من تحته الاصل

ومن ادابه ان يراعي مخارج كلامه بحسب مقاصده واغراضه
فان كان ترغيبا قرنه باللين واللطف وان ترهيبا خلطه بالخشونة
والعنف فان لين اللفظ في الترهيب وخشونته في الترغيب
خروج عن موضعهما وتعطيل للمقصود بهما فيصير لغوا والغرض

المقصود لهوا وقد قال ابو الاسود الدؤلي لابنه يا بني اذا كنت
في قوم فلا تكلم من هو فوقك فيمقتوك ولا تكلم من هو دونك فيزدروك
ومن ادابه ان لا يرفع بكلامه صوتا مستنكرا ولا ينزعج له
انزعاجا مستهجنا وليكفف عن حركة تكون طيشا واشارة
تكون عيا فان نقص الطيش اكثر من فضل البلاغة وقد حكي
ان الحجاج قال لاعرابي اخطيب انا قال نعم لولا انك تكثر
الرد وتشير باليد وتقول اما بعد ومن ادابه ان يتجافى هجر
القول ومستقبح الكلام وليعدل الى الكناية عما يستقبح صريحه
ويستهجن فصيحه ليبلغ الغرض ولسانه نزه وادبه مصون
وقد قال محمد بن علي في تاويل قوله واذا مروا باللغو مروا
كراما قال اذا ذكروا الفروج كنوا عنها وكما انه يصون لسانه
عن ذلك فهكذا يصون سمعه عنه فلا يسمع خنا ولا يصغي
الى فحش فان سماع الفحش داع الى اظهاره وذريعة الى اكثاره
واذا وجد عن الفحش معرضا كف قائله وكان اعراضه احد
النكيرين كما ان سماعه احد الباعثين انشدني ابو الحسن
ابن ابي الحارث الهاشمي

وسمعك صن عن سماع القبيح كصون اللسان عن النطق به

كانوا

فانك عند سماع القبيح شريك لقائله فانتبه

تجنب

ومما يجري مجرى القول وهجره في وجوب اجتنابه ولزوم تنكبه
ما كان شنيع البديهة مستنكر الظاهر وان كان مع الباطل
سليما وبعد الكشف والروية مستقبحا كالذي رواه الازدي
عن الصولي لبعض المتكلفين من الشعراء

اني شيخ كبير كافر بالله سيري انت ربي والهي رازق الطفل الصغير

يريد بقوله كافر لابس لان الكفر التغطية ولذلك سمي الكافر
بالله كافرا لانه قد غطى نعمة الله بمعصيته وقوله بالله سيري
اقسم عليها بالله ان تسير وقوله انت ربي يعني ربتي وذلك من التربية
والهي رازق الطفل الصغير كانه رازق الجلد الكبير فانظر
الى هذا التكليف الشنيع والتعمق البشع ما اعتاض من حيث
البديهة اذا سلم بعد الفكر والروية الا لوما ان حسن فيه الظن
او ذما ان قوي فيه الارتياب وقل ما يكون ذلك الا من خليع
بطر او مرتاب اشر فاما الحديث عن النبي صلى الله عليه
وسلم انه قال لا تصلوا على النبي فخارج عن هذا النوع
من الملتبس وفي تاويله وجهان احدهما اراد النهي عن الصلاة
في المكان المرتفع المحدودب ماخوذ من النبوة والثاني انه

اراد به الطريق ومنه سمي رسل الله انبياء لانهم الطريق اليه
وانما زال عنه التلبيس اذا قاله النبي عليه السلم وان كان
من قول غيره تلبيسا شنيعا لان موضوع خطابه وشواهد
احواله يصرفان كلامه عن التجوز والاسترسال من امر او نهي
الى ما يجوز ان يرد به شرع وينهى عنه نهي وليس يمتنع ذلك
في غيره ولذلك ما افترق وجوده منه ومن غيره ✲ ومن ادابه
ان يجتنب امثال العامة الغوغاء ويتخصص بامثال العلماء
والادباء فان لكل صنف من الناس امثالا تشاكلهم فلا
تجد لساقط الا مثلا ساقطا وتشبيها مستقبحا وقد قال الصنوبري

وللسقاط امثال فمنها ... تمثلهم لدى الشيء المريب
اذا ما كنت ذا بول صحيح ... الا فاضرب به وجه الطبيب

ولذلك علتان احداهما ان الامثال من هواجس الهمم وخطرات
النفوس فلم لدى الهمة الساقطة الا مثل مرذول وتشبيه
معلوم ✲ والثاني ان الامثال مستخرجة من احوال المتمثلين
بها فبحسب ما هم عليه تكون امثالهم فلهاتين العلتين ما وقع
الفرق بين امثال الخاصة والعامة وربما الف المتخصص
مثلا عاميا وتشبيها ركيكا لكثرة ما يطرق سمعه من مخالطة

يكن

الارذال فيستسهل ضربه مثلا فيضربه في الناس مثلا كالذي حكي
عن الاصمعي ان الرشيد سأله يوما عن انساب بعض العرب فقال
على الخبير سقطت يا امير المؤمنين فقال له الفضل بن الربيع اسقط
الله حسك اتخاطب امير المؤمنين بمثل هذا الخطاب فكان الفضل
ابن الربيع مع قلة علمه اعرف بما يستعمل من الكلام في محاورة الخلفاء
من الاصمعي الذي هو واحد عصره وفريد دهره وللامثال في الكلام
مواقع في الاسماع وتاثير في القلوب لا يكاد الكلام المرسل يبلغ
مبلغها ولا يؤثر تاثيرها لان المعاني بها لائحة والشواهد بها
واضحة والنفوس لها وامقة والقلوب بها واثقة والعقول لها موافقة
ولذلك ضرب الله سبحانه الامثال في كتبه وجعلها من دليل
رسله واوضح بها الحجة على خلقه لانها بالعقول مقبولة وفي القلوب
معقولة ولها اربعة شروط احدها صحة التشبيه واصابة
التمثيل والثاني ان يكون العلم به سابقا والكل عليه موافقا
والثالث ان يسرع وصولها الى الفهم ويعجل تصورها في الوهم
من غير ارتياء في استخراجها ولا فكر في استنباطها والرابع ان
تناسب حال السامع ليكون ابلغ تاثيرا واحسن موقعا فاذا
جمعت الامثال المضروبة هذه الشروط الاربعة كانت زينة

اربع شروط

الكلام وجلاء المعاني وتدبر الافهام

الفصل الثاني

في الصبر والجزع • ان من حسن التوفيق وامارات السعادات الصبر في الملمات والرفق عند النوازل وبذلك نزل الكتاب وجاءت السنة قال الله تعالى يا ايها الذين امنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون • يعني اصبروا على ما افترض الله عليكم وصابروا عدوكم ورابطوا فيه تاويلان احدهما ورابطوا على الجهاد ورابطوا على انتظار الصلوات • روى ابو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا ادلكم على ما يحط الله به الخطايا ويرفع به الدرجات قالوا بلى يا رسول الله قال اسباغ الوضوء عند المكاره وكثرة الخطى الى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فنزل الكتاب بتاكيد الصبر فيما امر به وندب اليه وجعله من عزائم التقوى فيما افترضه وحث عليه • وروي عن النبي عليه السلم انه قال الصبر ستر من الكروب وعون على الخطوب • وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه الصبر مطية لا تكبو والقناعة سيف لا ينبو • وقال عبد الحميد لم اسمع اعجب من قول عمر رضوان الله عليه لو ان الصبر والشكر بعيران ما باليت ايهما ركبت • وقال عبد الله بن عباس افضل العدة الصبر على الشدة • وقال بعض البلغاء من خير خلالك الصبر على اختلالك • وقيل في منثور الحكم من احب البقاء فليعد للمصائب قلبا صبورا • وقال بعض الحكماء بالصبر على مواقع الكره تدرك الحظوظ • وقال بعض الشعراء وهو عبيد بن الابرص

صبر النفس عند كل ملم ❊ ان في الصبر حيلة المحتال

لا تضيقن في الامور فقد تكشف ❊ غماؤها بغير احتيال

ربما تجزع النفوس من الامر ❊ لها فرجة كحل العقال

وقال ابن المقفع في كتاب اليتيمة الصبر صبران فاللئام اصبر اجساما والكرام اصبر نفوسا وليس الصبر الممدوح صاحبه ان يكون الرجل قوي الجسد على الكد والعمل لان هذا من صفات الحمير ولكن ان يكون للنفس غلوبا وللامور محتملا ولجاشه عند الحفاظ مرتبطا واعلم ان الصبر على ستة اقسام وهو في كل قسم منها محمود فاول اقسامه واولاه الصبر على امتثال ما امر الله تعالى به والانتهاء عما نهى الله عنه لان به تخلص الطاعة وبخلوص الطاعة يصح الدين وتؤدى الفروض ويستحق به الثواب كما قال في محكم الكتاب انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب ولذلك قال النبي عليه السلم الصبر من الايمان بمنزلة الراس

من الجسد. ولبئس لمن قل صبره على طاعة الله حظ من بر ولا
نصيب من صلاح ومن لم ير لنفسه صبرا يكسبها ثوابا ويدفع
عنها عقابا كان مع سوء الاختيار بعيدا من الرشاد حقيقا بالضلال
وقد قال الحسن البصري رضي الله عنه يا من يطلب من الدنيا
ما لا يلحقه اترجو ان تلحق من الآخرة ما لا تطلبه وقال

ابو العتاهية

اراك امرأً ترجو من الله عفوه ... وانت على ما لا يحب مقيم
تدل على التقوى وانت مقصر ... فيا من يداوي الناس وهو سقيم

وهذا النوع من الصبر انما يكون لفرط الجزع وشدة الخوف
فان من خاف الله تعالى صبر على طاعته ومن جزع من عقابه
وقف عند اوامره. والقسم الثاني الصبر على ما تقضت اوقاته
من رزية قد اجهده الحزن عليها او حادثة قد استكده الكرب
والهم بها فان الصبر عليها يعقبه الراحة ويكسبها المثوبة بها
فان صبر طائعا والا احتمل همّا لازما وصبر كارها آثما وقد
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يقول الله سبحانه
وتعالى من لم يرض بقضائي ويصبر تحت بلائي فليختر ربا سواي
وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه للاشعث بن قيس انك ان
صبرت جرى عليك القلم وانت ماجور وان جزعت جرى عليك

القلم وانت مازور فذكر ذلك ابو تمام في شعره فقال

وقال علي في التعازي لاشعث ... وخاف عليه بعض تلك المآثم
اتصبر للبلوى عزاء وحسبة ... فتؤجر او تسلو سلو البهائم

وقال شبيب بن شيبة للمهدي ان احق ما صبر عليه ما لا يوجد
سبيلا الى دفعه وانشد

واذا تصبك مصيبة فاصبر لها ... عظمت مصيبة مبتلى لا يصبر

والقسم الثالث على ما فات ادراكه من رغبة مرجوة واعوز نيله من
مسرة مأمولة فان الصبر عنها يعقب السلو منها والاسف بعد
اليأس خرق. وروي عن النبي عليه السلام انه قال من اعطي
فشكر ومنع فصبر وظلم فغفر وظلم فاستغفر اولئك لهم الامن
وهم مهتدون. وقال بعض الحكماء اجعل ما طلبته من الدنيا
فلم تنله مثل ما لم يخطر ببالك ولم تقله. وقال بعض الشعراء

اذا ملك القضاء عليك امرا ... فليس يحله غير القضاء
فما لك والمقام بدار ذل ... ودار العز واسعة الفضاء

وقال بعض الحكماء ان كنت تجزع على ما فات من يدك فاجزع
على ما لم يصل اليك فاخذه بعض الشعراء فقال

لا تطل الحزن على فائت ... فقلما يجدي عليك الحزن

سيّان محزونٌ على فائتٍ ومضمرٌ حزناً بما لم يكن

والقسم الرابع الصبر فيما يخشى حدوثه من رهبة يخافها أو يحذر حلوله من نكبة يخشاها فلا يتعجل هم ما لم يأت فإن أكثر الهموم كاذبة والأغلب من الخوف مدفوع. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال بالصبر يتوقع الفرج ومن يدمن قرع الباب يلج. وقال الحسن البصري لا تحملن على يومك هم غدك فحسب كل يوم همه. وأنشد الجاحظ لحارثة بن بدر

إذا الهم أمسى وهو داءٌ فأمضه فلست بممضيه وأنت تعادله

ولا تنزلن أمر الشديدة بامرئ إذا هم أمراً عوقته عواذله

وقل للفؤاد إن نزا بك نزوة من الروع أفرخ أكثر الهم باطله

والقسم الخامس الصبر فيما يتوقعه من رغبة يرجوها أو ينتظر من نعمة يأملها فإنه إن أدهشه التوقع لها وأذهله التطلع إليها انسدت عليه سبل المطالب واستفزه تسويل المطامع وكان أبعد لرجائه وأعظم لبلائه وإذا كان مع الرغبة وقوراً وعند الطلب صبوراً انجلت عنه عماية الدهش وانجابت عنه حيرة الوله فأبصر رشده وعرف قصده. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الصبر ضياء يعني والله أعلم

أنه يكشف ظلم الحيرة ويوضح حقائق الأمور. وقال أكثم بن صيفي من صبر ظفر. وقال ابن المقفع كان على فص أردشير مكتوب الصبر مفتاح الدرك. وقال بعض الحكماء بحسن التأني تسهل المطالب. وقال بعض البلغاء من صبر نال المنى ومن شكر حصن النعمى. وقال محمد بن بشير

إن الأمور إذا انسدت مطالبها فالصبر يفتق منها كلما ارتتجا

لا تيأسن وإن طالت مطالبه إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

(في الهامش: كلما)

والقسم السادس الصبر على ما نزل من مكروه أو حل من أمر مخوف وبالصبر في هذا تنفتح وجوه الآراء وتستدفع مكائد الأعداء فإن من قل صبره عزب رأيه واشتد جزعه فصار صريع همومه وفريسة غمومه. وقد قال الله تعالى واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور. روى ابن عباس عن النبي عليه السلام أنه قال إن استطعت أن تعمل لله تعالى بالرضا في اليقين فافعل فإن لم تستطع فاصبر فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً واعلم أن النصر مع الصبر والفرج مع الكرب وإن اليسر مع العسر. وقال علي بن أبي طالب

رضوان الله عليه الصبر مناضل الحدثان والجزع من اعوان
الزمان • وقال بعض الحكماء بمفتاح عزيمة الصبر تعالج مغاليق
الامور • وقال بعض البلغاء عند انسداد الفرج تبدو مطالع
الفرج • وروى ابن عباس ان سليمان بن داود عليه السلم لما
استكد الشياطين في البناء شكوا ذلك الى ابليس فقال الستم تذهبون
فرغا وترجعون مشاغيل قالوا فقال ففي هذا راحة فبلغ ذلك
سليمان فشغلهم ذاهبين وراجعين فشكوا ذلك الى ابليس فقال
الستم تستريحون بالليل قالوا بلى قال ففي هذا راحة لكم نصف دهركم
فبلغ ذلك سليمان فاستعملهم بالليل والنهار فشكوا الى ابليس
ذلك فقال الان جاءكم الفرج فما لبثوا ان اصيب سليمان ميتا
على عصاه • واذا كان هذا نبي من انبياء الله تعالى يعمل بامره
ويقف على حده فكيف بما اجرته الاقدار من عاديه وساقه القضاء
من حوادث نازلة هل تكون مع التناهي الا منقرضة وعند بلوغ
الغاية الا منحسرة • وانشد بعض الادباء لعثمان بن عفان •

خليلي لا والله ما من ملمة تدوم على حي وان هي جلت
وكم من كريم قد بلي بنوايب فصابرها حتى مضت فاضمحلت
فكم غمرة هاجت بامواج غمرة تلقيتها بالصبر حتى تجلت

وكانت على الايام نفسي عزيزة فلما رات صبري على الذل ذلت

وليتسهل المصائب وتخفيف الشدائد اسباب اذا قارنت حزما
وصادفت عزما هان وقعها وقل تاثيرها وضررها فمنها اشعار
النفس بما تعلمه من حلول الفناء وتقضي المسار وان لها آجالا
منصرمة ومددا منقضية اذ ليس للدنيا حال تدوم ولا لمخلوق فيها
بقاء • روى ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال انما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب مال الى ظل شجرة في يوم
صايف ثم راح وتركها • وسئل علي بن ابي طالب كرم الله وجهه
عن الدنيا فقال تغر وتضر وتمر • وسال بعض خلفاء بني العباس
جليسا له عن الدنيا فقال اذا اقبلت ادبرت • وقال عمرو بن عبيد
الدنيا امد والآخرة ابد • وقال انوشروان ان احببت
ان لا تغتم فلا تقتن شيئا فاخذه بعض الشعراء فقال

الم تر ان الدهر من سوء فعله يكدر ما اعطى ويسلب ما اسدى
فمن سره ان لا يرى ما يسوءه فلا يتخذ شيئا يبالي به فقدا

وانشد بعض الحكماء

لحكيمنا بقراط خبر قضية ووصية تنفي الهموم النكدا
قال الهموم تكون من طمع الورى فلبئسما في طبعه ان ينفدا

فاذا انثنيت من الزجاجة قابلا للكسر فانكسرن فلا تكن مكمدا

وانشدني بعض اهل العلم لسعيد بن مسلم

انما الدنيا هبات وعواري مسترده
شدة بعد رخاء ورخاء بعد شده

ولما قتل بزرجمهر وجد في جيب قميصه رقعة فيها مكتوب اذا لم يكن
جد ففيم الكد واذا لم يكن للامر دوام ففيم السرور واذا لم يرد الله
دوام ملك ففيم الحيلة وقال ابن الرومي

رايت حياة المرء رهنا بموته وصحته رهنا كذلك بالسقم
اذا طاب لي عيش تنغص طيبه بطيب يقيني ان سيذهب كالحلم
ومن كان في عيش يراعي زواله فذلك في بوس وان كان في نعم

ومنها ان يتصور انجلاء الهموم وانكشاف الشدايد وانها تقدر
باوقات لا تنصرم قبلها ولا تستديم بعدها ولا تقصر بجزع
ولا تطول بصبر وان كل يوم يمر بها فهو يذهب منها بشطر ويأخذ
منها بنصيب حتى تنجلي وهو عنها غافل. حكي ان الرشيد
حبس رجلا ثم سال عنه بعد زمان فقال للموكل به قل له كل يوم
يمضي من نعيمك يمضي من بوسي مثله والامر قريب والحاكم الله
تعالى فاخذ بعض الشعراء هذا المعنى فقال

لو ان ما انتم فيه يدوم لكم ظننت ما انا فيه دائما ابدا
لكنني عالم اني وانكم سنستجد خلاف الحالتين غدا

وانشدت لبعض الشعراء

عواقب مكروه الامور خيار وايام شر لا تدوم قصار
وليس بباق بوسها ونعيمها اذا كر ليل ثم كر نهار

وانشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين حضرته الوفاة

الم تر ان ربك ليس تحصى اياديه الحديثة والقديمه
تسل عن الهموم فليس شيء يقيم ولا همومك بالمقيمه
لعل الله ينظر بعد هذا اليك بنظرة منه رحيمه

ومنها ان يعلم ان ما وقي من الرزايا وكفي من الحوادث ما هو اعظم
من رزيته واشد من حادثته ليعلم انه ممنوح بحسن الدفاع ولذلك
قال النبي عليه السلم ان لله تعالى في اثناء كل محنة منحة وقيل
للشعبي في نايبة كيف اصبحت قال بين نعمتين خير منشور وشر
مستور وقال بعض الشعراء

لا تكره المكروه عند حلوله ان العواقب لم تزل متباينه
كم نعمة لا تستقل بشكرها لله في طي المكاره كامنه

ومنها ان يتاسى بذوي الغير ويتسلى باولي العبر ويعلم انهم الاكثرون

عددًا والاسرعون مددًا فيستجد من سلوة الاسى وحسن العزاء ما يخفف شجوه ويقل هلعه قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه الصقوا بذوي العبر تتسع قلوبكم وعلى مثل ذلك كانت مراثي الشعراء حتى قال البحتري

فلا عجب للاسد ان ظفرت بها كلاب الاعادي من فصيح واعجم
فحربة وحشي سقت حمزة الردى وموت علي من حسام ابن ملجم

وقال ابو فراس

المرء رهن مصائب ما تنقضي حتى يواري شخصه في رمسه
فمؤجل يلقى الردى في اهله ومعجل يلقى الردى في نفسه

ومنها ان يعلم ان النعم زائرة وانها لا محالة زائلة وان السرور اذا اقبلت بها مشوب بالحذر من فراقها اذا ادبرت وانها لا تمرج باقبالها فرحا حتى تعقب بفراقها ترحا وعلى قدر السرور يكون الحزن وقد قيل في منثور الحكم المفروح به هو المحزون عليه وقيل من بلغ غاية ما يحب فليتوقع غاية ما يكره وقال بعض الادباء من علم ان كل نائبة الى انقضاء حسن عزاؤه عنه عند نزول البلاء وقيل للحسن البصري كيف ترى الدنيا فقال شغلني توقع بلائها عن الفرج برخائها فاخذه ابو العتاهية فقال

تزيده الايام ان اقبلت شدة خوف لتصاريفها
كانها في حال اسعافها تسمعه وقعة تخويفها

ومنها ان يعلم ان سروره مقرون بمساءة غيره وكذلك حزنه مقرون بسرور غيره اذ كانت الدنيا تنتقل من صاحب الى صاحب وتصل صاحبا بفراق صاحب فيكون سرور المرء وصله وحزنا لمن فارقه ولذلك قال النبي عليه السلام ما قرعت عصا على عصا الا فرح بها قوم وحزن اخرون وقال البحتري

متى ارت الدنيا نباهة خامل فلا ترتقب الا خمول نبيه

واوضحه المتنبي بقوله

بذا قضت الايام ما بين اهلها مصائب قوم عند قوم فوائد

وانشد بعض اهل الادب

الا انما الدنيا غضارة ايكة اذا اخضر منها جانب جف جانب
فلا تجزعن منها لشيء تفيده سيذهب يوما مثل ما انت ذاهب
وما هذه الايام الا فجائع وما العيش واللذات الا مصائب

ومنها ان يعلم ان طوارق الانسان من دلائل فضله ومحنه من شواهد نبله ولذلك الجدي عليتين اما لان الكمال معوز والنقص لازم فاذا توفر الفضل عليه صار النقص فيما سواه وقد قيل من زاد في عقله نقص من رزقه وروي عن النبي صلى الله وسلم انه قال

ما انتقصت جارحة من انسان الا كانت ذكاء في عقله وقال
ابو العتاهية ما جاور المرء من اطرافه طرفا الا تخونه النقصان من طرف
وانشدني بعض الادباء لابرهيم بن هلال الكاتب

إذا جمعت ما بين امرين صنعة فلا تحسبا ان يدري الذي هو احذق
فلا تنتقد منهما غير ما جرت به لهما الارزاق حين يفرق
فحيث يكون النقص فالرزق واسع وحيث يكون الفضل فالرزق ضيق

واما لان ذا الفضل محسود وبالاذى مقصود فهو لا يسلم من ترة معاد واشتطاط مناف. وقد قال الصنوبري

محن الفتى يخبرن عن فضل الفتى كالنار مخبرة بفضل العنبر

وقلما تكون محنة فاضل الا من جهة ناقص وبلوى عالم الا على يد جاهل لاستحكام العداوة بينهما بالمباينة وحدوث الانتقام لاجل التقدم. وقد قال الشاعر

فلا غرو ان يمنى اديب بجاهل فمن ذنب التنين تنكسف الشمس

ومنها ما يعتاضه من الارتياض بنوائب عصره ويستفيده من الحنكة بلاواء دهره فيصلب عوده ويستقيم عموده ويحمل ما دار من شدته ورخائه ويتعظ بحالتي عفوه وبلائه. حكي عن ثعلب قال دخلت على عبيد الله بن سليمان بن وهب وعليه خلع الرضا بعد النكبة فلما مثلت بين يديه قال يا ابا العباس

نوائب الدهر ادبتني وانما يوعظ الاديب
قد ذقت حلوا وذقت مرا كذاك عيش الفتى ضروب
لم يمض بؤس ولا نعيم الا ولي فيهما نصيب
كذاك من صاحب الليالي من كل خطب له خطوب

قلت لمن هذه الابيات قال لي ومنها ان يخبر امور زمانه ويتنبه على صلاح شانه فلا يغتر برخاء ولا يطمع في استواء ولا يامل ان تبقى الدنيا على حالة او تخلو من تقلب واستحالة فان من عرف الدنيا وخبر احوالها هان عليه بؤسها ونعيمها انشد بعض الادباء

اني رايت عواقب الدنيا فتركت ما اهوى لما اخشى
فكرت في الدنيا وعالمها فاذا جميع امورها يفنى
وبلوت اكثر اهلها فاذا كل امرئ في شانه يسعى
أسنى منازلها وأرفعها في العز أقربها من المهوى
نقفو مساويها محاسنها لا شيء بين النعي والبشرى
ولقد مررت على القبور فما ميزت بين العبد والمولى
اتراك تدري كم رايت من الاحياء ثم رايتهم موتى

فاذا ظفر المصاب بأحد هذه الاسباب تخففت عنه احزانه وتسهلت عليه اشجانه فصار وشيك السلوة قليل الجزع

حسن العزاء ❊ قال بعض الحكماء من حاذر لم يهلع ومن راقب
لم يجزع ومن كان متوقعا لم يلف متوجعا ❊ وقال بعض الشعراء
ما يكون الامر سهلا كله انما الدنيا سهول وحزون
هون الامر تعش في راحة قل ما هونت الا سيهون ❊
فان اغفل نفسه عن دواعي السلوة ومنعها من اسباب الصبر تضاعف
عليه من شدة الاسى وهم الجزع ما لا يطيق صبرا عليه ولا يجد
سلوا عنه ❊ وقال ابن الرومي ❊
ان البلاء يطاق غير مضاعف فاذا تضاعف صار غير مطاق
فان ساعد جزعه بالاسباب الباعثة عليه وامده هلعه بالذرايع
الداعية اليه فقد سعى في حتفه واعان على تلفه فمن اسباب
ذلك تذكر المصاب حتى لا يتناساه وتصوره حتى لا يعزب عنه
فلا يجد مع التذكار سلوة ولا يخلط مع التصور تعزية ❊ وقد
قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا تستغزروا الدموع فانها
تبعث الاحزان مع التذكر ❊ وقد قال الشاعر ❊
ولا يبعث الاحزان مثل التذكر ❊ ومنها الاسف وشدة التحسر
فلا يرى عن مصابه خلفا ولا يجد لمفقوده بدلا فيزداد بالاسف
ولها وبالحسرة هلعا ولذلك قال الله تعالى لكيلا تأسوا

على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ❊ وقال بعض الشعراء
اذا ابتليت فثق بالله وارض به ان الذي يكشف البلوى هو الله
اليأس يقطع احيانا بصاحبه لا تيأسن فان الصانع الله
اذا قضى الله فاستسلم لقدرته ما لامرئ حيلة فيما قضى الله
ومنها كثرة الشكوى وبث الجزع فقد قيل في قوله تعالى
فاصبر صبرا جميلا انه الصبر الذي لا شكوى فيه ولا بث
وروى انس بن مالك ان النبي صلى الله عليه وسلم قال
ما صبر من بث ❊ وروى كعب الاحبار انه مكتوب في التورية
من اصابته مصيبة فشكا الى الناس فانما يشكو ربه ❊ وحكي
ان اعرابية دخلت من البادية فسمعت صوارخ في دار فقالت
ما هذا فقيل لها مات لهم ميت فقالت ما اراهم الا من ربهم
يستغيثون وبقضائه يتبرمون وعن ثوابه يرغبون ❊ وقيل
في منثور الحكم من ضاق قلبه اتسع لسانه ❊ وانشدني
بعض اهل العلم ❊ لا تكثر الشكوى الى الصديق
وارجع الى الخالق لا المخلوق لا يخرج الغريق بالغريق ❊
وقال بعض الشعراء ❊
لا تشك دهرك ما صححت به ان الغنى هو صحة الجسم

هبك الخليقة كنت مقتنعا بغضارة الدنيا مع السقم

ومنها اليأس من جبر مصابه ودرك طلابه فيقترن بحسن الحادثة قنوط الاياس فلا يبقى معهما صبر ولا يتسع لهما صدر ولذلك قيل المصيبة بالصبر أعظم المصيبتين وقال ابن الرومي

اصبري ايها النفس فان الصبر احجى ربما خاب رجاء واتى ما ليس يرجى

وانشدني بعض اهل الادب

اتحسب ان البؤس للحر دائم ولو دام شيء عده الناس في العجب

لقد عرفتك الحادثات نفوسها وقد ادبت ان كان ينفعك الادب

ولو طلب الانسان من صرف دهره دوام الذي يخشى لاعياه ما طلب

ومنها ان يغرى بملاحظة من حيطت سلامته وحرست نعمته حتى التحف بالامن والدعة واستمتع بالثروة والسعة ويرى انه قد خص من بينهم بالرزية بعد ان كان مساويا وافرد بالحادثة بعد ان كان مكافيا فلا يستطيع صبرا على بلوى ولا يلتزم شكرا على نعمى ولو قابل بهذه النعمة ملاحظة من شاركه في الرزية وساواه في الحادثة لتكافى الامران فهان عليه الصبر وحان منه الفرج وانشدت لامراة من الاعراب

ايها الانسان صبرا ان بعد العسر يسرا

كم راينا اليوم حرا لم يكن بالامس حرا

ملكت الصبر فاضحى مالكا خيرا وشرا

اشرب الصبر وان كان من الصبر امرا

وانشد بعض اهل الادب

يراع الفتى للخطب تبدو صدوره فيأسى وفي عقباه يأتي سروره

الم تر ان الليل لما تراكمت دجاه بدا وجه الصباح ونوره

فلا تصحبن اليأس ان كنت عالما لبيبا فان الدهر شتى اموره

واعلم انه قل من صبر على حادثة وتماسك في نكبة الا كان انكشافها وشيكا وكان الفرج منها قريبا. اخبرني بعض اهل العلم والادب ان ابا ايوب الكاتب حبس في السجن خمس عشرة سنة حتى ضاقت حيلته وقل صبره وكتب الى بعض اخوانه يشكو طول حبسه وقلة صبره فورد عليه جواب رقعته

صبرا ابا ايوب صبر مبرح فاذا عجزت عن خطوب فمن لها

ان الذي عقد الذي انعقدت له عقد المكاره فيك يملك حلها

صبرا فان الصبر يعقب راحة ولعلها ان تنجلي ولعلها

فاجابه ابو ايوب

ووعظتني وانا لها وستنجلي بل لا اقول لعلها

ويحلها من كان صاحب عقدها كرما به اذ كان

يملك حلها

قال فلم يلبث بعد ذلك في السجن الا اياما ثم اطلق مكرما وانشد ابن دريد عن ابي حاتم

إذا اشتملت على اليأس القلوب ... وضاق بما به الصدر الرحيب
واوطنت المكاره واطمأنت ... وارست في اماكنها الخطوب
ولم تر لانكشاف الضر وجها ... ولا اغنى بحيلته الاريب
اتاك على قنوط منك غوث ... يمن به اللطيف المستجيب
وكل الحادثات وان تناهت ... فموصول بها فرج قريب

الفصل الثالث في المشورة

ان من الحزم لكل ذي لب ان لا يبرم امرا ولا يمضي عزما الا بمشورة ذي الراي الناصح ومطالعة ذي العقل الراجح فان الله تعالى امر بالمشورة نبيه صلى الله عليه وسلم مع ما تكفل من ارشاده ووعده به من تاييده فقال وشاورهم في الامر قال قتادة امره بمشاورتهم ليستن به المسلمون ويتبعه فيها المؤمنون وان كان عن مشورتهم غنيا وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال المشاورة حصن من الندامة وامان من الملامة وروي عن علي رضي الله عنه انه قال نعم الموازرة المشاورة وبئس الاستعداد الاستبداد وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه الرجال ثلاثة رجل ترد عليه الامور فيسددها برايه ورجل يشاور فيما اشكل عليه وينزل حيث يأمره اهل الراي ورجل حائر بائر لا يأتمر رشدا ولا يطيع مرشدا وقال عمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه ان المشورة والمناظرة بابا رحمة ومفتاحا بركة لا يضل معهما راي ولا يفقد معهما حزم وقال سيف بن ذي يزن من اعجب برايه لم يشاور ومن استبد برايه كان من الصواب بعيدا وقال عبد الحميد المشاور في رايه ناظر من ورائه وقيل في منثور الحكم المشورة راحة لك وتعب على غيرك وقال بعض الحكماء الاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استغنى برايه وقال بعض الحكماء ما خاب من استخار ولا ندم من استشار وقال بعض البلغاء من حق العاقل ان يضيف الى رايه اراء العلماء ويجمع الى عقله عقول الحكماء فالراي الفرد ربما زل والعقل الفرد ربما ضل وقال بشار بن برد

إذا بلغ الراي المشورة فاستعن ... براي نصيح او نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... مكان الخوافي قوة للقوادم

فاذا عزم على المشاورة ارتاد لها من اهلها من قد استكملت فيه خمس خصال احداهن عقل كامل مع تجربة سالفة فان بكثرة التجارب تصح الروية وقد روى ابو الزناد عن الاعرج عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال استرشدوا العاقل

ترشدوا ولا تعصوه فتندموا . وقال عبد الله ابن الحسن لابنه
محمد احذر مشورة الجاهل وان كان ناصحا كما تحذر عداوة العاقل
اذا كان عدوا فانه يوشك ان يورطك بمشورته فيسبق اليك
مكر العاقل وتوريط الجاهل . وقيل لرجل من عبس ما اكثر
صوابكم قال نحن الف رجل وفينا حازم ونحن نطيعه فكانا الف
حازم . وكان يقال اياك ومشاورة رجلين شاب معجب بنفسه
قليل التجارب في غيره او كبير اخذ الدهر من عقله كما اخذ من
جسمه . وقيل في منثور الحكم كل شيء محتاج الى العقل والعقل
محتاج الى التجارب ولذلك قيل الايام تهتك لك عن الاسرار
الكامنة . وقال بعض الحكماء التجارب ليست لها غاية والعاقل
منها في زيادة . وقال بعض البلغاء من استعان بذوي العقول
فاز بدرك المأمول وقال ابو الاسود الدؤلي

وما كل ذي نصح بمؤتيك نصحه ... ولا كل مؤت نصحه بلبيب
ولكن اذا ما استجمعا عند صاحب ... فحق له من طاعة بنصيب

والخصلة الثانية ان يكون ذا دين وتقى فان ذلك عماد كل صلاح
وباب كل نجاح ومن غلب عليه الدين فهو مأمون السريرة موفق
العزيمة . روى عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم من اراد امرا فشاور فيه امرا مسلما وفقه الله لارشد
اموره . والخصلة الثالثة ان يكون ناصحا ودودا فان النصح
والمودة يصدقان الفكر ويمحضان الراي . وقد قال بعض الحكماء
لا تشاوروا الا الحازم غير الحسود واللبيب غير الحقود
واياك ومشاورة النساء فان رايهن الى الافن وعزمهن الى الوهن
وقال بعض الادباء مشورة المشفق الحازم ظفر ومشورة غير
الحازم خطر . وقال بعض الشعراء

اصف ضميرا لمن تعاشره ... واسكن الى ناصح تشاوره
وارض من المرء في مودته ... بما يؤدي اليك ظاهره
من يكشف الناس لا يجد احدا ... تصح منهم له سرائره
اوشك ان لا يدوم وصل اخ ... في كل زلاته تنافره

والخصلة الرابعة ان يكون سليم الفكر من هم قاطع وغم شاغل
فان من عارضت فكره شوائب الهموم لم يسلم له راي ولم يستقم له
خاطر . وقد قيل في منثور الحكم بترداد الفكر ينجاب لك الغبر
وكان كسرى اذا دهمه امر بعث الى مرازبته فاستشارهم فان
قصروا في الراي ضرب قهارمته وقال ابطأتم بارزاقهم فاخطؤوا
في آرائهم . وقال صالح بن عبد العزيز

ولا مشير لدى نصح ومعذرة ... في مشكل الامر فاختر ذاك منتصحا

والخصلة الخامسة ان لا يكون له في الامر المستشار غرض يتابعه
ولا هوى يساعده فان الاغراض جاذبة والهوى صاد والراي
اذا عارضه الهوى وجاذبته الاغراض فسد وقد قال
الفضل بن العباس بن عتبة بن ابي لهب

وقد يحكم الايام من كان جاهلا ... ويردي الهوى ذا الراي وهو لبيب
ويحمد في الامر الفتى وهو مخطئ ... ويعذل في الاحسان وهو مصيب

فاذا استكملت هذه الخصال الخمس في رجل كان اهلا للمشورة
ومعدنا للراي فلا تعدل عن استشارته اعتمادا على ما تتوهمه
من فضل رايك وثقة بما تستشعره من صحة رويتك فان راي
غير ذي الحاجة اسلم وهو من الصواب اقرب لخلوص الفكر
وخلو الخاطر مع عدم الهوى وارتفاع الشهوة وقد روي
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال راس العقل بعد الايمان
بالله تعالى التودد الى الناس وما استغنى مستبد برايه وما
هلك عن مشورة واذا اراد الله بعبد هلكه كان اول ما يهلكه
رايه وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه الاستشارة عين
الهداية وقد خاطر من استغنى برايه وقال لقمان لابنه شاور

احد

اضف

من جرب الامور فانه يعطيك من رايه ما قام عليه بالغلاء وانت
تاخذه بالمجان وقال بعض الحكماء ضف الى رايك راي اخيك
بالمشورة ليكمل لك الراي وقال بعض الادباء من استغنى
برايه ضل ومن اكتفى بعقله زل وقال بعض الادباء الخطا مع
الاسترشاد احمد من الصواب مع الاستبداد وقال بعض الشعراء

خليلي ليس الراي في صدر واحد ... اشيرا علي بالذي تريان

ظهر

ولا ينبغي ان يتصور في نفسه انه ان شاور في امر للناس ضعف رايه
وفساد رويته حتى افتقر الى راي غيره فان هذه معاذير النوكى
وليس يراد الراي للمباهاة به وانما يراد للانتفاع بنتائجه والتحرز
من الخطا عند زلله وكيف يكون عارا ما ادى الى صواب وصد
عن خطا وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
لقحوا عقولكم بالمذاكرة واستعينوا على اموركم بالمشاورة وقال
بعض الحكماء من كمال عقلك استظهارك على عقلك وقال بعض
البلغاء اذا اشكلت عليك الامور وتغير عليك الجمهور فارجع
الى راي العقلاء وافزع الى استشارة العلماء ولا تانف من
الاسترشاد ولا تستنكف من الاستمداد فلان تسال وتسلم
خير لك من ان تستبد وتندم وينبغي ان يكثر من استشارة

فقلما

ذوي الالباب لاسيما في الامر الجليل فقل ما يضل عن الجماعة
راي صواب كان ارسال الخواطر الثاقبة واجالة الافكار الصادقة — ويذهب عنهم
لا يعزب عنها ممكن ولا يخفى عليها جاير وقد قيل في منثور الحكم
من اكثر المشورة لم يعدم عند الصواب مادحا وعند الخطا
عاذرا وان كان الخطا من الجماعة بعيدا فاذا استشار الجماعة
فقد اختلف اهل الراي في اجتماعهم عليه او افراد كل واحد منهم
به فمذهب الفرس ان الاولى اجتماعهم على الارتياء واجالة الفكر
ليذكر كل واحد منهم ما قدحه خاطره ونتجه فكره حتى ان كان زيفه
قدح عورض وان توجه عليه رد نوقض كالجدل الذي فيه تكون
المناظرة وتقع فيه المنازعة والمشاجرة فانه لا يبقى فيه مع
اجتماع القرايح عليه خلل الا ظهر ولا زلل الا بان وذهب
غيرهم من اصناف الامم الى ان الاولى استسرار كل واحد بالمشورة
ليجيل كل واحد منهم فكره في الراي طمعا في الحظوة بالصواب
فان القرايح اذا انفردت استكدها الفكر واستفرغها الاجتهاد
واذا اجتمعت فوضت وكان الاول من بدا بهما متبوعا ولكل واحد
من المذهبين وجه ووجه الثاني اظهر والذي اراه في الاولى — والوجه الثاني
غير هذين المذهبين على الاطلاق ولكن ينظر في الشورى فان

كان في خيال واحد هل هي صواب ام خطا كان اجتماعهم عليها
اولى لانها تردد بين امرين فالمراد منه الاعتراض على فساده
او ظهور الحجة في صلاحه وهذا مع الاجتماع ابلغ وعند المناظرة
اوضح وان كانت الشورى في خطب قد اشتبه صوابه واستعجم
جوابه من امور خافية واحوال غامضة لم يحصرها عدد ولم يجمعها
تقسيم ولا عرف لها جواب فيكشف عن خطايه وصوابه فالاولى في
مثله انفراد كل واحد بفكره وخلوه بخاطره ليجتهد في الجواب ثم يقع
الكشف عنه اخطا هو ام صواب فيكون الاجتهاد في الجواب منفردا
والكشف عن الصواب مجتمعا لان الانفراد في الاجتهاد اوضح
والاجتماع على المناظرة ابلغ فهذا هذا وينبغي ان يسلم اهل
الشورى من حسد او تنافس فيمنعهم من تسليم الصواب لصاحبه
ثم يعرض ذلك المستشير على نفسه مع مشاركتهم في الارتياء والاجتهاد
فاذا تصفح اقاويل جميعهم كشف عن اصولها واسبابها وبحث عن
نتايجها وعواقبها حتى لا يكون في الامر مقلدا ولا في الراي مفوضا
فانه يستفيد بذلك مع ارتياضه بالاجتهاد ثلث خصال احدهن
معرفته عقله وصحة رويته والثانية معرفة عقل صاحبه وصواب
رايه والثالثة وضوح ما استعجم من الراي وانفتاح ما انغلق من الصواب

فاذا تقرر له الراي امضاه ولم ياخذهم بعواقب الاكداء فيه فانما
على الناصح الاجتهاد وليس عليه ضمان النجح لا سيما والمقادير
غالبة ومتى عرف منه تعقب المشير وكل الى رايه واسلم الى نفسه
فصار فردا لا يعان براي ولا يمد بمشورة وقد قالت الفرس
في حكمها اضعف الحيلة خير من اقوى الشدة واقل التاني
خير من اكثر العجلة والدولة رسول القضاء المبرم واذا استبد
الملك برايه عميت عليه المراشد واذا ظفر براي من جاهل لا يراه
للراي اهلا ولا للمشورة مستوجبا اغتنمه عفوا فان الراي كالضالة
توخذ اين وجدت ولا تهون لهوان صاحبه فيطرح فان الدرة
لا تضيعها مهانة غائصها والضالة لا تترك لذلة واجدها وليس
يراد الراي لمكان المشير به فيراعى قدره وانما يراد لانتفاع المستشير
به وانشد ابو العيناء عن الاصمعي

النصح ارخص ما باع الرجال فلا ترد على ناصح نصحا ولا تلم
ان النصائح لا تخفى مناهجها على الرجال ذوي الالباب والفهم

ثم لا وجه لمن تقرر له راي ان يتنى في امضائه فان الزمان غادر
والفرص منتهزة والثقة عجز فقيل لملك زال عنه ملكه
ما الذي سلبك ملكك قال تاخير عمل اليوم الى غد قال الشاعر

اذا كنت ذا راي فكن ذا عزيمة ولا تك بالترداد للراي مفسدا
فاني رايت الريث في العزم هجنة وانفاذ ذي الراي العزيمة ارشدا

وينبغي لمن انزل منزلة المستشار واحل محل الناصح الواد حتى
صار مامول النصح مرجو الصواب ان يودي حق هذه النعمة باخلاص
السريرة ويكافي على الاستسلام ببذل النصح فقد روي عن النبي
عليه السلم انه قال ان من حق المسلم على المسلم اذا استنصحه ان
ينصحه وربما ابطرته المشاورة واعجب برايه فاحذره في المشورة
فليس للمعجب راي صحيح ولا روية سليمة وربما شح بالراي لعداوة
او مكر فاحذر العدو ولا تثق بحسود ولا عذر لمن استشاره عدو
او ضد ان يكتم رايا وقد استرشد ولا ان يخون وقد اوتمن
وقد روى محمد بن المنكدر عن عائشة عن النبي عليه السلم
انه قال المستشير معان والمستشار موتمن وقال
سليمان بن يزيد

واجب اخاك اذا استشارك ناصحا وعلى اخيك بنصحه لا تردد

ولا ينبغي ان يشير قبل ان يستشار الا فيما
مس ولا ان يتبرع بالراي الا فيما لزم فانه لا ينفك ان يكون
رايه متهما او مطرحا وفي اي هذين كان نقصه وانما يكون
الراي مقبولا اذا كان عن رغبة وطلب او كان لباعث وسبب

روى ابو بلال العجلي عن حذيفة بن اليمان عن النبي عليه السلم
قال قال لقمان لابنه اذا استشهدت فاشهد واذا استعنت
فاعن واذا استشرت فلا تعجل حتى تنظر وقال ابن نهيش الكلابي
من الناس من ان يستشيرك فاجتهد له الرأي يستغشيك ما لا
فلا تمنحن بالرأي من ليس اهله فلا انت محمود ولا الرأي نافعه

الفصل الرابع في كتمان السر

اعلم ان كتمان الاسرار من
اقوى اسباب النجاح وادوم لاحوال الصلاح. روي عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال استعينوا على الحاجات بالكتمان
فان كل ذي نعمة محسود. وقال علي بن ابي طالب كرم
الله وجهه سرك اسيرك فاذا تكلمت به صرت اسيره. وقال
بعض الحكماء لابنه كن جوادا بالمال في موضع الحق ضنينا
بالاسرار عن جميع الخلق فان احمد جود المرء الانفاق في
وجه البر والبخل بمكتوم السر. وقال بعض الادباء من
كتم سره كان الخيار اليه ومن افشاه كان الخيار عليه وقال
بعض الادباء ما اسرك ما كتمت سرك. وقال بعض الفصحاء
ما لم تغيبه الاضالع فهو مكشوف ضائع وقال بعض
الشعراء وهو انس بن اسيد

الم تر ان وشاة الرجال لا يتركون اديما صحيحا
فلا تفش سرك الا اليك فان لكل نصيح نصيحا

وكم من اظهار سر اراق دم صاحبه ومنع من نيل مطالبه
ولو كتمه كان من سطواته آمنا ومن عواقبه سالما ولنجاح حوائجه
راجيا. وقال انوشروان من حصن سره فله بتحصينه خصلتان
الظفر بحاجته والسلامة من السطوات واظهار الرجل
سر غيره اقبح من اظهاره سر نفسه لانه يبوء باحدى وصمتين
اما الخيانة ان كان مؤتمنا او النميمة ان كان مستودعا فاما
الضرر فربما استويا فيه او تفاضلا فكلاهما مذموم وهو فيهما
ملوم وفي الاسترسال بابداء السر دلائل على ثلثة احوال مذمومة
احدها ضيق الصدر وقلة الصبر حتى لم يتسع لسر ولم يقدر
على صبر وقد قال الشاعر

اذا المرء افشى سره بلسانه ولام عليه غيره فهو احمق
اذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه فصدر الذي يستودع السر اضيق

والثاني الغفلة عن تحرز العقلاء والسهو عن يقظة الاذكياء
وقد قال بعض الحكماء انفرد بسرك ولا تودعه حازما فيزل
ولا جاهلا فيخون. والثالث ما ارتكبه من الغرر واستعمله

من الخطر. وقد قال بعض الحكماء: سرك من دمك فإذا تكلمت
به فقد أرقته. واعلم أن من الأسرار ما لا يستغنى فيه عن
مطالعة صديق مساهم واستشارة ناصح مسالم فليختر
العاقل لسره أمينًا إن لم يجد إلى كتمه سبيلًا وليتحرّ في
اختياره من يأتمنه عليه ويستودعه إياه فليس كل من كان
على الأموال أمينًا كان على الأسرار مؤتمنًا والعفة عن الأموال
أيسر من العفة عن إذاعة السر لأن الإنسان قد يذيع سر
نفسه بمبادرة لسانه وسقط كلامه ويشح على اليسير من ماله
حفاظًا له وصيانة ولا يرى ما أذاع من سره كبيرًا في جنب ما
حفظه من يسير ماله مع عظم الضرر الداخل عليه فمن أجل
ذلك كان أمناء الأسرار أشد تعذرًا وأقل وجودًا من أمناء
الأموال وكان حفظ الأموال أيسر من كتم الأسرار لأن أحراز
الأموال منيعة وأحراز الأسرار بارزة يذيعها لسان ناطق
ويشيعها كلام سابق. وقد قال عمر بن عبد العزيز القلوب
أوعية الأسرار والشفاه أقفالها والألسن مفاتيحها فليحفظ
كل امرئ مفتاح سره. ومن صفات أمين الأسرار أن يكون
ذا عقل صادق ودين حاجز ونصح مبذول وود موفور وكتومًا

بالطبع فإن هذه أمور تمنع من الإذاعة وتوجب حفظ الأمانة
فمن كملت فيه فهو عنقاء مغرب. وقد قيل في منثور الحكم
قلوب العقلاء حصون الأسرار. وليحذر صاحب السر أن
يودع سره من يتطلع إليه ويؤثر الوقوف عليه فإن طالب
الوديعة خائن. وقد قيل في منثور الحكم لا تنكح خاطب
سرك. وقال صالح بن عبد القدوس

لا تذع سرًا إلى طالبه ... منك فالطالب للسر مذيع

وتحذر كثرة المستودعين لسره فإن كثرتهم سبب الإذاعة
وطريق إلى الإشاعة لأمرين أحدهما أن اجتماع هذه الشروط
في العدد الكثير معوز ولا بد إذا كثروا من أن يكون فيهم
من أخل ببعضها والثاني أن كل واحد منهم يجد سبيلًا إلى
نفي الإذاعة عن نفسه وإحالة ذلك على غيره فلا يضاف إليه
ذنب ولا يتوجه عليه عتب. وقال بعض الحكماء كلما كثر
خزان الأسرار ازدادت ضياعًا. وقال بعض الشعراء

وسرك ما كان عند امرئ ... وسر الثلاثة غير الخفي

وقال آخر

فلا تنطق بسرك كل سر ... إذا ما جاوز الاثنين فاش

ثم لو سلم من اذاعتهم لما سلم من اذلالهم واستطالتهم فان لمن
ظفر بسر من فرط الادلال وكثرة الاستطالة ما ان لم يحجزه
عنه عقل ولم يكفه عنه فضل كان اشد من ذل الرق وخضوع
التعبد ولذلك قال بعض الحكماء من افشى سره كثر
عليه المتآمرون فاذا اختار ورجا ان يوفق للاختيار
واضطر الى استفراغ سره وليته كفي الاضطرار وجب على
المستودع له اداء الامانة فيه بالتحفظ والتناسي حتى لا
يخطر له ببال ولا يدور له في خلد ثم يرى ذلك حرمة يرعاها
ولا يدل ادلال اللئام • حكي ان رجلا اسر الى صديق
له حديثا ثم قال له افهمت قال بل جهلت قال احفظت قال
بل نسيت • وقيل لرجل كيف كتمانك للسر قال اجحد المخبر
واحلف للمستخبر • وقد قال بعض الشعراء •

ولو قدرت على نسيان ما اشتملت مني الضلوع على الاسرار والخبر •
لكنت اول من ينسى سرائره اذ كنت من نشرها يوما على خطر •

وحكي ان عبيد الله بن طاهر تذاكر الناس في مجلسه
حفظ السر فقال عبيد الله •

ومستودعي سرا تضمنت سره فاودعته في مستقر الحشا قبرا •

وقال ابنه عبد الله •

وما السر في قلبي كميت بحفرة لاني ارى المدفون ينتظر النشرا •
ولكنني اخفيه حتى كانه من الدهر يوما ما احطت به خبرا •

الفصل الخامس في المزاح والضحك

• اعلم ان للمزاح
ازاحة عن الحقوق ومخرجا الى العقوق يصم المازح ويؤذي
الممازح فوصمة المازح انه تذهب عنه الهيبة والبهاء وتجري
عليه الغوغاء والسفهاء واما اذية الممازح فلانه معذوق بقول
كريه وفعل ممض ان امسك عنه احزن قلبه وان قابل عليه
جانب ادبه فحق على العاقل ان يتقيه وينزه نفسه عن وصمة
مساويه فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
المزاح استدراج من الشيطان واختداع من الهوى • وقال
عمر بن عبد العزيز اتقوا المزاح فانها حمقة تورث ضغينة •
وقال انما المزاح سباب الا ان صاحبه يضحك • وقال انما
سمي المزاح مزاحا لانه يزيح عن الحق • وقال ابرهيم النخعي
المزاح من سخف او بطر • وقيل في منثور الحكم المزاح ياكل
الهيبة كما تاكل النار الحطب • وقال بعض الادباء من
كثر مزاحه زالت هيبته ومن كثر خلافه طابت غيبته •

وقال بعض البلغاء من قلّ عقله كثر هزله. وذكر خالد
ابن صفوان المزاح فقال يضحك احدهم صاحبه باشدّ من
الجندل وينشقه احرق من الخردل ويفرغ عليه احرّ من
المرجل ثم يقول انما امازحك. وقال بعض الحكماء خير المزاح
لا ينال وشرّه لا يقال فنظمه النيسابوري في قصيدته الجامعة
للاداب وزاد فقال

شرّ مزاح المرء لا يقال ... وخيره يا صاح لا ينال

وقد يقال قلّة المزاح من الفتى يدعو الى الفلاح

يحقد منه الرجل الشريف ... ويجترى بسخفه السخيف

وقال ابو نواس

خلّ جنبيك لرام ... وامض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير ... لك من داء الكلام
انما السالم من الجم ... فاه بلجام
ربما استفتح بالمزح ... مغاليق الحمام
والمنايا آكلات ... شاربات للانام

واعلم انه قلّ ما يعرى من المزاح من كان سهلا فالعاقل يتوخى
بمزحه احدى حالتين لا ثالثة لهما احداهما ايناس المصاحبين

والتودد الى المخالطين وهذا يكون بما انس من جميل القول
وبسط لكل من مستحسن الفعل كما قال سعيد بن العاص لابنه
اقتصد في مزاحك فان الافراط فيه يذهب البهاء ويجرى
السفهاء وان التقصير فيه نقص عنك المؤانسين ويوحش
منك المصاحبين. والحال الثانية ان ينفي بالمزاح ما طرى
عليه من سأم او حدث من هم فقد قيل لا بد للمصدور ان
ينفث وانشدت لابي الفتح البستي

افد طبعك المكدود بالجد راحة ... يجم وعلّله بشيء من المزح
ولكن اذا اعطيته المزح فليكن ... بمقدار ما تعطى الطعام من الملح

وقد كان النبي عليه السلام يمزح على هذا الوجه وقال
صلى الله عليه وسلم اني لامزح ولا اقول الا حقا. فمن مزاحه
ما روى ان عجوزا من الانصار اتته فقالت يا رسول الله ادع
لي بالمغفرة فقال لها اما علمت ان الجنة لا تدخلها العجائز
فصرخت فتبسم رسول الله وقال اما قرأت من القرآن قوله
تعالى انا انشأناهن انشاء فجعلناهن ابكارا عربا اترابا
واتته اخرى في حاجة لزوجها فقال لها ومن زوجك فقالت فلان
فقال الذي في عينيه بياض فقالت لا فقال بلى فانصرفت

عجلى الى زوجها وجعلت تتأمل عينيه فقال لها ما شأنك
فقالت اخبرني رسول الله ان في عينيك بياضا فقال لها
اما ترين بياض عيني اكثر من سوادهما ۔ واتى رجل علي بن
ابي طالب رضي الله عنه فقال اني احتلمت على امي فقال اقيموه
في الشمس واضربوا ظله الحد ۔ وسئل الشعبي عن اكل
لحم الشيطان فقال نحن نرضى منه بالكفاف ۔ وقيل ما اسم امرأة
ابليس فقال ذاك نكاح ما شهدناه ۔ وقال رجل لغلام بكم
تعمل معي قال بطعامي قال احسن قليلا قال فاصوم الاثنين
والخميس ۔ وحكي عن ابي صالح بن حسان وكان محدثا انه
قال يوما لاصحابه مازحا افقه الناس وضاح اليمن في قوله

اذا قلت هبني نولتني تبرمت وقالت معاذ الله من فعل ما حرم
فما بذلت حتى تضرعت عندها وانبأتها ما رخص الله في اللمم

فاما الخروج الى حد البلاغة فهجنة ومذمة كالذي حكي
عن ابي معوية الضرير وكان محدثا انه خرج يوما الى اصحابه
وهو يقول

فاذا المعدة جاشت فارمها بالمنجنيق
بثلاث من نبيذ ليس بالحلو الرقيق

اما ترى كيف خرج بخلاعته وطرق التهمة على نفسه بهذا المزح

له

ثم العلة بريء منه وبعيد عنه ۔ وقد كان ابو هريرة مترسلا
في مزاحه فحكى ابن قتيبة في المعارف ان مروان ربما
كان يستخلفه على المدينة فيركب حمارا قد شد عليه برذعة
فيسير فيلقى الرجل فيقول الطريق قد جاء الامير وربما
اتى الصبيان وهم يلعبون لعبة الغراب فلا يشعرون حتى يلقي
نفسه بينهم ويضرب برجليه فيفزع الصبيان ويفرون
وهذا خروج عن القدر المستسمح به ويوشك ان يكون لهذا الفعل
منه تأويل سائغ ۔ وقد كان صهيب بن سنان مزاحا فقال له
النبي عليه السلم اتأكل تمرا وبك رمد فقال يا رسول الله انا امضغ
على الناحية الاخرى وانما استجاز صهيب ان يعرض لرسول الله
بالمزح في جوابه لان استخباره قد كان يتضمن المزح فلجأ به عن
استخباره بما يوافقه من المزح مساعدة لغرضه وتقربا من قلبه
والا فليس لاحد ان يجعل جواب رسول الله مزحا لان المزح هزل
ومن جعل جواب رسول الله المبين عن الله احكامه والمودي الى خلقه
اوامره هزلا او مزحا فقد عصى الله ورسوله وصهيب كان اطوع
لله ولرسوله من ان يكون بهذه المنزلة ۔ وقد قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم انا سابق العرب وصهيب سابق الروم وسلمان سابق

صح
من قبله

فارس وبلال سابق الحبش ومن مستملح المزح ومستسمح
الدعابة ما حكى الزبير بن بكار عن الكسروي ان القشيري
وقف عليه شيخ من الاعراب فقال يا اعرابي ممن انت قال
من بني عقيل قال من اي عقيل قال من بني خفاجه فقال
القشيري رايت شيخا من بني خفاجه فقال الاعرابي ما شانه قال
له اذا جن الظلام حاجه فقال الاعرابي ما هيه قال
كحاجة الديك الى الدجاجه
فاستعبر الاعرابي ضاحكا وقال قاتلك الله ما اعرفك
بسرائر القوم فانظر كيف بلغ بهذا المزح غايته ولسانه
نزه وعرضه مصون وهذا غاية ما يسامح به الفضلاء من
الخلاعة وان كان مستنكرا في التحري والنزاهة من مثله اولى
وليحذر ان يسترسل في ممازحة عدو فيجعل له طريقا الى اعلان
المساوي هزلا وهو مجد ويفسح له في التشفي مزحا وهو محق
وقد قال بعض الحكماء اذا مازحت عدوك ظهرت عيوبك
فاما الضحك فان اعتياده شاغل عن النظر في الامور المهمة
مذهل عن الفكر في النوائب الملمة وليس لمن اكثر منه هيبة
ووقار ولا لمن وسم به خطر ومقدار روى ابو ادريس الخولاني

عن ابي ذر الغفاري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
اياك وكثرة الضحك فانه يميت القلب ويذهب بنور الوجه
وقد حكي عن ابن عباس في قوله تعالى ما لهذا الكتاب
لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ان الصغيرة
الضحك وقال عمر رضي الله عنه من كثر ضحكه قلت هيبته
وقال علي بن ابي طالب رضوان الله عليه اذا ضحك العالم ضحكة
مج من العلم مجة وقيل في منثور الحكم ضحك المؤمن
غفلة من قلبه والقول في الضحك كالقول في المزاح ان تجافاه
الانسان نفر عنه واوحش منه وان الفه كان بحاله ما وصفنا
فليكن عند الايناس بدل الضحك تبسما وبشرا وقد قال عمر
ابن الخطاب رضي الله عنه التبسم دعابة وهذا ابلغ في الايناس
من الضحك الذي قد يكون استهزاء وتعجبا وليس يكره منه المرة
النادرة لطارئ استغفل النفس عن دفعه هذا رسول الله صلى الله
عليه وهو املك الخلق لنفسه قد تبسم حتى بدت نواجذه وانما
كان ذلك منه على الوجه الذي ذكرنا

الفصل السادس

في الطيرة والفال انه ليس شيء اضر بالراي ولا افسد
للتدبير من اعتقاد الطيرة ومن ظن ان خوار بقرة او نعيب

الفصل السـ

غراب يرد قضاء او يدفع مقدورا فقد جهل ❁ وقد روي عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا عدوى ولا طيرة ولا هامة
ولا صفر فالعدوى ما يظنه الانسان من تعدي العلل
والامراض فاخبر انه لا تعدي فقيل يا رسول الله انا نرى
النقطة في مشفر البعير فتعدى الى جميعه فقال رسول الله
فمن اعدى الاول واما الهامة فهو ما كانت الجاهلية تعتقده
من ان القتيل اذا طل دمه فلم يدرك ثاره صاحت هامته
في القبر اسقوني قال الزبرقان بن بدر ❁
يا عمرو ان لا تدع شتمي ومنقصتي اضربك حيث تقول الهامة اسقوني
وقال ابرهيم بن هرمة ❁
وكتيبة قد صاروا اعظاما واقبرا يصيح صداها بالعشي وهامها
تفانوا ولم يبقوا وكل قبيلة سريع الى ورد الفناء دراهما
واما الصفر فهو كالحية تكون في الجوف تصيب الماشية والناس
وهو اعدى عندهم من الجرب وفيه يقول الشاعر ❁
لا يمسك الساق من اين ولا وصب ولا تعض على شرسوفه الصفر
وروى ابو هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
اذا ظننتم فلا تحققوا واذا حسدتم فلا تبغوا واذا تطيرتم فامضوا

من الجرب
في
في الجوف
بن بدر
اسقوني

وعلى الله فتوكلوا وقال الشاعر ❁
طيرة الناس لا ترد قضاء فاعذر الدهر لا تشبه بلوم ❁
اي يوم تخصه بسعود والمنايا ينزلن في كل يوم
ليس يوم الا وفيه سعود ونحوس تجري لقوم وقوم ❁
قد كانت الفرس اكثر الناس طيرة وكانت العرب اذا ارادت
سفرا نفرت اول طائر تلقاه فان طار يمنة سارت وتيمنت
وان طار شامة رجعت وتشاءمت فنهى النبي عليه السلم عن ذلك
وقال اقروا الطيور على وكناتها ❁ وحكى عكرمة قال كنا
جلوسا عند ابن عباس فمر طائر يصيح فقال رجل من القوم
خير خير فقال ابن عباس لا خير ولا شر ❁ وقال لبيد ❁
لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع ❁
واعلم انه قل ما يخلو من الطيرة احد لا سيما من عارضته المقادير
في ارادته وصده القضاء عن طلبته وهو يرجو والناس عليه
اغلب ويامل والخوف اليه اقرب فاذا عاقه القضاء وخانه
الرجاء جعل الطيرة عذر خيبته وغفل عن قضاء الله ومشيئته
فهو اذا تطير من هذا احجم عن الاقدام ويئس من الظفر وظن
ان القياس فيه مطرد وان العبرة فيه مستمرة ثم يصير ذلك

الطوارق

عادة فلا ينجح له سعي ولا يتم له قصد. فاما من ساعدته المقادير
ووافقه القضاء فهو قليل الطيرة لاقدامه ثقة باقباله وتعويلا
على سعادته فلا يصده خوف ولا يكفه خور ولا يؤوب الا ظافرا
ولا يعود الا منجحا لان الغنم بالاقدام والخيبة مع الاحجام
فصارت الطيرة من سمات الادبار واطراحها من امارات الاقبال
فينبغي لمن مني بها وبلي ان يصرف عن نفسه وساوس النوكى ودواعي
الخيبة وذرائع الحرمان ولا يجعل للشيطان سلطانا في نقض
عزائمه ومعارضة خالقه ويعلم ان قضاء الله غالب وان رزق
العبد طالب وان الحركة سبب فلا يثنيه عنها ما لا يضر
مخلوقا ولا يدفع مقدورا وليمض في عزائمه واثقا بالله تعالى
ان اعطى وراضيا به ان منع. فقد روى ابو هريرة قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم في الانسان ثلثة الطيرة والظن
والحسد فمخرجه من الطيرة ان لا يرجع ومخرجه من الظن
ان لا يحقق ومخرجه من الحسد ان لا يبغي. وروي عنه صلى
الله عليه وسلم انه قال كفارة الطيرة التوكل على الله تعالى
وقيل في منثور الحكم الخيرة في ترك الطيرة. وليقل ان عارضه
في الطيرة ريب او خامره فيها وهم ما روي عن النبي عليه السلم

انه قال من تطير فليقل اللهم لا ياتي بالخيرات الا انت ولا
يدفع السيآت الا انت ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم
وقد روي ان رجلا جاء الى النبي عليه السلم فقال يا رسول
الله انا نزلنا دارا فكثر فيها عددنا وكثرت فيها اموالنا ثم تحولنا
عنها الى اخرى فقلت فيها اموالنا وقل فيها عددنا فقال النبي
عليه السلم ذروها وهي ذميمة وليس هذا منه على وجه الطيرة
ولكن على طريق التبرك بها فارق وترك ما استوحش منه الى ما
انس به. فاما الفال ففيه تقوية العزم وباعث على الجد
ومعونة على الظفر فقد تفال رسول الله صلى الله عليه وسلم
في غزواته وحروبه. وروى ابو هريرة ان رسول الله سمع كلمة
فاعجبته فقال اخذنا فالك من فيك فينبغي لمن تفال ان يتاول
الفال باحسن تاويلاته ولا يجعل لسوء الظن سبيلا على نفسه
قال النبي عليه السلم ان البلاء موكل بالمنطق. وحكي
ان يوسف عليه السلم شكا الى الله سبحانه طول الحبس
فاوحى الله تعالى اليه يا يوسف انت حبست نفسك حيث
قلت رب السجن احب الي ولو قلت العافية احب الي لعوفيت
وحكي ان المومل بن اميل الشاعر لما قال

شق المؤمل يوم الحيرة النظر ... ليت المؤمل لم يخلق له بصر

عمي فأتاه آت في منامه فقال هذا ما طلبت. وحكي أن الوليد
ابن يزيد بن عبد الملك تفاءل يوماً في المصحف فخرج قوله تعالى
واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد فمزق المصحف وأنشأ يقول

أتوعد كل جبار عنيد ... فها أنا ذاك جبار عنيد

إذا ما جئت ربك يوم حشر ... فقل يا رب مزقني الوليد

فلم يلبث ثلاثة أيام حتى قتل شر قتلة وصلب رأسه على قصره
ثم على سور بلده، نعوذ بالله من البغي ومصارعه والشيطان
ومصايده وهو حسبنا وعليه توكلنا

الفصل السابع

في المروءة: إن من شواهد الفضل ودلائل الكرم المروءة
التي هي حلية النفوس وزينة الهمم والمروءة هي مراعاة
الأحوال أن تكون على أفضلها حتى لا يظهر منها قبيح عن قصد
ولا يتوجه إليه ذم باستحقاق. روي عن رسول الله عليه
السلام أنه قال من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم
ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته
ووجبت أخوته. وقال بعض البلغاء: إن من شرائط المروءة
أن يتعفف عن الحرام ويتصلف عن الآثام وينصف في الحكم
ويكف عن الظلم ولا يطمع فيما لا يستحق ولا يستطيل على من
لا يسترق ولا يعين قوياً على ضعيف ولا يؤثر دنيا على شريف
ولا يسر بما يعقب الوزر والإثم ولا يفعل ما يقبح الذكر والاسم
وسئل بعض الحكماء عن الفرق بين العقل والمروءة فقال
العقل يأمرك بالأنفع والمروءة تأمرك بالأجمل ولن تجد الأخلاق
على ما وصفنا من حد المروءة منطبعة ولا عن المراعاة مستغنية
وأما المراعاة فهي المروءة لا ما انطبعت عليه النفوس من
فضائل الأخلاق لأن غرور الهوى ونازع الشهوة يصرفان
النفس أن تركب فوضى عن الأفضل من خلائقها والأجمل من
طرائقها ولو سلمت منها ويبعد أن تسلم لما استكملت شرف
الأخلاق طبعاً ولا استغنت عن تهذيبها تكلفاً وتصنعاً. قال الشاعر

من لك بالمحض وليس محض ... يخبث بعض ويطيب بعض

ثم لو استكمل الفضل طبعاً وفي المعوز أن يكون مستكملاً لكان
في المستحسن من عادات دهره والموضوع من اصطلاح عصره
من حقوق المروءة وشروطها ما لا يوصل إليه إلا بالمعاناة
ولا يوقف عليه إلا بالتفقد والمراعاة فثبت أن مراعاة النفس
على أفضل أحوالها هي المروءة وإذا كانت كذلك فليس ينقاد لها

مع ثقل كلفها الا من تسهلت عليه المشاق رغبة في الحمد وهانت عليه الملاذ حذرا من الذم ولذلك قال سيد القوم اشقاهم

اشقاهم

وقال ابو تمام الطائي

والحمد شهد لا يرى مشتاره … يجنيه الا من نقيع الحنظل
غل لحامله ويحسبه الذي … لم يوه عاتقه خفيف المحمل

وقد لحظ المتنبي ذلك في قوله

لولا المشقة ساد الناس كلهم … الجود يفقر والاقدام قتال

وقوله

واذا كانت النفوس كبارا … تعبت في مرادها الاجسام

والداعي الى استسهال ذلك شيئان احدهما علو الهمة وشرف النفس اما علو الهمة فلانه باعث على التقدم وداع الى التخصص انفة من خمول الضعة واستنكافا من مهانة النقص ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يحب معالي الامور واشرافها ويكره سفسافها وروي عن عمر بن الخطاب رضوان الله عليه انه قال لا تصغرن هممكم فاني لم ار اقعد عن المكرمات من صغر الهمم وقال بعض الحكماء الهمة راية الجد وقال بعض البلغاء علو الهمم بذر النعم وقال بعض العلماء اذا طلب رجلان امرا ظفر به اعظمهما مروة وقال بعض الادباء

من ترك التماس المعالي بسوء الرجاء لم ينل جسيما واما شرف النفس فان به يكون قبول التأديب واستقرار التقويم والتهذيب لان النفس ربما جمحت عن الافضل وهي به عارفة ونفرت عن التأديب وهي له مستحسنة لانها عليه غير مطبوعة وله غير ملائمة فتصير منه انفر ولضده الملائم آثر ولذلك قيل ما اكثر من يعرف الحق ولا يطيعه واذا شرفت النفس كانت للآداب طالبة وفي الفضائل راغبة فاذا مازجها صارت طبعا ملائما فنما واستقر فاما من مني بعلو الهمة وسلب شرف النفس فقد صار عرضة لامر اعوزته آلته وافسدته جهالته فصار كضرير يروم الكتابة واخرس يروم الخطابة فلا يزيده الاجتهاد الا عجزا والطلب الا عوزا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ما هلك امرؤ عرف قدره وقيل لبعض الحكماء من اسوأ الناس حالا قال من بعدت همته واتسعت امنيته وقصرت آلته وقلت مقدرته وقال ابو التعلبي

وللخير فيما يكذب المرء نفسه … وتقواله للشيء يا ليت ذا ليا
لعمرك ما يدري امرؤ كيف يتقي … اذا هو لم يجعل له الله واقيا

وقال بعض الحكماء تجنبوا المنى فانها تذهب بهجة ما خولتم وتستصغرون نعمة الله عندكم وقيل في منثور الحكم المنى من

بضائع النوكى فإن صادف بهمته حظاً نال به أملاً كان فيما نال به
كالمغتصب وفيما وصل إليه كالمتغلب إذ ليس في الحظوظ تقدير
بحق ولا تمييز لمستحق وإنما هي كالسحاب الذي قد يمسك عن منابت
الأشجار إلى مغايض البحار حيث صادف من خبيث وطيب فإن
صادف أرضاً طيبة نفع وإن صادف أرضاً خبيثة ضر كذلك
الحظ إن صادف نفساً شريفة نفع وكانت نعمة عامة وإن صادف
نفساً دنية ضر وكانت نقمة طامة. حكي أن موسى بن عمران
عليه السلم دعا على قوم بالعذاب فأوحى الله تعالى إليه قد ملكت
سفلتهما على عليتهما فقال يا رب كنت أحب لهم عذاباً عاجلاً فأوحى الله
تعالى أو ليس هذا كل العذاب العاجل الأليم. فأما شرف
النفس إذا تجرد عن علو الهمة فإن الفضل به عاطل والقدر به
خامل وهو كالقوة في الجلد الكسل أو الجبان الفشل تضيع
قوته بكسله وجلده بفشله. وقد قيل في منثور الحكم من دام
كسله خاب أمله. وقال بعض الحكماء نكح العجز التواني فخرجت
بينهما الندامة ونكح الشوم الكسل فخرج بينهما الحرمان. قال
إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هواناً بها كانت على الناس أهونا
فنفسك أكرمها وإن ضاق مسكن عليك لها فاطلب لنفسك مسكنا

(في الهامش: وينزل — إليه — بعض الشعراء)

وإياك والسكنى بدار مذلة تعد مسيئاً فيه من كان محسنا
وشرف النفس مع صغر الهمة أولى من علو الهمة مع دناءة النفس
لأن من علت همته مع دناءة نفسه كان متعدياً إلى طلب ما لا
يستحقه ومتخطياً إلى التماس ما لا يستوجبه ومن شرفت نفسه
مع صغر همته فهو تارك لما يستحقه ومقصر عما يجب له وفضل
ما بين الأمرين ظاهر وإن كان لكل واحد منهما من الذم نصيب
وقد قيل لبعض الحكماء ما أصعب شيء على الإنسان فقال أن
يعرف نفسه ويكتم الأسرار فإذا اجتمع الأمران واقترن بشرف
النفس علو الهمة كان الفضل بينهما ظاهراً والأدب بهما وافراً
ومشاق الحمد بينهما مستسهلة وشروط المروءة منهما متباينة
وقد قال الحسين بن منذر الرقاشي
إن المروءة ليس يدركها امرؤ ورث المكارم عن أب فأضاعها
أمرته نفس بالدناءة والخنا ونهته عن سبل العلى فأطاعها
فإذا أصاب من المكارم خلة يبني الكرام بها المكارم باعها
واعلم أن حقوق المروءة أكثر من أن تحصى وأخفى من أن تظهر لأن منها
ما يقوم في الوهم حساً ومنها ما يقتضيه شاهد الحال حدساً
ومنها ما يظهر بالفعل ويخفى بالتغافل فلذلك أعوز استيفاء

شروطها الا جملا يتنبه الفاضل عليها بفطنته ويستدل العاقل
عليها بفطرته وان كان جميع ما تضمنه كتابنا هذا هو من
حقوق المروة وشروطها وانما نذكر في هذا الفصل الاشهر
من قواعدها واصولها والاظهر من شروطها وحقوقها محصورا
في تقسيم جامع وهي تنقسم قسمين احدهما شروط المروة في
نفسه والثاني شروطها في غيره. فاما شروطها في نفسه
بعد التزام ما اوجبه الشرع من احكامه فيكون بثلثة
امور وهي العفة والنزاهة والصيانة. فاما العفة فنوعان
احدهما العفة عن المحارم والثاني العفة عن المآثم فاما
العفة عن المحارم فنوعان احدهما ضبط الفرج عن الحرام
والثاني كف اللسان عن الاعراض. فاما ضبط الفرج عن الحرام
فلانه مع وعيد الشرع وزاجر العقل معرة فاضحة وهتكة
داحضة ولذلك قال النبي عليه السلم من وقي ذبذبه ولقلقه
وقبقبه فقد وقي. يريد بذبذبه الفرج وبلقلقه اللسان
وبقبقبه البطن. وروي عنه عليه السلم انه قال احب العفاف
الى الله تعالى عفاف البطن والفرج. وحكي ان معوية
رضي الله عنه سال عمر رضوان الله عليه عن المروة فقال

تقوى الله عز وجل وصلة الرحم. وسئل المغيرة هي العفة
عما حرم الله تعالى والحرفة فيما احله الله عز وجل وسئل
يزيد فقال الصبر على البلوى والشكر على النعمة والعفو
عند المقدرة. فقال معوية انت مني حقا وقال انوشروان لابنه
هرمز الكامل المروة من حصن دينه ووصل رحمه واكرم اخوانه
وقال بعض الحكماء من احب المكارم اجتنب المحارم وقيل
عار الفضيحة يكدر لذتها وانشدني بعض اهل الادب للحسين
ابن علي رضوان الله عليه

الموت خير من ركوب العار
والعار خير من دخول النار
والله من هذا وهذا جاري

والداعي الى ذلك شيئان احدهما ارسال الطرف والثاني اتباع
الشهوة. وقد روي عن النبي عليه السلم انه قال لعلي بن ابي
طالب يا علي لا تتبع النظرة النظرة فان الاولة لك والثانية
عليك وفي قوله لا تتبع النظرة النظرة تاويلان احدهما لا تتبع
نظر عينيك نظر قلبك. والثاني لا تتبع النظرة التي وقعت سهوا بالنظرة
الثانية توقعها عمدا. وقال عيسى بن مريم عليه اياكم والنظرة
بعد النظرة فانها تزرع في القلب الشهوة وكفى بها لصاحبها
فتنة وقال علي بن ابي طالب رضوان الله عليه العيون مصايد
الشيطان

وقال بعض الحكماء من ارسل طرفه استدعى حتفه وقال بعض
الشعراء وكنت اذا ارسلت طرفك رائدا لقلبك يوما اتعبتك المناظر
رايت الذي لا كله انت قادر عليه ولا عن بعضه انت صابر
واما الشهوة فهي خادعة العقول وغارة الالباب ومحسنة
القباح ومسولة الفضائح وليس عطب الا وله سبب وعليه
الب ولذلك قال النبي عليه السلم اربع من كن فيه وجبت له
الجنة وحفظ من الشياطين من ملك نفسه حين يرغب وحين
يرهب وحين يشتهي وحين يغضب وقهرها عن هذه الاحوال
يكون بثلثة امور احدها غض الطرف عن اثارتها وكفه عن
مساعدتها فانه الرائد المحرك والقائد المهلك وروى سعيد
ابن سنان عن انس عن النبي عليه السلم انه قال تقبلوا الي بست
اتقبل لكم بالجنة قالوا وما هي يا رسول الله قال اذا حدث
احدكم فلا يكذب واذا وعد فلا يخلف واذا اوتمن فلا يخن غضوا
ابصاركم واحفظوا فروجكم وكفوا ايديكم والثاني ترغيبها
في الحلال عوضا واقناعها بالمباح بدلا فان الله تعالى ما حرم
شيئا الا واغنى عنه بمباح من جنسه لما علمه من نوازع
الشهوة وتركيب الفطرة ليكون ذلك عونا على طاعته وحاجزا

عن مخالفته وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما امر الله
تعالى بشيء الا واعان عليه ولا نهى عن شيء الا واغنى عنه والثالث
اشعار النفس تقوى الله تعالى في اوامره واتقاؤه في زواجره
والزامها ما لزم من طاعته وتحذيرها ما حذر من معصيته واعلامها
انه لا يخفى عليه ضمير ولا يعزب عنه قطمير وانه يجازي المحسن
ويكافي المسيء بذلك نزلت كتبه وبلغت رسله روى ابن مسعود
ان اخر ما انزل من القرآن واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله
ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون واخر ما نزل من
التورية اذا لم تستحي فاصنع ما شئت واخر ما نزل من الانجيل
شر الناس من لا يبالي ان يراه الناس مسيئا واخر ما نزل
من الزبور من يزرع خيرا يحصد غبطة فاذا شعرها ما وصفت
انقادت الى الكف واذعنت بالاتقاء فسلم دينه وظهرت مروته
فهذا شرط اما كف اللسان عن الاعراض فلانه ملاذ السفهاء
وانتقام الغوغاء وهو مستسهل الكلف ان لم يقهر نفسه
عنه برادع كاف وزاجر صاد تلبط بمعاره وتخبط بمضاره
وظن انه لتحامي الناس عنه حتى يتقي ورتبته تنقي فهلك واهلك
ولذلك قال النبي عليه السلم الا ان دماءكم واموالكم واعراضكم

واتقاؤه

حرام عليكم فجمع بين الدم والعرض لما فيه من ابغار الصدور
وابداء الشرور واظهار البذاء واكتساب الاعداء ولا يبقى
مع هذه الامور وزن لمرموق ولا مروة لملحوظ ثم هو بها موتور
وموزور ولاجلها مهجور ومزجور • وقد روي عن النبي عليه
السلم انه قال شر الناس من اكرمه الناس اتقاء لسانه وقال
[بعض الحكماء] انما يهلك الناس بفضول الكلام وفضول المال • ومما قدح
في الاعراض من الكلام نوعان احدهما ما قدح في عرض صاحبه
ولم يتجاوزه الى غيره وذلك شيئان الكذب وفحش القول
والثاني ما تجاوزه الى غيره وذلك اربعة اشياء الغيبة والنميمة
والسعاية والسب بقذف او شتم وربما كان السب انكاها
للقلوب وابلغها اثرا في النفوس ولذلك ما زجر الله تعالى عنه
بالحد تغليظا وبالتفسيق تشديدا وتصعيبا وقد يكون ذلك
لاحد شيئين اما الانتقام يصدر عن سفه او بذاء يحدث عن
لوم • وقد روى ابو سلمه عن ابي هريرة ان النبي عليه السلم
قال المومن غر كريم والفاجر خب لئيم • وقال ابن المقفع
الاستطالة لسان الجهالة وكف النفس عن هذه الحال
بما يصدها عن الزواجر اسلم وهو بذي المروة اجمل فهذا

شرط واما العفة عن المآثم فنوعان احدهما الكف عن
المجاهرة بالظلم والثاني زجر النفس عن الاسترسال بالخيانة
فاما المجاهرة بالظلم فعتو مهلك وطغيان متلف وهو
يؤول ان استمر الى فتنة او جلاء اما الفتنة في الاغلب فتحيط
بصاحبها وتنعكس على البادي بها فلا تنكشف الا وهو بها مصروع
كما قال الله تعالى ولا يحيق المكر السيئ الا باهله • وروي عن
النبي عليه السلم انه قال الفتنة نايمة فمن ايقظها صار طعاما
لها وقال جعفر بن محمد رضي الله عنهما الفتنة حصاد الظالمين
وقال بعض الحكماء صاحب الفتنة اقرب شي اجلا واسوا شي عملا
[قال الشاعر]
وكنت كعنز السو قامت لحتفها الى مدية تحت الثرى تستثيرها
واما الجلاء فقد يكون مع قوة الظلم وتطاول مدته فيصير ظلمه
مع المكنة جلاء وفناء كالنار اذا وقعت في يابس الشجر ولا تبقي
مع تمكنها شيا حتى اذا افنت ما وجدت خمدت كذلك حال الظالم
مهلك ثم هالك والباعث على ذلك شيئان الجراة والقسوة ولذلك
قال النبي عليه السلم اطلبوا الفضل المعروف عند الرحماء من
امتي تعيشوا في اكنافهم • والصاد عن ذلك ان يرى اثار الله
تعالى في الظالمين فان له فيهم عبرا • ويتصور عواقب ظلمهم فان

فيها مزدجرا . وقد روي عن النبي عليه انه قال من اصبح ولم
ينو ظلم احد غفر ما اجترم . وروى جعفر بن محمد عن ابيه عن
جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا علي اتق
دعوة المظلوم فانما يسال الله حقه وان الله لا يمنع ذا حق حقه
وقيل في منثور الحكم ويل للظالم من يوم المظالم . وقال بعض
البلغاء من جار في حكمه اهلكه ظلمه . وقال بعض الشعراء

وما من يد الا يد الله فوقها ولا ظالم الا سيبلى بظالم

واما الاسترسال بالخيانة فلضعف وضعة لانه بذل الخيانة مهين
ولقلة الثقة مستكين . وقد قيل في منثور الحكم من يخن يهن
وقال خالد الربعي قرأت في بعض الكتب السالفة ان مما تؤخر
عقوبته ولا تؤخر الامانة تخان والاحسان يكفر والرحم
يقطع والبغي على الناس ولو لم يكن من ذم الخيانة الا ما يجده الخائن
في نفسه من المذلة لكفاه زاجرا ولو تصور عقبى امانته وجدوى
ثقته مع ما يجده في نفسه من العز ويقابل عليه من الاعظام . وقد
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اد الامانة الى من
ائتمنك ولا تخن من خانك . وروى سعيد بن جبير قال لما نزلت
ومن اهل الكتاب من ان تامنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من

ولا تؤخر

ان تامنه بدينار لا يؤده اليك الا ما دمت عليه قائما ذلك بانهم
قالوا ليس علينا في الاميين سبيل . يعنون ان اموال العرب
حلال لهم لانهم من غير اهل الكتاب . قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم كذب اعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية الا
وهو تحت قدمي الا الامانة فانها مؤداة الى البر والفاجر ولا يجعل
ما يتظاهر به من الامانة زورا ولا ما يبديه من العفة غرورا فينهتك
الزور وينكشف الغرور ويكون مع هتكه التدليس اقبح ومعرة
الرياء افضح . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
لا تزال امتي بخير ما لم تر الامانة مغنما والصدقة مغرما
وقال بعض الحكماء من التمس اربعا باربع التمس ما لا يكون
من التمس الجزاء بالرياء التمس ما لا يكون ومن التمس مودة الناس
بالغلظة التمس ما لا يكون ومن التمس وفاء اخوانه بغير وفاء
التمس ما لا يكون ومن التمس العلم براحة الجسد التمس ما لا يكون
والداعي الى الخيانة شيئان المهانة وقلة الامانة فاذا حسمها
عن نفسه بما وصفت ظهرت مروته . فهذا شرط قد استوفينا فيه
اقسام العفة . واما النزاهة فنوعان احدهما النزاهة عن
المطامع الدنية فلان الطمع ذل والدناءة لوم وهما ادفع شيء

والثاني النزاهة عن مواقف الريبة
فاما المطامع الدنية

للمروءة وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه اللهم
إني أعوذ بك من طمع يهدي إلى طبع وقال الشاعر
لا تخضعن لمخلوق على طمع فإن ذلك نقص منك بالدين
واسترزق الله مما في خزائنه فإنما هي بين الكاف والنون
والباعث على ذلك شيئان الشره وقلة الأنفة فلا يقنع بما أوتي
وإن كان كثيرا لأجل شرهه ولا يستنكف مما منع وإن كان حقيرا
لقلة أنفته وهذه حال من لا يرى لنفسه قدرا ويرى المال أعظم
خطرا فيرى بذل أهون الأمرين لأجلهما مغنما وليس لمن كان
المال عنده أجل ونفسه عنده أقل إصغاء لتأنيب ولا قبول
لتأديب روي أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم
أوصني قال عليك باليأس مما في أيدي الناس وإياك والطمع
فإنه فقر حاضر وإذا صليت صلاة فصل صلاة مودع وإياك
وما يعتذر منه وقال بعض الحكماء عز النزاهة أشرف من سرور
الفائدة وقال بعض الشعراء

ومن كانت الدنيا مناه وهمه سبته المنى واستعبدته المطامع

وحسم هذه المطامع شيئان اليأس والقناعة وقد روى عبد الله
ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن روح القدس

نفث في روعي أن نفسا لا تموت حتى تستوفي رزقها فاتقوا الله
تعالى وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم إبطاء الرزق على أن تطلبوه
بمعاصي الله تعالى فإن الله تعالى لا يدرك ما عنده إلا بطاعته
فهذا شرط وأما مواقف الريبة فهي التردد بين منزلتي حمد
وذم والوقوف بين حالتي سلامة وسقم فتتوجه إليه لائمة المتوهمين
وتناله ذلة المريبين وكفى بصاحبها موقفا إن صح افتضح وإن لم يصح
امتهن وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم دع ما يريبك إلى ما
لا يريبك وسئل محمد بن علي عن المروءة فقال أن لا تعمل في
السر عملا تستحيي منه في العلانية وقد قال حسان بن أبي
سنان ما وجدت شيئا هو أهون من الورع قيل له وكيف قال
إذا ارتبت بشيء تركته والداعي إلى هذه الحال شيئان الاسترسال
وحسن الظن والمانع منها شيئان الحياء والحذر وربما انتفت
الريبة بحسن الثقة وارتفعت التهمة بطول الخبرة كالذي
حكي عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه رآه بعض الحواريين
قد خرج من منزل ذات فجور فقال له يا روح الله ما تصنع هاهنا
فقال الطبيب إنما يداوي المرضى لكن لا ينبغي أن يجعل ذلك طريقا
إلى الاسترسال وليكن الحذر عليه أغلب وإلى الخوف من تصديق

التهم أقرب فما كل ريبة ينفيها حسن الثقة. هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أبعد خلق الله من الريب وأصونهم من التهم وقف مع زوجته صفية ذات ليلة على باب مسجده يحادثها وكان معتكفا فمر به رجلان من الأنصار فلما رأياه أسرعا فقال لهما على رسلكما إنها صفية بنت حيي فقالا أو نخالجنا فيك شك يا رسول الله فقال مه إن الشيطان يجري من أحدكم مجرى لحمه ودمه فخشيت أن يقذف في قلوبكما سوءا فكيف بمن تخالجت فيه الشكوك وتقابلت فيه الظنون فهل يعرى في مواقف الريب من قادح محقق ولائم مصدق. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا لم يسبق المرء إلا ما عمل فقد سعد وإذا استعمل الحزم وغلب الحذر وترك مواقف الريب ومظان التهم ولم يقف موقف اعتذار فلا عذر لمختار لم يختلج في نزاهته شك ولم يقدح في عرضه إفك. وقد قال الشاعر

أصونك أن أدل عليك ظنا ... لأن الظن مفتاح اليقين

وقال سهل بن هارون مؤونة التوقف أيسر من تكلف التعسف. وقال بعض الحكماء من حسن ظنه بمن لا يخاف الله تعالى فهو مخدوع. وأنشد بعض أهل الأدب لأبي بكر الصولي

أحسنت ظني بأهل دهري ... فحسن ظني بهم دهاني
لا آمن الناس بعد هذا ... ما الخوف إلا من الأمان

فهذا شرط قد استوفينا فيه نوعي النزاهة. وأما الصيانة وهي الثالث من شروط المروءة فنوعان أحدهما صيانة النفس بالتماس كفايتها وتقدير مادتها والثاني صيانتها عن تحمل المنن والاسترسال في الاستعانة. فأما التماس الكفاية وتقدير المادة فلأن المحتاج إلى الناس كل مهتضم وذليل مستثقل وهو لما فطر عليه محتاج إلى ما يستمده ليقيم أود نفسه ويدفع ضرورة وقته ولذلك قالت العرب في أمثالها كلب جوال خير من أسد رابض. وما يستمده نوعان لازم وندب فأما اللازم فما أقام بالكفاية وأفضى إلى سد الخلة وعليه في طلبه ثلاثة شروط أحدها استطابته من الوجوه المباحة وتوقي الوجوه المحظورة فإن المواد المحرمة مستخبثة الأصول ممحوقة الفروع إن صرفها في بر لم يؤجر وإن صرفها في مدح لم يشكر ثم هو لأوزارها محتقب وعليها معاقب. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لا يعجبك رجل اكتسب مالا من غير حله فإن أنفقه لم يقبل منه وإن أمسكه فهو زاده إلى النار

وقال بعض الحكماء شر الاموال ما لزمك اثم مكسبه
وحرمت اجر انفاقه ۔ ونظر بعض الخوارج الى رجل من اصحاب
السلطان يتصدق على مسكين فقال انظر اليهم حسناتهم
من سيئاتهم وقال علي بن الجهم

سر من عاش ماله فاذا حاسبه الله سره الاعدام

والثاني طلبه من احسن جهاته التي لا يلحقه فيها غض ولا
يتدنس له بها عرض فان المال يراد لصيانة الاعراض لا
لابتذالها ولعز النفوس لا لاذلالها وقال عبد الرحمن بن عوف

يا حبذا المال اصون به عرضي وارضي به ربي

وقال ابو بشر الضرير

كفى حزنا اني اروح واغتدي وما لي من مال اصون به عرضي
واكثر ما القى الصديق بمرحبا وذلك لا يكفي الصديق ولا يرضي

وسئل ابن عائشة عن قول النبي عليه السلام اطلبوا الحوائج
من حسان الوجوه فقال معناه من حسان الوجوه التي تحل
والثالث ان يتانى في تقدير مادته وتدبير كفايته بما لا يلحقه
خلل ولا يناله زلل فان يسير المال مع حسن التقدير واصابة
التدبير اجدى نفعا واحسن موقعا من كثيره مع سوء التدبير

وافساد التقدير كالبذر في الارض اذا روعي يسيره زكا وان اهمل
كثيره اضمحل وقد قال محمد بن علي الكمال في ثلث العفة في
الدين والصبر على النوائب وحسن التقدير في المعيشة وقيل
لبعض الحكماء فلان غني فقال لا اعرف ذلك ما لم اعرف تدبيره
في ماله فاذا استكملت هذه الشروط فيما يستمده من قدر كفايته
فقد ادى حق المروة في نفسه ۔ سئل الاحنف بن قيس عن المروة
فقال العفة وقال بعض الحكماء لابنه يا بني لا تكن على احد
كلا فانك تزداد بذلك ذلا واضرب في الارض عودا وبدا ولا تاسفن
لمال كان فذهب ولا تعجزن عن الطلب لوصب ولا نصب فهذا
حال اللازم وقد كان ذوو الهمم العالية والنفوس الابية يرون ما
وصل الى الانسان كسبا افضل مما وصل اليه ارثا لانه في الارث
في جدوى غيره وبالكسب مجد على غيره وفرق ما بينهما في الفضل
ظاهر وقال كشاجم

لا استلذ العيش لم ادأب له طلبا وسعيا في الهواجر والغلس
فاري حراما ان يواتيني الغنى حتى يحاول بالعناء ويلتمس
فاصرف نوالك عن اخيك موفرا فالليث ليس يسيغ الا ما افترس

فاما التدب فهو ما فضل عن الكفاية وزاد على قدر الحاجة فان الامر

فيه معتبر بحال الطالب فإن كان ممن تقاعد عن منازل الرؤساء وتقاصر
عن مطاولة النظراء وانقبض عن منافسة الأكفاء فحسبه ما كفاه
فليس في الزيادة إلا شره ولا في الفضول إلا نهم وكلاهما مذموم
ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الرزق ما يكفي
وخير الذكر الخفي وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه الدنيا
كل على العاقل وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه المستغني
بالدنيا عن الدنيا كالمطفئ النار بالتبن وقال بعض الحكماء
استر ماء وجهك بالقناعة وتسل عن الدنيا بتجافيها عن الكرام
وإن كان ممن قد مني بعلو الهمم وتحركت فيه أريحية الكرم وآثر
أن يكون رأسا ومقدما وأن يرى في النفوس مفخما ومعظما فالكفاية
لا تقنعه حتى يكون بماله فاضلا ونائله فائضا قيل لبعض العرب
ما المروءة فيكم قال طعام مأكول ونائل مبذول وبشر مقبول

وقال الأحنف بن قيس

فلو مد سروي بمال كثير لجدت وكنت له باذلا
فإن المروءة لا تستطاع إذا لم مالها فاضلا

وقال الجحة بن الجلاح

رزقت لبا ولم أرزق مروءته وما المروءة إلا كثرة المال

يكن

إذا أردت مساماة تقاعد بي عما ينوه باسمي رقة الحال

وأما صيانتها عن تحمل المنن والاسترسال في الاستعانة فلأن
المنة استرقاق الأحرار تحدث ذلة في الممنون عليه وسطوة في
المان به والاسترسال في الاستعانة تثقيل ومن ثقل على الناس
هان ولا قدر عندهم لمهان وقال رجل لعمر بن الخطاب رضي
الله عنه خدمك بنوك قال أغناني الله عنهم وقال علي بن أبي
طالب رضوان الله عليه لابنه الحسن في وصيته له يا بني إن استطعت
أن لا يكون بينك وبين الله تعالى ذو نعمة فافعل ولا تكن عبد غيرك
وقد جعلك الله حرا فإن اليسير من الله تعالى أكثر وأعظم من
الكثير من غيره وإن كان كل كثير منه وقال زياد لبعض الدهاقين
ما المروءة فيكم قال اجتناب الريب فإنه لا ينبل مريب وإصلاح
الرجل ماله فإنه من مروءته وقيامه بحوائجه وحوائج أهله غيره

وأنشد ثعلب

من عف خف على الصديق لقاؤه وأخو الحوائج وجهه مملول
وأخوك من وفرت ما في كيسه فإذا عبثت به فأنت ثقيل

ولئن كان الناس لا يستغنون عن التعاون ولا يستقلون عن المساعدة
والتظافر فإنما ذلك تعاون في ائتلاف يتكافؤون فيه فلا يتفاضلون
وربما كان المستعين فيه متفضلا والمعين مستفضلا كاستعانة

فإنه لا ينبل من احتاج إلى أهله ولا من احتاج أهله إلى غيره

السلطان بجنده والمزارع باكرته وليس من هذا بد ولا لاحد عنه غنى
وانما الذي يصون عنه الكرام تعاون التفضل فيتقبضوا عن ان يستعينوا
لئلا تكون عليهم يد ويسارعوا الى ان يعينوا لان تكون لهم يد ومن اقدم
من غير اضطرار على الاستعانة بجاه او بمال فقد اوهن مروته
واستبذل صيانته ومن دعاه الاضطرار لنائب الم او حادث يجم
الى الاستعانة بمن يتنفس به من خناق كربه ويتخلص به من وثاق
نوائبه فلا لوم على مضطر فان اغناه الاستعانة بالجاه عن الاستعانة
بالمال فلا عذر له في التعرض للمال ويعدل الى ولاة الامور في الحوائج
فانها عندهم انجح وهي عليهم اسهل وهم لذلك مندوبون فهم لا يجدون
له مسا ولبصبر على ابطائهم فان تراكم الامور عليهم يشغلهم الا عن
الملح الصبور ولذلك قيل قدم بعض لجاجتك وقد تقدم من قول
الحكماء ريح السلطان على قوم نسيم وعلى قوم سموم وقال عبد الله
ابن المعتز من صحب السلطان فليصبر على قسوته كصبر الغواص
على ملوحة بحره وقال ابو سيارة نجيم بن الاعرف

بعد قرابة وبعد صهرا ويبعد بالقرابة من رعاها
وما زرناك من عدم ولكن يهش الى الامارة من رجاها
وابا ما فعلت فان نفسي تعد صلاح نفسك من غناها

لحاجتك

فان تعذر عليه صلاح حاله الا بمال يستعين به على نوائبه فان
له مع الضرورة فسحة فيه لكن ان وجد قرضا مردودا لم ياخذ صلة
وجودا فان القرض يستشنع به في المروات هذا رسول الله صلى
الله عليه وسلم مع اعلى الشيم من قدره وفضله على خليقته قد اقترض
ثم قضى فاحسن وقال النبي عليه وسلم من اغناه رزق الله
تعالى حلالا فليستندن على الله تعالى وعلى رسوله وقال عليه السلم
المستند بن تاجر الله تعالى في ارضه وقال البحتري

ان لا يكن كثر فقل عطية يبلغ بها باغي الرضا بعض الرضا
او لا يكن هبة فقرض يشترى اسبابه وكواهب من اقرضا

ولئن كان الدين رقا فهو اسهل من رق الافضال وقد روي عن
علي بن ابي طالب رضوان الله عليه انه قال من اراد البقاء ولا
بقاء فليباكر الغداء وليخفف الغداء وقيل وما في خفة الغداء
من البقاء قال قلة الدين فان اعوزه ذلك الا استمنحا فهو
الرق المذل ولذلك قيل لا مروة لمقل وقال بعض الحكماء
من قبل صلتك فقد باعك مروته واذل لقدرك عزه وجلالته والذي
يتماسك به الباقي من مروة الراغبين والسير النافه من صيانة
السائلين وان لم يبق لذي رغبة مروة ولا لسائل تصون اربعة

امور

في جهد المضطر أحدها أن يتجافى ضرع السائلين وأبهة المستقلين
فيذل بالضرع ويحرم بالأبهة وليكن من التجمل على ما يقتضيه حال
أمثاله من ذوي الحاجات فقد قيل لبعض الحكماء متى يفحش
زوال النعم قال إذا زال معها التجمل وأنشد بعض أهل الأدب لعلي

ابن الجهم

هي النفس ما حملتها تتحمل وللدهر أيام تجور وتعدل
وعاقبة الصبر الجميل جميلة وأحسن أخلاق الرجال التفضل
ولا عار إن زالت عن الحر نعمة ولكن عارا أن يزول التجمل

والثاني أن يقتصر بالسؤال على ما دعته إليه الضرورة وقادته
إليه الحاجة ولا يجعل ذلك ذريعة إلى الاغتنام فيحرم باغتياضه
ولا يعذر في ضرورته وقد قال بعض الحكماء من ألف المسألة
ألف المنع والثالث أن يعذر في المنع ويشكر على الإجابة فإنه
إذا منع فيما لا يملك وإن أجيب فإلى ما لا يستحق وقد قال النمر بن تولب

لا تغضبن على امرئ في ماله وعلى كرائم صلب مالك فاغضب

والرابع أن يعتمد على سؤال من كان للمسألة أهلا وكان النجح
عنده مأمولا فإن ذوي المكنة كثير والمعين منهم قليل ولذلك
قال النبي صلى الله عليه وسلم الخير كثير وقليل فاعله والمرجو
للإجابة من كملت فيه خصالها وهي ثلاث أحدها كرم الطبع

فإن الكريم مساعد واللئيم معاند وقد قيل المخذول من كانت
له إلى اللئام حاجة والثانية سلامة الصدر فإن العدو آلب
على كيدك وحرب على نائبتك وقد قيل من أوغرت صدره استدعيت
شره فإن رق لك كرم طبعه ورحمك حسن ظفره فأعظم بها محنة
أن يصير عدوك لك راحما وقد قال الشاعر

حسبك من حادث بامرئ يرى حاسديه له راحمينا

والثالثة ظهور المكنة فإن من سأل ما لا يمكن كمستنهض المسكين
المسجون ومستسعف المديون وكان بالرد خليقا وبالحرمان
حقيقا وقد قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه من لا يعرف
لا حتى يقال له فهو الأحمق ووصى عبد الرحمن بن الأهيم لابنه فقال
يا بني لا تطلب الحوائج إلى غير أهلها ولا تطلبها في غير حينها
ولا تطلب ما لست له مستحقا فإنك إن فعلت ذلك كنت حقيقا
بالحرمان وقد قال الشاعر

ولا تسألن امرأ حاجة يحاول من ربها مثلها
فيترك ما كنت حملته ويبدأ بحاجته قبلها

فهذا ما اختص بشروط المودة في نفسه فأما شروط المروءة في
غيرها فثلاث المؤازرة والمياسرة والإفضال فأما المؤازرة

فيهلك لها ما كان

فنوعان احدهما الاسعاد بالجاه والثاني الاسعاف في النوائب
فاما الاسعاد بالجاه فقد يكون من الاعلى قدرا والانفذ امرا وهو
ارخص المكارم ثمنا والطف الصنائع موقعا وربما كان اعظم
من المال نفعا وهو الظل الذي يلجا اليه المضطرون والحمى
الذي ياوي اليه الخائفون فان وطاه اتسع بكثرة الانصار والشيع
وان قبضه انقطع بنفور الغاشية والتبع فهو بالبذل ينمي
ويزيد وبالكف ينقص ويبيد فلا عذر لمن منح جاها ان يبخل به
فيكون اسوا حالا من البخيل بماله الذي يعده لنوائبه ويستبقيه
للذته ويستكثره لذريته وبضد ذلك من بخل بجاهه لانه
قد اضاعه بالشح وبذره بالبخل وحرم نفسه غنيمة مكنته
وفرصة قدرته فلم يعقبه الا ندما على فائته واسفا على ضائع
ومقتا يستحكم في النفوس وذما قد ينتشر في الناس وقد روي
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الخلق كلهم عيال الله واحب
خلق الله اليه احسنهم صنيعا الى عياله وقال بعض الحكماء
اصنع الخير عند امكانه يبق لك حمده عند زوال ايامه واحسن
والدولة لك تحسن اليك والدولة عليك واجعل زمان رخائك
عدة لزمان بلائك وقال بعض البلغاء من علامة الاقبال

اصطناع الرجال وقد قال بعض اهل الادب بذل الجاه احد
الحبائين وقال ابن الاعرابي العرب تقول من امل رجلا هابه
ومن جهل شيئا عابه وبذل الجاه قد يكون من كرم النفس وشكر
النعمة وضده من ضده وليس بذل الجاه التماس الجزاء بدلا
مشكورا وانما هو بائع جاهه ومعاوض على نعمة الله تعالى فكان
بالذم احق وانشد بعض الادباء لعلي بن العباس الرومي

لا تبذل العرف حين تبذله لمشتري الحمد او لمعتاضه
بل تفعل العرف حين تفعله لجوهر العرف لا لاعراضه

وعلى من اسعد بجاهه ثلاثة حقوق يستكثر بها الشكر
ويستمد بها المزيد احدها ان يستسهل المعونة مسرورا بها
ولا يستثقلها كارها لها فيكون بنعم الله تعالى متبرما وباحسانه
متسخطا وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من
عظمت نعم الله عليه عظمت مؤونة الناس عليه فمن لم يحتمل
تلك المؤونة عرض تلك النعمة للزوال والثاني مجانبة الاستطالة
وترك الامتنان فانهما من لؤم الطبع وضيق الصدر وفيهما هدم
الصنع واحباط الشكر وقد قيل للحكيم اليوناني من اضيق
الناس طريقا واقلهم صديقا قال من عاشر الناس بعبوس وجهه

واستطال عليهم بنفسه والثالث ان لا يقرن بمشكور سعيه تقريعا
بذنب ولا توبيخا على هفوة فلا يفي مضض التوبيخ بادراك النجح
ويصير الشكر وجدا والحمد عتبا ولذلك قال النبي عليه السلام
اقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم وقال النابغة الجعدي
الم تعلما ان الملامة نفعها قليل اذا ما الشيء ولى فادبرا
واما الاسعاف في النوائب فلان الايام غادرة والنوازل غائرة
والحوادث عارضة والنوائب راكضة فلا يعذر فيها الا عليم ولا
يستنقذه منها الا سليم وقال عدي بن زيد
كفى زاجرا للمرء ايام دهره تروح له بالواعظات وتغتدي
فاذا وجد الكريم مصابا بحوادث دهره حثه الكرم وشكر النعم
على الاسعاف فيها بما استطاع سبيلا اليه ووجد قدرة عليه
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خير من الخير معطيه
وشر من الشر فاعله وقيل لبعض الحكماء هل شيء خير من
الذهب والفضة قال معطيهما والاسعاف في النوائب نوعان
واجب وتبرع فاما الواجب فما اختص بثلثة اصناف وهم
الاهل والاخوان والجيران فاما الاهل فلمماسة الرحم وتعاطف
النسب وقد قيل لم يسد من احتاج اهله الى غيره وقال حسان

ابن ثابت وان امرا نال الغنى لم ينل به قريبا ولا ذا حاجة لزهيد
وان امرا عادى الرجال على الغنى ولم يسال الله الغنى لحسود
واما الاخوان فمستحكم الود ومتاكد العهد سئل الاحنف
ابن قيس عن المروة فقال صدق اللسان ومواساة الاخوان
وذكر الله تعالى في كل مكان وقال بعض حكماء الفرس صفة
الصديق ان يبذل لك ماله عند الحاجة ونفسه عند النكبة
ويحفظك عند المغيب وراى بعض الحكماء رجلين يصطحبان
ولا يفترقان فسال عنهما فقيل له صديقان فقال ما بال احدهما
فقير والاخر غني واما الجار فلدنو داره واتصال مزاره
وقد قال علي بن ابي طالب رضي الله عنه ليس حسن الجوار كف
الاذى ولكنه الصبر على الاذى وقد قال بعض الحكماء
من اجار جاره اعانه الله واجاره وقال بعض البلغاء من
احسن الى جاره دل على حسن نجاره وقال بعض الشعراء
وللجار حق فاحترس من اذاته وما خير جار لا يزال مؤاذيا
فيجب من حقوق المروة وشروط الكرم في هؤلاء الثلث تحمل
اثقالهم واسعافهم في نوائبهم ولا فسحة لذي مروة مع ظهور المكنة
ان يكلهم الى غيره او يلجئهم الى سؤاله وليكن سائل نفسه عنهم

الغنى
فمستحكم الود

فانهم عيال كرمه واضياف مروته فكما انه لا يحسن ان يلجئ عياله
واضيافه الى الطلب والرغبة فكذلك من عال كرمه واضافته مروته
قال الشاعر
حق على السيد المرجو نائله والمستجار به في العرب والعجم
ان لا ينيل الاقاصي صوب راحته حتى يخص به الادنى من الخدم
ان الفرات اذا جاشت غواربه روى السواحل ثم امتد في الامم
واما التبرع فمن عدا هؤلاء الثلثة من البعداء الذين لا يدلون
بنسب ولا يتعلقون بسبب فان تبرع بفضل الكرم وفائض
المروة نهض في حوادثهم وتكفل في نوائبهم فقد زاد على شرط المروة
وتجاوزها الى شروط الرياسة قيل لبعض الحكماء اي شي
من افعال الناس يشبه افعال الاله قال الاحسان الى الناس
وان كف تشاغلا بمن لزم فلا لوم ما لم يلجئ اليه مضطر اذ القيام
بالكل معوز والتكفل بالجميع متعذر فهذا حكم الموازرة
واما المياسرة فنوعان احدهما العفو عن الهفوات والثاني
المسامحة في الحقوق فاما العفو عن الهفوات فلانه لا مبرا
من سهو وزلل ولا سليم من نقص او خلل ومن رام سليما من هفوة
والتمس بريا من نبوة فقد تعدى على الدهر بشططه وخادع
نفسه بغلطه وحيدا وقد قالت الحكماء لا صديق لمن اراد

وكان من وجود بغيته بعيدا وصار باقتراحه فردا

صديقا لا عيب فيه وقيل لانوشروان هل من احد لا عيب
فيه قال من لا موت له واذا كان الدهر لا يوجد ما طلب
ولا ينيله ما احب وكان الوحيد في الناس مرفوضا قصيا
والمنقطع عنهم بهيما وحشيا لزمه مساعدة زمانه في الغضاء
ومياسرة اخوانه في الصفح والاغضاء روي عن النبي عليه السلم
انه قال ان الله امرني بمداراة الناس كما امرني باقامة الفرايض
وقال بعض الادباء ثلث خصال لا تجتمع الا في كريم حسن المحضر
واحتمال الزلة وقلة الملال وقال ابن الرومي
فعذرك مبسوط لذنب مقدم وودك مقبول باهل ومرحب
ولو بلغتني عنك اذني اقمتها لدي مقام الكاشح المتكذب
فلست بتقليب اللسان مصارما خليلا اذا ما القلب لم يتقلب
واذا كان الاغضاء حتما والصفح لازما ترتب بحسب الهفوة
وتنزل بقدر الذنب والهفوات نوعان صغاير وكباير فالصغاير
مغفورة والنفوس بها معذورة لان الناس مع اطوارهم المختلفة
واخلاقهم المتفاضلة لا يسلمون منها وكان الوجد فيها مطرحا
والعتب فيها مستقبحا وقد قال بعض العلماء من هجر اخاه
من غير ذنب كان كمن زرع زرعا ثم حصده قبل اوانه قال ابو العتاهية

وشر الأخلاء من لم يزل ... يعاتب طورا وطورا يذم
يريك النصيحة عند اللقاء ... ويبريك في السر بري القلم

ومن الكبائر نوعان أحدهما أن يهفو بها خاطئا ويزل بها ساهيا فالحرج فيهما مرفوع والعتب عنهما موضوع لأن هفوة الخاطي هدر ولومه هدر وقال بعض الحكماء لا تقطع أخاك إلا بعد عجز الحيلة عن استصلاحه وقال الأحنف بن قيس حق الصديق أن تحتمل له ثلاثا ظلم الغضب وظلم الدالة وظلم الهفوة وحكى ابن أبي عون أن غلاما هاشميا عربد على قوم فأراد عمه أن يشتكي إليه فقال يا عم إني قد أسأت وليس معي عقلي فلا تسئ بي ومعك عقلك وقال أبو فراس

لم أؤاخذك بالجفاء لأني ... عالم منك بالإخاء الصحيح
فجميل العدو غير جميل ... وقبيح الصديق غير قبيح

فإن تشبه خطاؤه بالعمد وسهوه بالقصد تثبت ولا تحكم بالتوهم فتكون ملوما ولا تذم بالظن فتصير مذموما ولذلك قيل التثبت نصف العفو وقال بعض الحكماء لا يفسدنك الظن عن طريق أصلحك اليقين له وقال بعض الشعراء

فبعض الأمر تصلحه ببعض ... فإن الغث يحمله السمين
ولا تعجل بظنك قبل خبر ... فعند الخبر تنقطع الظنون
ترى بين الرجال العين فضلا ... وفيما أضمر الفضل المبين
كلون الماء مشتبها وليست ... تخبر عن مذاقته العيون

والثاني أن يتعمد ما اجترم من كبائره ويقصد ما اجترح من سيئاته فلا يخلو حاله فيما أتاه من أحوال أربع فالأولة أن يكون موتورا قد قابل على ترة وكافى على مساءة فاللائمة على من وتر عائدة وإلى البادي بها راجعة لأن المكافي أعذر وإن كان الصفح أجمل ولذلك قال النبي عليه السلام إياكم والمشارة فإنها تميت الغرة وتحيي العرة وقال بعض الحكماء من فعل ما شاء لقي ما لم يشأ وقال بعض الأدباء من نالته إساءتك همته مساءتك وقال بعض البلغاء من أولع بقبيح المعاملة أوجع بقبيح المقابلة وقال صالح بن عبد القدوس

إذا وترت امرأ فاحذر عداوته ... من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا
إن العدو وإن أبدى مسالمة ... إذا رأى منك يوما فرصة وثبا

والإغضاء عن هذا الذنب أوجب وإن لم تكن المكافأة ذنبا لأنه قد رأى عقبى مساءته فإن واصل الشر واصلته المكافأة وقد قيل بالعثرالك الشر يعثر لك وبحسن التصفح يكثر الواصلون وقال بعض الحكماء من كثر التسبب لبلائه وجب عليك التلطف له

في علاجه من دائه وقال أوس بن حجر في الاصل زهير

إذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنا أصبت حليما أو أصابك جاهل

والحال الثانية أن يكون عدوًا قد استحكمت سخائمه واستوغرت سمآؤه واستخشنت ضرائه فهو يتربص بدواير السوء انتهاز فرصه ويتجرع بمهانة العجز مرارة غصصه فإذا ظفر بنائبة ساعدها وإن شاهد نعمة عاندها فالبعد منه حذرًا أسلم والكف عنه متاركة أغنم لانه لا يسلم من عواقب شره ولا يفلت من غوائل مكره وقد قال الحكماء لا تعرض لعدوك في دولته فاذا زالت كفيت شره وقال لقمن لابنه يا بني كذب من قال ان الشر بالشر يطفى فان كان صادقا فليوقد نارين ولينظر هل تطفى احديهما الاخرى وانما يطفي الخير الشر كما يطفي الماء النار وقال جعفر بن محمد رضي الله عنهما كفاك من الله نصرا أن ترى عدوك يعصي الله فيك وقال بعض الادباء بالسيرة العادلة يقهر المعادي وقال البحتري

وأقسم لا أجزيك بالشر مثله كفى بالذي جازيتني لك جازيا

والحال الثالثة أن يكون لئيم الطبع خبيث الاصل قد أغراه لوم الطبع على سوء الاعتقاد وبعثه خبث الاصل على ايثار

الفساد فهو لا يستقبح الشر ولا يكف عن المكروه فهذه الحال اعظم لان الاضرار بها اعم ولا سلامة من مثله الا بالبعد والانقباض ولا خلاص منه الا بالصفح والاعراض فانه كالسبع الضاري في سوارح النعم وكالنار المتاججة في يابس الحطب لا يقربها الا تالف ولا يدنو منها الا هالك روى مكحول عن ابي امامة عن النبي عليه السلم انه قال ان الناس كشجرة ذات جنا ويوشك ان تعودوا كشجرة ذات شوك ان ناقدتهم ناقدوك وان هربت منهم طلبوك وان تركتهم لم يتركوك قيل يا رسول الله فكيف المخرج قال اقرضهم من عرضك ليوم فاقتك وقال عبد الله بن العباس العاقل الكريم صديق كل احد الا من ضر والجاهل اللئيم عدو كل احد الا من نفعه وقال بعض الحكماء شر ما في الكريم أن يمنعك خيره وخير ما في اللئيم أن يكف عنك شره وقال بعض البلغاء أعداؤك داؤك وفي البعد منهم شفاؤك وقال بعض الادباء شرف الكريم تغافله عن اللئيم ووصى بعض الحكماء ابنه فقال يا بني اذا سلم الناس منك فلا عليك أن لا تسلم منهم فانه قل ما اجتمعت هاتان النعمتان وقال عبد المسيح بن عمرو بن بقيله

والخير والشر مقرونان في قرن فالخير متبع والشر محذور

والحال الرابعة أن يكون صديقا قد استحدث نبوة وتغيرا واخاء
قد استجد جفوة وتنكرا فأبدى صفحة عقوقه واطرح لازم
حقوقه وعدل عن بر الإخاء إلى جفوة الأعداء فهذا قد يعرض
في المودات المستقيمة كما تعرض الأمراض في الأجسام السليمة
فإن عولجت أقلعت وإن أهملت أسقمت ثم أتلفت ولذلك
قالت الحكماء داووا المودة بكثرة التعهد وقال كشاجم

أقل ذا الود عثرته وقفه ... على سنن الطريق المستقيمة
ولا تسرع بمعتبة إليه ... فقد يهفو ونيته سليمة

ومن الناس من يرى أن متاركة الإخوان إذا تغيروا أصلح
واطراحهم إذا فسدوا أولى كأعضاء الجسد إذا فسدت كان
قطعها أسلم وإن شح بها سرت إلى نفسه وكالثوب إذا أخلق
كان اطراحه بالجديد أحمد من لبسه وقال بعض الحكماء
رغبتك فيمن يزهد فيك ذل نفس وزهدك فيمن يرغب فيك صغر همة
وقال بزرجمهر من تغير عليك في مودته فدعه حيث كان قبل
معرفته وقال نصر بن أحمد الخبزرزي

صل من دنا وتناس من بعدا ... لا تكرهن على الهوى أحدا
قد أكثرت حواء إذ ولدت ... فإذا جفا ولد فخذ ولدا

وهذا مذهب من قل وفاؤه وضعف إخاؤه وساءت طرائقه
وضاقت خلائقه ولم يكن فيه للاحتمال فضل ولا صبر على الإدلال
فقابل على الجفوة وعاقب على الهفوة واطرح سالف الحقوق
وقابل على العقوق بالعقوق فلا بالفضل أخذ ولا إلى العفو
أخلد وقد علم أن نفسه قد تطغى عليه فتؤذيه وأن جسمه قد يسقم
عليه فيؤلمه ويؤذيه وهما أخص به وأحنى عليه من صديق قد تميز
بذاته وانفصل بأدوائه فيريد من غيره لنفسه ما لا يجده من نفسه
لنفسه هذا عين المحال ومحض الجهل مع أن من لم يحتمل بقي فردا
وانقلب الصديق فصار عدوا وعداوة من كان صديقا أعظم
من عداوة من لم يزل عدوا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم
أحبب حبيبك هونا ما عسى أن وقال أوصاني ربي بسبع بالإخلاص
في السر والعلانية وأن أعفو عمن ظلمني وأعطي من حرمني وأصل
من قطعني وأن يكون صمتي فكرا ونظري عبرا ونطقي ذكرا وقال
لقمان لابنه يا بني لا تترك صديقك الأول فلا يطمئن إليك الثاني
يا بني اتخذ ألف صديق والألف قليل ولا تتخذ عدوا واحدا والواحد
كثير وقيل للمهلب بن أبي صفرة ما تقول في العفو والعقوبة
قال هما بمنزلة الجود والبخل فتمسك بأيهما شئت وأنشد ثعلب

إذا أنت لم تستقبل الأمر لم تجد ... بكفيك في إدباره متعلقا
إذا أنت لم تترك أخاك وزلة ... إذا زلها أوشكتما أن تفرقا

فإذا كان الأمر على ما وصفت فمن حقوق الصفح عن سبب الهفوة أن تعرف الداء فتعالجه فإن لم تعرف الداء لم تقف على الدواء وكان كما قال المتنبي

فإن الجرح ينفر بعد حين ... إذا كان البناء على الفساد

وإذا كان ذلك كذلك فلا يخلو حال ذلك السبب من أن يكون لملل أو زلل فإن كان لملل فمودات الملول ظل الغمام وحلم النيام وقد قيل في منثور الحكم لا تأمنن ملولا وإن تحلى بالصلة وعلاجه أن تتركه على ملله فيمل الجفاء كما مل الإخاء وإن كان لزلل لوحظت أسبابه فإن كان لها مدخل في التأويل وشبهة تميل إلى الجميل حمله على أجمل تأويله وصرفه إلى أحسن جهته كالذي حكي خالد بن صفوان أنه مر به صديقان له فعرج عليه أحدهما وطواه الآخر فقيل له في ذلك فقال نعم عرج علينا هذا بفضله وطوانا ذاك لثقته وأنشد بعض أهل الأدب لمحمد بن داود الأصبهاني

وتزعم للواشين أني فاسد ... عليك ولكن لست فيما عهدتني
وما فسدت لي يشهد الله نية ... عليك ولكن خنتني فاتهمتني
غدرت بعهدي عامدا وأخفتني ... فخفت ولو أمنتني لأمنتني

وأني

وإن لم يكن لزلله في التأويل مدخل نظر حاله بعد زلله فإن ظهر ندمه وبان خجله فالندم توبة والخجل إنابة ولا ذنب لتائب ولا لوم على منيب فلا يكلف عذرا عما سلف فيلجأ إلى ذل التحريف أو خجل التعنيف ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم إياكم والمعاذير فإن أكثرها مفاجر وقال علي بن أبي طالب رضوان الله عليه كفى بما يعتذر منه تهمة وقال مسلم بن قتيبة لرجل اعتذر إليه لا يدعونك أمر قد تخلصت منه إلى الدخول في أمر لعلك لا تتخلص منه وقال بعض الحكماء شفيع المذنب إقراره وتوبته اعتذاره وقال بعض البلغاء من لم يقبل التوبة عظمت خطيئته ومن لم يحسن إلى التائب قبحت إساءته وقال بعض الأدباء الكريم أوسع ما يكون مغفرة إذا ضاقت بالمذنب المعذرة وقال بعض الشعراء

العذر يلحقه التحريف والكذب ... وليس في غير ما يرضيك لي أرب
وقد أسأت فبالنعمى التي سلفت ... إلا مننت بعفو ما له سبب

وإن عجل العذر قبل توبته وقدم التنصل قبل إنابته فالعذر توبة والتنصل إنابة فلا يكشف عن باطن عذره ولا يعنف بظاهر عذره فيكون أثيم الظفر سيئ المكافأة وقد قيل من غلبته الحدة

فلا يغتر بمودته وقال بعض الحكماء شافع المذنب خضوعه
الى عدوه وقال بعض الشعراء

اقبل معاذير من يأتيك معتذرا ان بر عندك فيما قال او فجرا
فقد اطاعك من يرضيك ظاهره وقد اجلك من يعصيك مستترا

وان تارك نفسه في زلله ولم يتداركه بعذره وتنصله ولا امحاه
بتوبته وانابته راعيت حاله في المتاركة فستجده لا ينفك فيها
من امور ثلثة اما ان يكون قد كف عن سيء عمله واقلع عن سالف
زلله فالكف احدى التوبتين والاقلاع احد العذرين وكنت
انت المعتذر عنه بصفحك والمتنصل له بفضلك فقد قال عمر
ابن الخطاب رضي الله عنه المحسن الى المسيء امين والثاني
ان يكون قد وقف على ما اسلف من زلله غير نازل ولا متجاوز
فوقوف المرض احد البرئين وكفه عن الزيادة احدى الحسنيين
وقد استبقي بالوقوف عن التجاوز احد شطريه يعود به على صلاح
شطره الاخر واياك والارجاء فان الارجاء يفسد شطر صلاحه
والتلافي يصلح شطر فساده فان من سقم جسمه ما لم يعالجه
سرى السقم الى صحته وان عالجه سرت الصحة الى سقمه والثالث
ان يتجاوز مع الاوقات ويزيد فيه على مرور الايام فهذا هو الداء

العضال فان امكن استدراكه وتأتى استصلاحه باستنزاله
عنه ان علا وباد عائه ان دنا وبعتابه ان ساوى والا فآخر الداء
العضال الكي ومن يلغت به الاعذار الى غايتها فلا لائمة عليه
والمقيم على شقاقه باغ مصروع وقد قيل من سل سيف
البغي اغمده في راسه فهذا شرط واما المسامحة في الحقوق
فلان الاستيفاء موحش والاستقصاء منفر ومن اراد كل
حقه من النفوس المستصعبة بشح او طمع لم يصل اليه بالمنافرة

الأ

والمشاقة ولم يقدر عليه الا بالمخاشنة والمشاحة وقد استقر
في الطباع مقت من شاقها ونافرها وبغض من شاحها ونازعها
كما استقر فيها حب من سامحها وياسرها فكان اليق الامور
بالمروة استعطاف النفوس بالمسامحة والمياسرة وتالفها
بالمقاربة والمساهلة وقد قال بعض الحكماء من عاشر اخوانه
بالمسامحة دامت له موداتهم وقال بعض الادباء اذا اخذت
عفو القلوب زكا ريعك وان استقصيت اكديت والمسامحة
نوعان في عقود وحقوق فاما العقود فهو ان يكون فيها
سهل المناجزة قليل المحاجة مأمون الغيبة بعيدا من المكر
والخديعة روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اجملوا

المحاجة

في طلب الدنيا فإن كلا ميسر لما كتب له منها. وقال عليه السلم
ألا أدلكم على شيء يحبه الله ورسوله قالوا بلى قال التغابن
للضعيف. وحكى ابن أبي عون أن عمرو بن عبيد اشترى
للحسن البصري إزارا بستة دراهم ونصف فأعطى التاجر
سبعة دراهم فقال ثمنه ستة ونصف فقال إني اشتريته
لرجل لا يقاسم أخاه درهما. ومن الناس من يرى أن المساهلة
في العقود عجز وأن الاستقصاء فيها حزم حتى إنه ليماكس
في التافه الحقير وإن جاد بالجزيل الكثير كالذي حكي
عن عبد الله بن جعفر وقد ماكس في درهم وهو يجود بما يجود به
فقيل له في ذلك فقال ذلك مالي أجود به وهذا عقلي بخلت به
وهذا إنما يتساغ من أهل المروءة في دفع ما يخادعهم به
الأدنياء ويغابنهم به الأشحاء وهكذا كانت حال عبد الله
ابن جعفر. فأما مماكسة الاستنزال والاستسماح فكلا لأنه
مناف للكرم ومباين للمروءة. وأما الحقوق فتتنوع المسامحة
فيها نوعين أحدهما في الأحوال والثاني في الأموال. فأما
المسامحة في الأحوال فهو اطراح المنازعة في الرتب وترك
المنافسة في التقدم فإن مشاحة النفوس فيها أعظم والعناد

نوعان

عليها أكثر فإن سامح فيها ولم ينافس كان مع أخذه بأفضل
الأخلاق واستعماله لأحسن الآداب أوقع في النفوس من أفضاله
برغائب الأموال ثم هو أزيد في رتبته وأبلغ في تقدمه وإن شاح
فيها ونازع كان مع ارتكابه لأخشن الأخلاق واستعماله لأهجن
الآداب أنكى في النفوس من حد السيف وطعن السنان ثم هو
أخفض للرتبة وأمنع من التقدم. حكي أن فتى من بني هاشم
تخطى رقاب الناس عند أبي دواد فقال له يا بني إن الأدب ميراث
الأشراف ولست أرى عندك من سلفك إرثا. وأما المسامحة في الأموال
فتتنوع ثلثة أنواع مسامحة إسقاط لعدم ومسامحة تخفيف
لعجز ومسامحة إنظار لعسرة وهي مع اختلاف أسبابها تفضل
مأثور وتألف مشكور وإذا كان الكريم قد يجود بما تحويه يده وينفذ
فيه تصرفه كان أولى أن يجود بما خرج عن يده وطاب نفسا بفراقه
وقد قصد المسامحة في الحقوق الحر لا يقبل البر ويأبى الصلة
فيكون أحسن موقعا وأزكى محلا وربما كانت المساحة فيها آلم
من رد السائل ومنع المجتدي لأن السائل كما اجترى على
سؤالك فيستحي أن يردك على سؤال غيرك وليس ذل من صار
أسير حقك ورهين دينك يجد بدا من مساعدتك ومياسرتك

ابن

ثم لك مع ذلك حسن الثناء وجزيل الاجر وقال محمود الوراق

المرء بعد الموت احدوثة ... يفنى وتبقى منه اثاره

فاحسن الحالات حال امرء ... يطيب بعد الموت اخباره

فهذه حال المياسرة واما الافضال فنوعان افضال اصطناع وافضال استكفاف ودفاع فاما افضال الاصطناع فنوعان احدهما ما اسداه جودا في شكور والثاني ما تالف به نبوة نفور وكلاهما من شروط المروة لما فيهما من ظهور الاصطناع وتكاثر الاشياع والاتباع ومن قلت صنايعه في الشاكرين واعرض عن تالف النافرين كان فردا مهجورا وتابعا محقورا ولا مروة لمتروك مطرح ولا قدر لمحقور مهتضم وقال عمر بن عبد العزيز ما طاوعني الناس على شيء اردته من الحق حتى بسطت لهم طرفا من الدنيا وقال بعض الحكماء اقل ما يجب للمنعم بحق نعمته ان لا يتوصل بها الى معصيته وانشد لبعض الاعراب

من جمع المال ولم يجد به ... وجمع المال لعام جدبه

هان على الناس هوان كلبه

وقال اسحق بن ابرهيم الموصلي

يبقى الثناء وتذهب الاموال ... ولكل دهر دولة ورجال

ما نال محمدة الرجال وشكرهم ... الا الجواد بماله المفضال

لا ترض من رجل حلاوة قوله ... حتى يصدق ما يقول فعال

فان ضاقت به الحال عن الاصطناع بماله فقد عدم من آلة المكارم عمادها وفقد من شروط المروة سنادها فليواس بنفسه مواساة المساعف وليسعد به اسعاد من تالف كما قال المتنبي

فليسعد النطق ان لم يسعد الحال

وان كان لا يراها وان اجهدها الا تبعا للمفضلين قليله بين المكثرين فان الناس لا يساوون بين المعطي والمانع ولا يغنيهم القول دون الفعل ولا يغنيهم الكلام عن المال ويرونه كالصدى الذي ان ردّ صوتا لم يجد نفعا قال الشاعر

تجود بالوعد ولكنه ... يدهن من قارورة فارغه

وكل ما خرج عندهم عن المال كان فارغا وكل ما عدا الافضال به كان هينا وقد قدمنا من القول في شروط الافضال ما اقنع واما افضال الاستكفاف فلان ذا الفضل لا يعدم حاسد نعمة ومعاند فضيلة يعزيه الجهل باظهار عناده ويبعثه اللوم على البذاء بسفهه فان غفل عن استكفاف السفهاء واعرض عن استدفاع اهل البذاء وصار عرضه هدفا للمثالب وحاله

عرضة للنوائب وإذا استكفّ السفيه واستدفع البذيّ صان
عرضه وحمى نعمته وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه
قال ما وقى المرء به عرضه فهو صدقة وقالت عائشة رضوان
الله عليها ذبّوا بأموالكم عن أحسابكم وامتدح رجل الزهري
فأعطاه قميصه فقال له أتعطي على كلام الشيطان فقال
من ابتغاء الخير اتقاء الشر ولذلك قال النبي صلى الله عليه
وسلم من أراد برّ الوالدين فليعط الشعراء وهذا صحيح لأن
الشعر سائر يسير به ما تضمّن من مدح أو هجاء ولأجل ذلك
قيل لا تؤاخ شاعرا فإنه يمدحك بثمن ويهجوك مجانا ولاستكفاف
السفهاء بالإفضال شرطان أحدهما أن تخفيه حتى لا تنتشر
فيه مطامع السفهاء إلى اجتذابه بسبّه وإلى ماله بثلبه والثاني
أن يتطلب له في المجاملة وجها يجعله في الإفضال عليه سببا
لئلا يرى أنه قد أعطي على السفه ولأجل البذاء فيحثه
ذلك على زيادة السفه واستدامة البذاء واعلم أنك ما حييت
ملحوظ المحاسن محفوظ المساوي ثم من بعد ذلك حديث تنتشر
لا يرا فيك صديق ولا يحامي عنك شفيق ولكن أحسن حديث ينتشر
يكن سعيك في الناس مشكورا وأجرك عند الله مذخورا

فيتوصلوا

فقد روى زياد بن الجراح عن عمرو بن ميمون الأزدي قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم اغتنم خمسا قبل خمس شبابك
قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل
شغلك وحياتك قبل موتك فهذا ما اقتضاه هذا الفصل
من شروط المروءة وإن كان كل كتابنا هذا من شروطها وما
اتصل بحقوقها

الفصل الثامن في آداب منثورة

اعلم أن الآداب اختلافها بتنقل الأحوال وتغير العادات
لا يمكن استيعابها ولا يقدر على حصرها وإنما يذكر كل إنسان
ما بلغه الوسع من آداب زمانه واستحسن بالعرف من عادات
دهره ولو أمكن ذلك لكان الأول قد أغنى الثاني عنها والمتقدم
قد كفى المتأخر تكلفها وإنما حظ الأخير أن يعاني حفظ الشارد
وجمع المتفرق ثم يعرض ما تقدم على حكم زمانه وعادات وقته
فيثبت ما كان موافقا وينفي ما كان مخالفا ثم يستمد خاطره في
استنباط زيادة واستخراج فائدة فإن أسعف بشيء فاز بدركه
وحظي بفضيلته ثم يعبر عن ذلك كله بما كان مألوفا من كلام
الوقت وعرف أهله فإن لأهل كل وقت في الكلام عادة تؤلف
وعبارة تعرف ليكون أوقع في النفوس وأسبق إلى الأفهام ثم يرتب

ذلك على اوايله ومقدماته ويبنيه على اصوله وقواعده بحسب
ما يقتضيه الجنس فان لكل نوع من العلوم طريقة هي اوضح
مسلكا واسهل ماخذا فهذه خمس شروط هي حظ الاخير فيما
يعانيه وكذلك القول في كل تصنيف مستحدث ولولا ذلك لكان
تعاطي ما تقدم للاول عناء ضايعا وتكلفا مستهجنا وارجو ان
يمدنا التوفيق لتادية هذه الشروط ويشفعنا المعونة بتوفية
هذه الحقوق حتى نسلم من ذم التكليف ونبرا من عيب التقصير
وان كان اليسير مغفورا والخاطي معذورا فقد قيل من صنف
كتابا فقد استهدف فان احسن فقد استعطف وان اساء
فقد استقذف ❁ وقد مضت ابواب تضمنت فصولا رايت اتباعها
بما لم احب الاخلال به فمن ذلك حال الانسان في ماكله ومشربه
فان الداعي الى ذلك شيئان حاجة ماسة وشهوة باعثة
فاما الحاجة فتدعو الى ما سد الجوعة وسكن الظما وهذا
مندوب اليه شرعا وعقلا لما فيه من حفظ النفس وحراسة
الحواس ولذلك ورد الشرع بالنهي عن الوصال بين صوم اليومين
لانه يضعف ويميت عنه العقل وليس لمن منع نفسه قدر الحاجة
حظ من بر ولا نصيب من زهد لان ما حرمها من فعل الطاعات

خمسة

بالعجز والضعف اكثر ثوابا واعظم اجرا اذ ليس في ترك المباح
ثواب يفي بما يفوت من فعل الطاعات وانواع القرب ومن اخسر نفسه
ربحا موفورا او حرمها اجرا مذخورا كان زهده في الخير اقوى
من رغبته ومن لم يبق عليه من هذا التكليف الا الشهوة بوايقه
وتبعته • واما الشهوة فتتنوع نوعين احدهما شهوة في الاكثار
والزيادة والثاني شهوة في تناول الالوان الملذة فاما النوع
الاول وهو شهوة الزيادة على قدر الحاجة والاكثار على مقدار
الكفاية فهو ممنوع منه في العقل والشرع كما كان قدر الكفاية
مندوبا اليه بالعقل والشرع لان تناول ما زاد على الكفاية نهم
مضر وشره مضر • وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه
قال اياكم والبطنة فانها مفسدة للدين مورثة للسقم مكسلة
عن العبادة • وقد قال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه اذا كنت
بطنا فعد نفسك زمنا • وقال بعض البلغاء لا يسكن العلم معدة
ملئت طعاما • وقال آخر اقلل طعاما تحمد مناما • وقال
بعض الادباء الرغب لوم والنهم شوم • وقال بعض الحكماء اكبر
الدواء تقدير الغذاء • وقال بعض الشعراء ❁
❁ فكم من اكلة منعت اخاها • بلذة ساعة اكلات دهر ❁

وكم من طالب يسعى لامر ... وفيه هلاكه لو كان يدرى

روى ابو يزيد المزني عن عبد الرحمن بن المقنع قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى لم يخلق وعاء ملئ شرا
من بطن فان كان لا بد فاعلا فاجعلوا ثلثا للطعام وثلثا
للشراب وثلثا للريح وهو شهوة الاشياء الملذة ومنازعة
النفس لطلب الاشياء الشهية فمذاهب الناس في تمكين النفس
منها مختلفة فمنهم من يرى ان صرف النفس عنها اولى وقهرها
عن اتباع شهواتها احرى ليذل له قيادها ويهون عليه عنادها
لان تمكين النفس وما تهوى بطر يطغي واشر يردي لان شهواتها
غير متناهية فاذا اعطاها المراد من شهوة وقتها تعدتها
الى شهوات قد استجدتها فيصير الانسان اسير شهوات لا تنقضي
وعبد هوى لا ينتهي ومن كان بهذه الحال لم يرج له صلاح ولم يوجد
فيه فضل. وانشدت لابي الفتح البستي

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته ... لتطلب الربح مما فيه خسران
اقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فانت بالنفس لا بالجسم انسان

وللحذر من هذه الحال ما حكي ان ابا حازم كان يمر على الفاكهة
فيشتهيها فيقول موعدك الجنة. وقال آخرون تمكين النفس

من لذاتها اولى واعطاؤها ما اشتهت من المباحات احرى لما فيه
من ارتياح النفس بنيل شهواتها ونشاطها بادراك لذاتها فتنحسر
عنها ذلة المقهور وبلادة المغمور فلا يقصر عن درك ولا يبطئ في
نهضة ولا يكل عن استعانة. وقال آخرون بل توسطه الامرين
اولى لان في اعطائها كل شهواتها سلاطة والنفس السليطة معاندة
وفي منعها من جميع شهواتها بلادة والنفس البليدة عاجزة وفي منعها
عن البعض كفها عن السلاطة وفي تمكينها من البعض حسم لها
عن البلادة وهذا لعمري اشبه المذاهب بالسداد لان التوسط في
الامور احمد. واذ قد مضى الكلام في الماكول والمشروب فينبغي
ان نتبع بذكر الملبوس. واعلم ان الحاجة وان كانت الى الماكول والمشروب
ادعى فهي الى الملبوس ماسة وبها اليه فاقة لما في اللباس من حفظ
الجسد وستر العورة وحصول الزينة قال الله تعالى يا بني آدم قد
انزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير
فمعنى قوله قد انزلنا عليكم لباسا اي خلقنا لكم ما تلبسون من الثياب
يواري سوآتكم يستر عوراتكم وسميت العورة سوأة لانه يسوء صاحبها
انكشافها من جسده. وقوله وريشا فيه اربع تاويلات احدها
انه المال وهو قول مجاهد والثاني اللباس والعيش والنعيم

وهو قول ابن عباس والثالث انه المعاش وهو قول معبد الجهني
والرابع انه الجمال وهو قول عبد الرحمن بن زيد وقوله ولباس التقوى
فيه ستة اقاويل احدها ان لباس التقوى هو الايمان وهو قول
قتادة والسدي والثاني انه العمل الصالح وهو قول ابن عباس
والثالث انه السمت الحسن وهو قول عثمان بن عفان والرابع
هو خشية الله سبحانه وتعالى وهذا قول عروة بن الزبير
والخامس الحياء وهذا قول معبد الجهني والسادس
ستر العورة وهذا قول عبد الرحمن بن زيد. وقوله ذلك خير
فيه تاويلان احدهما ان ذلك راجع الى جميع ما تقدم من قوله
قد انزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى
ثم قال ذلك الذي ذكرته خير كله والثاني ان ذلك راجع الى لباس
التقوى ومعنى الكلام وان لباس التقوى خير من الرياش واللباس
وهذا قول قتادة والسدي فلما وصف الله تعالى حال اللباس
واخرجه مخرج الامتنان علم انه معونة منه لشدة الحاجة اليه
واذا كان كذلك ففي اللباس ثلاثة اشياء الاول دفع الاذى
والثاني ستر العورة والثالث الجمال والزينة واما دفع الاذى
فواجب بالعقل لان العقل يوجب دفع المضار واجتلاب المنافع

وقد قال الله سبحانه والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم
من الجبال اكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم
باسكم فاخبر بحالها ولم يامر بها اكتفاء بما يقتضيه العقل
واستغناء بما يبعث عليه الطبع ويعني بالظلال الشجر وبالاكنان
جمع كن وهو الموضع الذي يسكن فيه ويعني بقوله سرابيل تقيكم
ثياب القطن والكتان والصوف وبقوله سرابيل تقيكم باسكم
الدروع التي تقي الحرب. فان قيل فكيف قال تقيكم الحر ولم يذكر
البرد وقال وجعل لكم من الجبال اكنانا ولم يذكر السهل قيل عن
ذلك جوابان احدهما ان القوم كانوا اصحاب جبال وخيام فذكر
لهم الجبال وكانوا اصحاب حر دون برد فذكرهم نعمة الله عليهم
فيما هو مختص بهم وهذا قول عطاء والجواب الثاني انه اكتفى بذكر
احدهما عن ذكر الاخر اذ كان معلوما ان السرابيل التي تقي الحر
تقي ايضا البرد ومن اتخذ من الجبال اكنانا اتخذ من السهل
وهذا قول الجمهور. واما ستر العورة فقد اختلف الناس فيه
هل وجب بالعقل او بالشرع فقالت طايفة وجب سترها بالعقل
لما في ظهورها من القبيح وما كان قبيحا فالعقل مانع منه الا ترى
ان آدم وحواء لما اكلا من الشجرة التي نهيا عنها بدت لهما سوآتهما

اللباس وفي

وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة. تنبيها يعقولهما في ستر ما
رايا مستقبحا من سوآتهما لانهما لم يكونا قد كلفا ستر ما لم يبد لهما
ولا كلفا بعد ان بدت لهما وقبل سترهما وقالت طايفة اخرى بل
ستر العورة واجب بالشرع لانه بعض الجسد الذي لا يوجب
العقل ستر باقيه وانما اختصت بحكم شرعي فوجب ان يكون
ما يلزم من سترها حكما شرعيا وقد كانت قريش واكثر العرب
مع ما كانوا عليه من وفور العقل وصحة الالباب يطوفون بالبيت
عراة ويحرمون على نفوسهم اللحم والودك ويرون ذلك ابلغ في القربة
وانما القرب بما استحسنت في العقل حتى انزل الله يا بني آدم
خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا. يعني
بقوله خذوا زينتكم الثياب التي تستر عوراتكم وكلوا واشربوا ما
حرمتموه على انفسكم من اللحم والودك. وفي قوله ولا تسرفوا
تاويلان احدهما لا تسرفوا في التحريم وهذا قول السدي والثاني
لا تاكلوا حراما فانه اسراف وهذا قول عبد الرحمن بن زيد
فاوجب بهذه الآية ستر العورة بعد ان لم يكن العقل موجبا
له فدل ذلك على ان سترها وجب بالشرع دون العقل. واما
الجمال والزينة فهو مستحسن بالعرف والعادة من [illegible] توجبه

عقل او شرع وفي هذا النوع قد يقع التجاوز والتقصير
والتوسط المطلوب فيه معتبر من وجهين احدهما في صفة
الملبوس وكيفيته والثاني في جنسه وقيمته فاما صفته
فمعتبرة بالعرف من وجهين احدهما عرف البلاد فان لاهل
المشرق زيا مالوفا ولاهل المغرب زيا مالوفا وكذلك ما بينهما من
البلاد المختلفة عادات في اللباس مختلفة والثاني عرف الاجناس
فان للاجناد زيا مالوفا وللتجار زيا مالوفا وكذلك لمن سواهما
من الاجناس المختلفة عادات في اللباس مختلفة وانما اختلفت
عادات الناس في ملابسهم من هذين الوجهين ليكون اختلافهم
فيها سمة يتميزون بها وعلامة لا يخفون معها فان عدل احد
في لباسه عن عرف بلده وجنسه كان ذلك منه خرقا وحمقا
ولذلك قيل العري الفادح خير من الزي الفاضح واما
جنس الملبوس وقيمته فمعتبر من وجهين احدهما بالمكنة من
اليسار والاعسار فان للموسر في ذلك قدرا وللمعسر دونه
والثاني بالمنزلة والحال فان لذي المنزلة الرفيعة قدرا وللمنخفض
عند دونه ليتفاضلوا فيه على تفاضل احوالهم فيصيروا به متميزين

فان عدل الموسر الى زي المعسر كان شحا وبخلا وان عدل
الرفيع الى زي الدني كان شحا ومهانة وذلا وان عدل المعسر
الى زي الموسر كان تبذيرا وسرفا وان عدل الدني الى زي
الرفيع كان جهلا وتخلفا ولزوم العرف المعهود واعتبار
الحد المقصود ادل على العقل وامنع من الذم ولذلك قال
عمر بن الخطاب رضي الله عنه اياكم ولبستين لبسة مشهورة
ولبسة محقورة وقال بعض الحكماء البس من الثياب
ما لا يزدريك فيه العظماء ولا يعيبه عليك العلماء وقال
ان العيون رمتك اذ فاجأتها وعليك من شهر الثياب لباس
اما الطعام فكل لنفسك ما تشا واجعل لباسك ما اشتهاه الناس
واعلم ان من المروة ان يكون الانسان معتدل الحال في مراعاة
لباسه من غير اكثار ولا اطراح فان اطراح مراعاتها وترك
تفقدها مهانة وذل وكثرة مراعاتها وصرف الهمة الى العناية
بها دناءة ونقص وربما توهم بعض من خلا من فضل وعري عن
تمييز ان ذلك هو المروة الكاملة والستيرة الفاضلة لما يرى
من تميزه بذلك عن الاكثرين وخروجه عن جملة العوام المسترذلين

وخفي عنه انه اذا تعدى طوره وتجاوز قدره كان اقبح لذكره وابعث
على ذمه وكان كما قال المتنبي
لا تعجبن مضيما حسن بزته وهل يروق دفينا جودة الكفن
حكى المبرد ان رجلا من قريش كان اذا اتسع لبس ارث ثيابه واذا
ضاق لبس احسنها فقيل له في ذلك فقال اذا اتسعت تزينت بالجود
واذا ضقت فبالهيبة وقد اتى ابن الرومي بابلغ من هذا المعنى في شعره فقال
وما الحلي الا زينة لنقيصة يتمم من حسن اذا الحسن قصرا
فاما اذا كان الجمال موفرا كحسنك لم يحتج الى ان يزورا
ولذلك قالت الحكماء ليس العز في حسن البزة وقال بعض الشعراء
وترى سفيه القوم يدنس عرضه سفها ويمسح نعله وشراكها
واذا اسند كلفه بمراعاة لباسه قطعه ذلك عن مراعاة نفسه وصار
الملبوس عنده انفس وعلى مراعاته احرص وقد قيل في منثور الحكم
البس من الثياب ما يخدمك ولا يستخدمك وقال خالد بن صفوان
لاياس بن معاوية اراك لا تبالي ما لبست قال البس ثوبا اقي به
نفسي احب الي من ان لبس ثوبا اقيه بنفسي وكما انه لا يكون شديد الكلف
بها فكذا لا يكون شديد الاطراح لها فقد حكي عن عائشة رضي الله عنها
ان رجلا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فنظر اليه رث الهيئة

فقال له ما مالك نقد من كل مال قد آتاني الله تعالى قال فان
الله يحب اذا انعم على امرئ بنعمة ان ينظر عليه اثرها
وقيل المروة الظاهرة في الثياب الطاهرة وهكذى
في غلمانه وحشمه ان اشتد كلفه بهم صار عليهم قيما ولهم خادما
وان اطرحهم قل رشادهم وظهر فسادهم وصاروا سببا لمقته
وطريقا الى ذمه وليكن يكفهم عن سيء الاخلاق ويأخذهم
باحسن الاداب • كما قال فيهم الشاعر

سهل الفناء اذا مررت ببابه ... طلق اليدين مؤدب الخدام

وليكن في تفقد احوالهم على ما يحفظ تجمله ويصون تبذله فقد
روي عن النبي عليه السلم انه قال ادهنوا يذهب البؤس
عنكم والبسوا تظهر نعمة الله عليكم واحسنوا الى مماليككم
فانه اكبت لعدوكم وليتوسط فيهم حالتي اللين والخشونة
فانه ان لان هان وان خشن مقتوه وكان على خطر منهم
حكي ان الموبذ سمع ضحك الخدم في مجلس انوشروان
فقال له اما تمنع هؤلاء الغلمان فقال انوشروان انما
يهابنا اعداؤنا وقال ابو تمام الطائي

حشم الصديق عيونهم بحاثة ... لصديقه عن صدقه ونفاقه
فلينظرن المرء من غلمانه ... فبهم خلائقه على اخلاقه

واعلم ان للنفس حالتين حالة استراحة ان حرمتها اياه كلت
وحالة تصرف ان ادمتها فيه اختلت فالاولى بالانسان تقدير
حالتيه حالة نومه ودعته وحالة تصرفه ويقظته فان لهما
قدرا محدودا وزمانا مخصوصا يضر مجاوزة حديهما وتغير
زمانيهما وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
نومة الضحى معجزة مبخرة مكسلة مورمة منساة للحاجة
وقال عبد الله بن العباس النوم ثلثة نومة خرق وهي الضحية
ونومة خلق وهي القايلة ونومة حمق وهي العشاء بل قد روى
محمد بن يزداد عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم نوم الضحى خرق والقيلولة خلق
ونوم العشاء حمق وقيل في منثور الحكم من لزم الرقاد
عدم المراد فاذا اعطى النفس حقها من النوم والدعة واستوفى
حقه منها بالتصرف واليقظة خلص بالاستراحة من عجزها
وكلالها وسلم بالرياضة من بلادتها وفسادها حكي ان

بالنفس

ان عبد الله بن عمر بن عبد العزيز دخل على ابيه فوجده نايما
فقال له يا ابت تنام والناس بالباب فقال يا بني نفسي مطيتي
واكره ان اتعبها فتقوم بي فينبغي ان يقسم حال تصرفه وتيقظه
على المهم في حاجاته فان حال الانسان لا تزمه والزمان يقصر
عن استيعاب المهم فكيف به الى ان تجاوز الى ما ليس بمهم هل
يكون الا كتاركة بيضها بالعراء وملبسة بيض اخرى جناحا
ثم عليه ان يتصفح في ليله ما صدر من افعال نهاره فان
الليل اخطر للخاطر واجمع للفكر فان كان محمودا امضاه
واتبعه بما يشاكله ويضاهيه وان كان مذموما استدركه
ان امكن وانتهى عن مثله في المستقبل فانه اذا فعل ذلك وجد
افعاله لا تنفك من اربعة احوال اما ان يكون قد اصاب فيها
الغرض المقصود بها او يكون قد اخطا فيها فوضعها في غير
مواضعها او يكون قد قصر فيها فنقصت عن حدودها
او يكون قد زاد فيها حتى تجاوزت بحدودها وهذا التصفح انما
هو استظهار بعد تقديم الفكر قبل الفعل ليعلم به مواضع
الاصابة ويتنبه به استدراك الخطا وقد قيل من كثر اعتباره
قل عثاره وكما يتصفح احوال نفسه فكذلك يجب ان يتصفح افعال
غيره فربما كان استدراك الصواب منها اسهل لسلامة النفس
من شبهة الهوى وخلو الخاطر من حسن الظن فان ظفر بصواب
وجده من غيره او بحجة جميل من فعله زين نفسه بالعمل فان
السعيد من تصفح افعال غيره فاقتدى باحسنها وانتهى عن
سيئها وقد روى زيد بن خالد الجهني عن النبي صلى الله عليه
وسلم انه قال السعيد من وعظ بغيره وقال الشاعر

ان السعيد له من غيره عظة وفي التجارب تحكيم ومعتبر

وانشدني بعض اهل العلم لطاهر بن الحسين

اذا اعجبتك خصال امرئ فكنه تكن مثل ما يعجبك
فليس على المجد والمكرمات اذا جئتها حاجب يحجبك

فاما ما يرويه من اعماله ويؤثر الاقدام عليه من مطالبه فيجب ان
يقدم الفكر فيه قبل دخوله فان كان الرجاء فيه اغلب من الاياس
منه وحمدت العاقبة فيه سلكه من اسهل مطالبه والطف جهاته
وبقدر شرفه يكون الاقدام وان كان الاياس اغلب عليه من الرجاء
مع شدة التغرير ودناءة الامر المطلوب فليحذر ان يكون متعرضا

فقد روي عن النبي عليه السلم انه قال اذا هممت بامر ففكر في عاقبته فان كان رشدا فامضه وان كان غيا فانته عنه وقالت الحكماء طلب ما لا يدرك عجز. وقال بعض الشعراء

فاياك والامر الذي ان توسعت * موارده ضاقت عليك المصادر

فما حسن ان يعذر المرء نفسه * وليس له من سائر الناس عاذر

وليعلم ان لكل حين من ايام عمره خلقا وفي كل وقت من اوقات دهره عملا فان تخلق في كبره باخلاق الصغر وتعاطى افعال الفكاهة والبطر استصغره من هو اصغر وحقره من هو اقل واحقر وكان كالمثل المضروب بقول الشاعر

وكل بان يهشه هرم * نخرا على راسه العصا قبر

كن ايها العاقل مقبلا على شانك راضيا عن زمانك سلما لاهل دهرك جاريا على عادة عصرك منقادا لمن قدمه الناس عليك متحننا على من قدمك الناس عليه ولا تباينهم بالعزلة عنهم فيمقتوك ولا تجاهرهم بالمخالفة لهم فيعادوك فلا عيش لممقوت ولا راحة لمعادي. انشد بعض اهل الادب

اذا اجتمع الناس في واحد * وخالفتهم في الرضا واحد

لمعادي

فقد دل اجماعهم دونه * على عقله انه فاسد

اجعل نصح نفسك غنيمة عقلك ولا تداهنها باخفاء عيبك واظهار عذرك فيصير عدوك احظى منك في زجر نفسه بانكارك وبجاهرتك من نفسك التي هي اخص بك لاغرابك لها باعذارك ومسامحتك فحسبك سوءا برجل ينفع عدوه ويضر نفسه. وقال بعض الحكماء اصلح نفسك لنفسك يكن الناس تبعا لك. وقال بعض البلغاء من اصلح نفسه ارغم انف اعاديه ومن اعمل جده بلغ كنه امانيه. وقال بعض الادباء من عرف معايبه فلا يلم من عابه. وانشد ابو ثابت النحوي لبعض الشعراء

ومصروفة عيناه عن عيب نفسه * ولو بان عيب من اخيه لابصرا

ولو كان ذا الانسان ينصف نفسه * لامسك عن عيب الصديق وقصرا

فهذب ايها العاقل نفسك لانكار عيوبك وانفعها كنفعك فان من لم يكن له من نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ. اعاننا الله واياكم على القول بالعمل وعلى النصح بالقبول

انه خير مسؤول واكرم مامول

وولي الاعانة والتوفيق

والحمد لولي الحمد

الجاهل

المحروم منهم بطرف شامت ولا تصد المجدود منهم باسنان عاتب
فلذلك ظن المرزوق ان الفقر والضيق تختص بالعلم والعقل دون
الجهل والحمق ولو فتشت احوال العلماء والعقلاء مع قلتهم لوجدت
الاقبال في اكثرهم ولو خبرت امور الجهال والحمقى مع كثرتهم لوجدت
الحرمان في اكثرهم وانما يصير ذو الحال الواسعة منهم ملحوظا
مشتهرا لان حظه عجيب واقباله مستغرب كما ان حرمان العالم
العاقل غريب واقباله عجيب ولم يزل الناس على سالف الدهر من
مثل ذلك متعجبين وبه معتبرين حتى قيل لبزرجمهر ما اعجب الاشياء
قال نجح الجاهل واكداء العاقل لكن الرزق بالجد والحظ لا بالعلم
والعقل حكمة منه تعالى يدل على قدرته واجراء الامور على مشيئته
وقد قال بعض الحكماء لو جرت الاقسام على قدر العقول لم تعش البهائم فنظمه

ابو تمام الطائي فقال

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل ويكدي الفتى في دهره وهو عالم
ولو كانت الارزاق تجري على الحجى هلكن اذا من جهلهن البهائم

وقال كعب بن زهير بن ابي سلمى

لو كنت اعجب من شيء لاعجبني سعي الفتى وهو مخبوء له القدر
يسعى الفتى لامور ليس يدركها والنفس واحدة والهم منتشر

على ان العلم والعقل سعادة واقبال وان قلت معهما المال وضاقت
معهما الحال والجهل والحمق حرمان وادبار وان كثرت معهما المال
واتسعت فيهما الحال لان السعادة ليست بكثرة المال فكم من مكثر
شقي ومقل سعيد وكيف يكون الجاهل الغني سعيدا والجهل يضعه
ام كيف يكون العالم الفقير شقيا والعلم يرفعه وقد قيل في منثور
الحكم كم من ذليل اعزه علمه ومن عزيز اذله جهله وقال
عبد الله بن المعتز نعمة الجاهل كروضة على مزبلة وقال
بعض الحكماء كلما حسنت نعمة الجاهل ازداد فيها قبحا وقال
بعض العلماء لبنيه يا بني تعلموا العلم وان لم تنالوا به من الدنيا
حظا فلان يذم الزمان لكم احب الي من ان يذم الزمان بكم وقال
بعض العلماء من لم يفد بالعلم مالا اكتسب به جمالا وانشد بعض اهل
الادب لابن طباطبا

حسود مريض القلب يخفي انينه ويضحي كئيب البال عندي حزينه
يلوم على ان رحت في العلم راغبا اجمع من عند الرواة فنونه
واعرف ابكار الكلام وعونه واحفظ مما استفيد عيونه
ويزعم ان العلم لا يجلب الغنى ويحسن بالجهل الذميم ظنونه
فيا لائمي دعني اغالي بقيمتي فقيمة كل الناس ما يحسنونه

وانا استعيذ بالله من خدع الجهل المذلة وبوادر الحمق المضلة واساله السعادة بعقل رادع يستقيم به من زل وعلم نافع يستهدي به من ضل فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا استرذل الله عبدا حظر عليه العلم فينبغي لمن زهد في العلم ان يكون فيه راغبا ولمن رغب فيه ان يكون له طالبا ولمن طلبه ان يكون منه مستكثرا ولمن استكثر منه ان يكون به عاملا ولا يطلب لتركه احتجاجا ولا للتقصير فيه عذرا فقد قال الشاعر

فلا تعذراني في الاساءة انه شرار رجال من يسي فيعذر

ولا يسوف نفسه بالمواعيد الكاذبة ويمنيها بانقطاع الاشغال المتصلة فان لكل وقت شغلا وفي كل زمان عذرا وقال الشاعر

نروح ونغدو لحاجاتنا وحاجة من عاش لا تنقضي

وليقصد طلب العلم واثقا بتيسير الله قاصدا وجه الله بنية خالصة وعزيمة صادقة فقد روي عن النبي عليه السلم انه قال من تعلم علما لغير الله او اراد به غير الله فليتبوا مقعده من النار وروى ابو هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعلموا العلم قبل ان يرفع ورفعه ذهاب اهله فان احدكم لا يدري متى يحتاج اليه او متى يحتاج الى ما عنده وليحذر ان يطلبه لمراة او رياء

للمماراة

فان المماري به محجور لا ينتفع والمرائي به محقور لا يرتفع وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا تعلموا العلم لتماروا به السفهاء ولا تعلموا العلم لتجادلوا به العلماء فمن فعل ذلك منكم فالنار النار وليس المماري به هو المناظر فيه طلبا للصواب منه ولكنه القاصد لرفع ما يرد عليه من فاسد او صحيح وفيهم جاءت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لا تجادل الا منافق او مرتاب وقال الاوزاعي اذا اراد الله بقوم شرا اعطاهم الجدل ومنعهم العمل انشد الرياشي لمصعب بن عبد الله

اجادل كل معترض خصيم واجعل دينه غرضا لديني

واترك ما علمت لراي غيري وليس الراي كالعلم اليقين

وما انا والخصومة وهي شي يصرف في الشمال وفي اليمين

فاما ما علمت فقد كفاني واما ما جهلت فجنبوني

وقد بين ذلك بعض العلماء فقال لصاحبه لا يمنعك حذر المراء من حسن المناظرة فان المماري هو الذي لا يريد ان يتعلم منه احد ولا يرجو ان يتعلم من احد واعلم ان لكل مطلوب باعثا والباعث على المطالب شيئان رغبة او رهبة فليكن طالب العلم راغبا راهبا اما الرغبة ففي ثواب الله تعالى لطالبي مرضاته وحافظي مفترضاته واما الرهبة

فمن عقاب الله تعالى لتاركي اوامره ومهملي زواجره فاذا اجتمعت
الرغبة والرهبة الرغبة في ثواب الله والرهبة من عقاب الله ادتا الى
كنه العلم وحقيقة الزهد لان الرغبة اقوى الباعثين على العلم والرهبة
اقوى السببين في الزهد • وقد قالت الحكماء اصل العلم الرغبة وثمرته
السعادة واصل الزهد الرهبة وثمرته العبادة فاذا اقترن الزهد
والعلم فقد تمت السعادة وعمت الفضيلة وان افترقا فيا ويح مفترقين
ما اضر افتراقهما واقبح انفرادهما • وقد روي عن النبي صلى الله عليه
انه قال من ازداد في العلم رشدا فلم يزدد في الدنيا زهدا لم يزدد من
الله الا بعدا • وقال مالك بن دينار رحمة الله عليه من لم يؤت من
العلم ما يقمعه فما اوتي من العلم لا ينفعه • وقد قال بعض الحكماء
الفقيه بغير ورع كالسراج يضيء البيت ويحرق نفسه • فصل
واعلم ان للعلوم اوايل تؤدي الى اواخرها ومداخل تفضي الى حقايقها
فليبتدي طالب العلم باوايلها لينتهي الى اواخرها وبمداخلها ليفضي
الى حقايقها ولا يطلب الاخر قبل الاول ولا الحقيقة قبل المدخل
فلا يدرك الاخر ولا يعرف الحقيقة لان البناء على غير اس لا يبنى
والثمر من غير غرس لا يجنى وكذلك اسباب فاسدة ودواع واهية
فمنها ان تكون في النفس اغراض تختص بنوع من العلم فيدعوه الغرض

الى قصد ذلك النوع ويعدل عن مقدماته كرجل يؤثر القضاء ويتصدى
للحكم فيقصد من علم الفقه الى ادب القاضي وما يتعلق عليه من الدعوى
والبينات او يحب الارتسام بالشهادة فيتعلم كتاب الشهادات
لئلا يصير موسوما بجهل ما يعاني فاذا ادرك ذلك ظن انه قد حاز
من العلم جمهوره وادرك منه مشهوره فلم ير ما بقي منه الا غامضا
طلبه عناء وعويصا استخراجه فيقتصر لقصور همته على ما ادرك وانصرافها
عما ترك ولو نصح نفسه لعلم ان ما ترك اهم مما ادرك لان بعض العلوم
مرتبط ببعض ولكل باب منه تعلق بما قبله فلا يقوم الاواخر
الا باوايلها وقد يصح قيام الاوايل بانفسها فيصير طلب الاواخر
بترك الاوايل تركا للاواخر والاوايل فاذا ليس يعرى من لوم وان كان
تارك الكل الوم • ومنها ان يحب الاشتهار بالعلم اما لتكسب او لتجمل
فيقصد من العلم ما يشتهر به من مسايل الجدل وطريق النظر ويتعاطى
علم ما اختلف فيه دون ما اتفق عليه ليناظر على الخلاف وهو لا
يعرف الوفاق ويجادل الخصوم وهو يجهل مذهبه خصوص • ولقد
رايت من هذه الطبقة عددا قد تحققوا العلم تحقق المتكلفين
واشتهروا به اشتهار المتحزبين اذا اخذوا في مناظرة الخصوم
ظهر كلامهم واذا سئلوا عن واضح مذهبهم ضلت افهامهم حتى انهم

عناء

ليتخبطوا في الجواب خبط عشواء فلا يظهر لهم صواب ولا يستقر لهم جواب
ثم لا يرون ذلك نقصا إذا نمقوا في المجالس كلاما موصوفا ولفقوا على
المخالف حجاجا مألوفا وقد جهلوا من المذهب ما يعلمه المبتدئ
ويتداوله الناشئ فهم دائما في لغط مضل أو غلط مزل ورأيت قوما
منهم يرون الاشتغال بالمذهب تكلفا والاستكثار منه تخلفا وحاجني
بعضهم عليه فقال كيف يكون علم حافظ المذهب مستورا وهو سريع
الجواب كثير الصواب فقال لأنه إن لم يسأل سكت ولم يعرف والمناظر
إن لم يسأل سأل ليعرف فقلت أليس إذا سئل الحافظ فأصاب بان
فضله قال نعم قلت أفليس إذا سئل المناظر فأخطأ بان نقصه وقد
قيل عند الامتحان يكرم الرجل أو يهان فأمسك عن جوابي لأنه إن
أنكر كابر المعقول ولو اعترف لزمته الحجة والإمساك إذعان والسكوت
رضى ولأن ينقاد إلى الحق أولى من أن يستنفر الباطل وهذه طريقة
من يقول اعرفوني وهو غير عروف ولا معروف بعيد ممن لا يعرف
العلم أن يعرفه وقد قال زهير

ومهما تكن عند امرئ من خليقة ... ولو خالها تخفى على الناس تعلم

ومن أسباب التقصير أيضا أن يغفل عن التعليم في الصغر ثم يشتغل به
في الكبر فيستحيي أن يبتدئ بما يبتدئ به الصغير ويستنكف أن يساويه

الحدث الغرير فيبدأ بأواخر العلوم وأطرافها ويهتم بحواشيها
وأكنافها ليتقدم على الصغير المبتدئ ويساوي الكبير المنتهي
وهذا ممن قد رضي بخداع نفسه وقنع بمداهنة حسه لأن معقوله
إن أحس ومعقول كل ذي حس يشهد بفساد هذا التصور وينطق
باختلال هذا التخيل لأنه شيء لا يتقوم في وهم وجهل ما يبتدئ به
المتعلم أقبح من جهل ما ينتهي إليه العالم وقد قال الشاعر

ترق إلى صغير الأمر حتى ... يرقيك الصغير إلى الكبير
فتعرف بالتفكر في صغير ... كبيرا بعد معرفة الصغير

ولهذا المعنى وأشباهه كان التعلم في الصغر أحمد روى مروان
ابن سالم عن إسمعيل بن أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم مثل الذي يتعلم في صغره كالنقش على الصخر والذي يتعلم في كبره
كالذي يكتب على الماء وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قلب الحدث
كالأراضي الخالية ما ألقي فيها من شيء قبلته وإنما كان ذلك لأن
الصغير أفرغ قلبا وأقل شغلا وأيسر تبذلا وأكثر تواضعا وقد
قيل في منثور الحكم المتواضع من طلاب العلم أكثرهم علما كما أن المكان
المنخفض أكثر البقاع ماء فأما أن يكون الصغير أضبط من الكبير
إذا عري من هذه الموانع وأوعى منه إذا خلا من هذه القواطع فلا

حكي ان الاحنف بن قيس سمع رجلاً يقول التعلم في الصغر كالنقش في الحجر فقال الاحنف الكبير اكثر عقلاً منه ولكنه اشغل قلباً ولعمري قد فحص الاحنف عن المعنى ونبه على العلة لان قواطع الكبير كثيرة فمنها ما ذكرنا من الاستحياء وقد قيل في منثور الحكم من رق وجهه رق علمه. وقال الخليل بن احمد ترتع الجهل بين الحياء والكبر في العلم ومنها وفور شهواته وتقسم افكاره. وقد قال الشاعر

صرف الهوى عن ذي عزيز ان الهوى ليس له تمييز

الهوى

وقال بعض البلغاء القلب اذا علق كالرهن اذا غلق ومنها الطوارق المزعجة والهموم المذهلة وقيل في منثور الحكم الهم قيد الحواس وقال بعض البلغاء من بلغ اشده لاقى من العيش اشده ومنها كثرة اشتغاله وترادف احواله حتى انها تستوعب زمانه وتستنفد ايامه ولذلك قيل تفقهوا قبل ان تسودوا. وقال بزرجمهر الشغل مجهدة والفراغ مفسدة. فينبغي لطالب العلم ان لا يني في طلبه وينتهز الفرصة به فربما شح الزمان بما سمح وضن بما منح ويبتدئ العلم باوائله ويأتيه من مدخله ولا يتشاغل بطلب ما لا يضر جهله فيمنعه ذلك من ادراك ما لا يسع جهله فان لكل علم فصولاً مذهلة وشذوذاً مشغلة ان صرف اليها نفسه قطعته عما هو اهم منها وقد قال ابن عباس رضي الله

العلم اكثر من ان يحصى فخذوا من كل شي احسنه. وقال المامون ما لم يكن من العلم بارعاً فبطون الصحف اولى به من قلوب الرجال. وقال بعض الحكماء بترك ما لا يعنيك يتم لك ما يعنيك. ولا ينبغي ان يدعوه ذلك الى ترك ما استصعب عليه اشعاراً للنفس ان ذلك من فضول علمه واعذاراً لها في ترك الاشتغال به فان ذلك مطية النوكى وعذر المقصرين. ومن اخذ من العلم ما تسهل وترك ما تعذر كان كالقانص اذا امتنع عليه الصيد تركه فلا يرجع الى الاخايبا اذ ليس يرى الصيد الا ممتنعاً كذلك العلم طلبه صعب على من جهله سهل على من علمه لان معانيه التي يتوصل اليها مستودعة في كلام مترجم عنها وكل كلام مستعمل فهو يجمع لفظاً مسموعاً ومعنى مفهوماً فاللفظ كلام يعقل بالسمع والمعنى تحت اللفظ يفهم بالقلب. وقد قال بعض الحكماء العلوم مطالعها من ثلثة اوجه قلب مفكر ولسان معبر وبيان مصور فاذا عقل الكلام بسمعه فهم معانيه بقلبه واذا فهم المعاني سقطت عنه كلف استخراجها وبقي عليه معاناة حفظها واستقرارها لان المعاني شوارد تضل بالاغفال والعلوم وحشية تنفر بالارسال فاذا حفظها بعد الفهم ثبتت واذا ذكرها بعد الانس رست. وقال

بعض الحكماء: من أكثر المذاكرة بالعلم لم ينس ما علم واستفاد ما
لم يعلم. وقال الشاعر:

إذا لم يذاكر ذو العلوم بعلمه ... ولم يستفد علماً نسي ما تعلما
فكم جامع للكتب من كل مذهب ... يزيد مع الأيام في جمعه عمى

وإن لم يفهم معاني ما سمع كشف عن السبب المانع منها ليعلم العلة
في تعذر فهمها فإن بمعرفة أسباب الأشياء وعللها يصل إلى تلافي
ما شذ وصلاح ما فسد. فليس يخلو السبب المانع من ذلك من ثلاثة
أقسام: إما أن يكون لعلة في الكلام المترجم، وإما أن يكون لعلة في
المعنى المستودع، وإما أن يكون لعلة في السامع المستخرج. فإن كان
السبب المانع من فهمها لعلة في الكلام المترجم عنها لم يخل ذلك من
ثلاثة أحوال: أحدها أن يكون لتقصير اللفظ عن المعنى فيصير تقصير
اللفظ عن ذلك المعنى سبباً مانعاً من فهم ذلك المعنى وهذا قد يكون
من أحد وجهين: إما من حصر المتكلم وعيه وإما من بلادته وقلة فهمه.
والحال الثانية أن يكون لزيادة اللفظ على المعنى فيصير الزيادة علة
مانعة من فهم المقصود منه وهذا قد يكون من أحد وجهين: إما من
هذر المتكلم وإكثاره وإما لسوء ظنه بفهم سامعه. والحال الثالثة
أن يكون لمواضعة يقصدها المتكلم بكلامه فإذا لم يعرفها السامع

لم يفهم معانيها. فأما تقصير اللفظ وزيادته فمن الأسباب الخاصة
دون العامة لأنك لست تجد ذلك عاماً في كل كلام وإنما تجده في
بعضه، فإن عدلت عن الكلام المقصر إلى المستوفي وعن الزائد إلى
الكافي أرحت نفسك من كلف ما يكد خاطرك، وإن أقمت على
استخراجه إما لضرورة دعتك إليه عند إعواز غيره أو لحمية داخلتك
عند تعذر فهمه فانظر في سبب الزيادة والتقصير فإن كان التقصير
لحصر والزيادة لهذر سهل عليك استخراج المعنى منه لأن ما له
من الكلام محصول لا يجوز أن يكون المختل منه أكثر من الصحيح وفي الأكثر
على الأقل دليل. وإن كانت زيادة اللفظ على المعنى لسوء ظن المتكلم
بفهم السامع كان استخراجه أسهل وإن كان تقصير اللفظ عن
المعنى لسوء فهم المتكلم فهو أصعب الأمور حالاً وأبعدها استخراجاً
لأن ما لم يفهمه متكلمه فأنت من فهمه أبعد إلا أن يكون بفرط
ذكائك وجودة خاطرك تتنبه بإشارته على استنباط ما عجز
عنه واستخراج ما قصر فيه فتكون فضيلة الاستيفاء لك وحق
التقدم له. وأما المواضعة فضربان: عامة وخاصة. فأما العامة
فهي مواضعة العلماء فيما جعلوه ألقاباً لمعان لا يستغني المتعلم
عنها ولا يقف على معنى كلامهم إلا بها كما جعل المتكلمون الجواهر

فهي قواعدها وإن تفرعت وهي دين متبع وسلطان قاهر وعدل
شامل وأمن عام وخصب دار وأمل فسيح فأما القاعدة الأولى
وهي الدين المتبع فلأنه يصرف النفوس عن شهواتها ويعطف القلوب
عن إراداتها حتى يصير قاهرا للسرائر زاجرا للضمائر رقيبا على
النفوس في خلواتها نصوحا لها في ملماتها وهذه أمور لا يوصل
بغير الدين إليها ولا يصلح الناس إلا عليها فكان الدين أقوى قاعدة
في صلاح الدنيا واستقامتها وأجدى الأمور نفعا في انتظامها
وسلامتها ولذلك لم يخل الله تعالى خلقه مذ فطرهم عقلاء من تكليف
شرعي واعتقاد دين ينقادون لحكمه فلا تختلف بهم الآراء و
يستسلمون لأمره فلا تتفرق بهم الأهواء وإنما العقل ثم تعقبه
الشرع فقالت طائفة جاء العقل والشرع معا مجتمعا واحدا
لم يسبق أحدهما صاحبه وقالت طائفة أخرى بل سبق العقل
ثم تعقبه الشرع لأن بكمال العقل يستدل على صحة الشرع
وقد قال الله عز وجل أيحسب الإنسان أن يترك سدى
وذلك لا يوجد منه إلا عند كمال عقله فثبت أن الدين من أقوى
القواعد في صلاح الدنيا وهو الفرد الأوحد في صلاح الآخرة
وما كان به صلاح الدنيا والآخرة فحقيق بالعاقل أن يكون به

متمسكا وعليه محافظا وقد قال بعض الحكماء الأدب أدبان
أدب شريعة وأدب سياسة فأدب الشريعة ما أدى الفرض
وأدب السياسة ما عمر الأرض وكلاهما يرجع إلى العدل
الذي به سلامة السلطان وعمارة البلدان لأن من ترك
الفرض فقد ظلم نفسه ومن خرب الأرض فقد ظلم غيره وقال سعيد بن حميد
ما صحة أبداننا بنافعة حتى يصح الدين والخلق
فأما القاعدة الثانية فهي سلطان قاهر تتألف برهبته الأهواء
المختلفة وتجتمع بهيبته القلوب المتفرقة وتنكف بسطوته الأيدي
المتغالبة وتنقمع من خوفه النفوس المتعادية لأن في طباع
الناس من حب المغالبة على ما آثروه والقهر لمن عاندوه
ما لا ينكفون عنه إلا بمانع قوي ورادع ملي وقد أفصح المتنبي بذلك حيث يقول
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم
والظلم من خلق النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم
وهذه العلة المانعة من الظلم لا تخلو من أحد أربعة أشياء
إما عقل زاجر أو دين حاجز أو سلطان رادع أو عجز صاد
وإذا تأملتها لم تجد خامسا يقترن بها ورهبة السلطان
أبلغها لأن العقل والدين ربما كانا مضعوفين أو بدواعي الهوى

مغلوبين فتكون رهبة السلطان أشد زجرا وأقوى ردعا وقد
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن السلطان ظل الله
في الأرض يأوي إليه كل مظلوم • وروي عنه صلى الله عليه وسلم
أنه قال إن الله ليزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن وروي
عنه عليه السلم أنه قال إن لله حراسا في السماء وحراسا في
الأرض فحراسه في السماء الملئكة وحراسه في الأرض الذين
يقبضون أرزاقهم ويذبون عن الناس • وروي عنه عليه السلم
أنه قال الإمام الجائر خير من الفتنة وكل لا خير فيه وفي بعض
الشر خيار • وقال عبد الله بن مسعود السلطان يفسد وما
يصلح الله به أكثر فإن عدل فله الأجر وعليكم الشكر وإن جار
فعليه الوزر وعليكم الصبر • وروى أبو هريرة رضي الله عنه
قال سبت العجم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهى عن
ذلك وقال لا تسبوها فإنها عمرت بلاد الله فعاش فيها عباد
الله • وقال بعض البلغاء السلطان في نفسه إمام متبوع
وفي سيرته دين مشروع فإن ظلم لم يعدل أحد في حكم وإن
عدل لم يجسر أحد على ظلم • وقال بعض الأدباء إن أقرب الدعوات
من الإجابة دعوة السلطان الصالح وأولى الحسنات بالأجر

قال

والثواب أمره ونهيه في وجوه المصالح فهذه آثار السلطان في
أحوال الدنيا وما تنتظم به أمورها ثم لما في السلطان من حراسة
الدين والذب عنه ودفع الأهواء منه وحراسة التبديل فيه
وزجر من شذ عنه بارتداد أو بغى فيه بعناد أو سعى فيه بفساد
وهذه أمور إن لم تنحسم عن الدين بسلطان قوي ورعاية وافية
أسرع فيه تبديل ذوي الأهواء وتحريف ذوي الآراء فليس دين
زال سلطانه إلا بدلت أحكامه وطمست أعلامه وكان لكل زعيم
فيه بدعة ولكل عصر في وهاية أثر كما أن السلطان إن لم يكن على
دين تجتمع به القلوب حتى يرى أهل الطاعة فيه فرضا والتناصر
عليه حتما لم يكن للسلطان لبث ولا لأيامه صفو وكان سلطان
قهر ومفسد دهر ومن هذين الوجهين وجب إقامة إمام
يكون سلطان الوقت وزعيم الأمة ليكون الدين محروسا بسلطانه
والسلطان جاريا على سنن الدين وأحكامه • وقد قال
عبد الله بن المعتز الملك بالدين يبقى والدين بالملك يقوى
واختلف الناس هل وجب ذلك بالعقل أو بالشرع فقالت
طائفة وجب بالعقل لأن معلوما من حال العقلاء على اختلافهم
الفزع إلى زعيم مندوب للنظر في مصالحهم • وذهب آخرون

إلى وجوبه بالشرع لأن المقصود بالإمام القيام بأمور شرعية
كإقامة الحدود واستيفاء الحقوق وقد كان يجوز الاستعفاء
عنها بأن لا يرد التعبد بها وبأن يجوز الاستعفاء عما لا يراد إلا
لها أولى وعلى هذا اختلفوا في وجوب بعثة الأنبياء فمن قال
بوجوب ذلك بالعقل قال بوجوب بعثة الأنبياء ومن قال
بوجوب ذلك بالشرع منع من وجوب بعثة الأنبياء لأنه لما
كان المقصود ببعثتهم تعريف المصالح الشرعية وكان يجوز
من المكلفين أن لا تكون هذه الأمور مصلحة لهم لم تجب بعثة
الأنبياء إليهم فأما إقامة إمامين وثلثة في عصر واحد
وبلد واحد فلا يجوز إجماعا فأما في بلدان شتى وأمصار متباعدة
فقد ذهبت طائفة شاذة إلى جواز ذلك لأن الإمام مندوب للمصالح
فإذا كانا اثنين في بلدين أو ناحيتين كان كل واحد منهما أقوم بما
في يديه وأضبط لما يليه ولأنه لما جازت بعثة نبيين في عصر
واحد ولم يؤد ذلك إلى إبطال النبوة كانت الإمامة أولى ولا
يؤدي ذلك إلى إبطال الإمامة وذهب الجمهور إلى أن إقامة إمامين
في عصر واحد لا يجوز شرعا لما روي عن النبي صلى الله عليه
وسلم أنه قال إذا بويع الأميران فاقتلوا أحدهما وروي فاقتلوا

أو

فاقتلوا

ضعيفا

الأخير منهما وروي عنه عليه السلم أنه قال إن وليتم أبا بكر
تجدوه في دين الله قويا في بدنه وإن وليتم عمر وجدتموه قويا
في دين الله قويا في بدنه وإن وليتم عليا تجدوه هاديا مهديا
فبين بظاهر هذا الكلام أن إقامة جميعهم في وقت واحد
لا يصح ولو صح لأشار إليه ونبه عليه والذي يلزم سلطان
الأمة من أمورها سبعة أشياء أحدها حفظ الدين من
تبديل فيه والحث على العمل به من غير إهمال له والثاني
حراسة البيضة والذب عن الأمة من عدو في دين أو باغي
نفس أو مال والثالث عمارة البلدان باعتماد مصالحها
وتهذيب سبلها ومسالكها والرابع تقدير ما يتولاه من الأموال
بسنن الدين من غير تحريف في أخذها وعطائها والخامس
معاناة المظالم والأحكام بالتسوية بين أهلها واعتماد
النصفة في فصلها والسادس إقامة الحدود على مستحقيها
من غير تجاوز فيها ولا تقصير عنها والسابع اختيار
خلفائه في الأمور أن يكونوا من أهل الكفاية فيها والإصابة
عليها وإذا فعل من أفضى إليه سلطان الأمة ما ذكرنا
من هذه الأشياء السبعة كان مؤديا لحق الله تعالى

فيهم مستوجبا لطاعتهم ومناصحتهم مستحقا للصدق في ميلهم
ومحبتهم وان قصر عنها ولم يقم بحقها وواجبها كان بها مؤاخذا
وعليها معاقبا ثم هو من الرعية على استبطان معصيته
ومقت يتربصون الفرص باظهارها ويتوقعون الدوائر
باعلانها وقد قال الله تعالى قل هو القادر على ان يبعث
عليكم عذابا من فوقكم او من تحت ارجلكم او يلبسكم شيعا
وفي قوله عذابا من فوقكم او من تحت ارجلكم تاويلان
احدهما ان العذاب الذي من فوقهم امراء السوء والذي
من تحتهم عبيد السوء وهذا قول ابن عباس والثاني
ان العذاب من فوقهم الرجم والذي من تحت ارجلهم الخسف
وهذا قول مجاهد وسعيد بن جبير وفي قوله او يلبسكم
شيعا تاويلان احدهما انه الاهواء المختلفة وهذا قول
ابن عباس والثاني انه الفتن والاختلاط وهذا قول ابن
مجاهد • وروي عن النبي عليه السلام انه قال ما من
امير على عشرة الا وهو يجيء يوم القيامة مغلولة يداه الى
عنقه حتى يكون عمله هو الذي يطلقه او يوبقه • وروي
عن النبي عليه السلم انه قال خير ائمتكم الذين تحبونهم

ويحبونكم وشرار ائمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم
ويلعنونكم وهذا صحيح لانه اذا كان ذا خير احبهم واحبوه
واذا كان ذا شر ابغضهم وابغضوه • وقد كتب عمر بن الخطاب
رضوان الله عليه الى سعد بن ابي وقاص ان الله تعالى اذا
احب عبدا حببه الى خلقه فاعرف منزلتك من الله تعالى
بمنزلتك من الناس • واعلم ان ما لك عند الله مثل ما لله عندك
وكان هذا موضحا للمعنى ما ذكرنا واصل هذا ان خشية
الله تبعث على طاعته في خلقه وطاعته في خلقه تبعثهم على محبته
فلذلك كانت محبتهم دليلا على خيره وخشيته وبغضهم دليلا
على شره وقلة مراقبته وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه
لبعض خلفائه اوصيك ان تخشى الله تعالى في الناس ولا تخشى
الناس في الله • قال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه لبعض
جلسائه اني اخاف الله تعالى فيما تقلدت قال لست اخاف
عليك ان تخاف وانما اخاف عليك ان لا تخاف وهذا
واضح لان الخائف من الله مامون الجنبة كالذي روي
عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال لابي مريم السلولي
وكان الذي قتل اخاه زيد بن الخطاب والله اني لا احبك

حتى تخضب الارض الدم قال فتمنعني بذلك حقا قال لا قال فلا صبر
اتما باسى على الحب النساء • وروى عبد الرحمن بن محمد قال اصدق
طلحة بن عبد الله ام كلثوم بنت ابى بكر مائة الف درهم وهو اول
من اصدق هذا القدر فمر بالمال على عمر بن الخطاب رضي الله عنه
فقال ما هذا فقالوا صداق ام كلثوم بنت ابى بكر قال ادخلوه بيت المال
فاخبر طلحة بذلك فقيل كلمه فقال ما انا بفاعل لئن كان عمر يرى له
فيه حقا لا يرده كلامي وان كان لا يرى فيه حقا ليرده قال فلما اصبح
عمر امر بالمال فدفع الى ام كلثوم • وحكى ان الرشيد حبس
ابا العتاهية فكتب على حائط الحبس

اما والله ان الظلم لؤم ... وما زال المسيء هو الظلوم
الى ديان يوم الدين نمضي ... وعند الله تجتمع الخصوم

فاخبر الرشيد بذلك فبكى بكاء شديدا ودعا ابا العتاهية فاستحله
ووهب له الف دينار واطلقه • واما القاعدة الثالثة وهي عدل
شامل يدعو الى الالفة ويبعث على الطاعة وتتعمر به الارض
وتنمي به الاموال ويكثر معه النسل ويامن به السلطان فقد
قال الهرمزان لعمر حين رآه وقد نام متبذلا عدلت فامنت
فنمت • وليس شيء اسرع في خراب الارض ولا افسد لضماير الخلق

وتنمو

من الجور لانه ليس يقف على حد ولا ينتهي الى غاية ولكل جزء منه
قسط من الفساد حتى يستكمل • وقد روى عن النبي صلى الله عليه
وسلم انه قال بئس الزاد الى المعاد العدوان على العباد • وقال
عليه السلم ثلث منجيات وثلث مهلكات فاما المنجيات فالعدل
في الغضب والرضا وخشية الله في السر والعلانية والقصد في
الغنى والفقر • واما المهلكات فشح مطاع وهوى متبع واعجاب
المرء بنفسه • وحكى ان الاسكندر قال لحكماء الهند وقد
راى قلة الشرايع بها لم صارت سنن بلادكم قليلة فقالوا لاعطائنا
الحق من انفسنا ولعدل ملوكنا فينا فقال لهم ايما افضل العدل
ام الشجاعة فقالوا اذا استعمل العدل استغني عن الشجاعة •
وقال بعض الحكماء بالعدل والانصاف تكون مدة الايتلاف
وقال بعض البلغاء ان العدل ميزان الله تعالى الذي وضعه
للخلق ونصبه للحق فلا تخالفه في ميزانه ولا تعارضه في سلطانه
واستعن بخلتين قلة الطمع وكثرة الورع واذا كان العدل من
احدى قواعد الدنيا التي لا انتظام لها الا به ولا صلاح فيها الا
معه وجب ان يبدا بعدل الانسان في نفسه ثم بعدله في غيره
فاما عدله في نفسه فيكون بحملها على المصالح وكفها عن القبايح

ثم بالوقوف بالحال على اعدل الامرين من تجاوز او تقصير فان التجاوز
بها جور والتقصير فيها ظلم ومن ظلم نفسه فهو لغيره اظلم ومن
جار عليها فهو على غيره اجور • وقد قال بعض الحكماء من توانى
في نفسه ضاع • واما عدله مع غيره فقد ينقسم حال الانسان
فيمن دونه كالسلطان مع رعيته والرئيس مع صحابته فعدله
فيهم يكون باربعة اشياء باتباع الميسور وحذف المعسور وترك
التسلط بالقوة وابتغاء الحق في السيرة فان اتباع الميسور
ادوم وحذف المعسور اسلم وترك التسلط اعطف على المحبة
وابتغاء الحق ابعث على النصرة وهذه امور ان لم تسلم للزعيم
المدبر منها كان الفساد بنظره اكثر والاختلال بتدبيره
اظهر • وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اشد
الناس يوم القيامة من اشركه الله في سلطانه فجار في حكمه
وقال بعض الحكماء الملك يبقى على الكفر ولا يبقى على الظلم
وقال بعض الادباء ليس للجابر جار ولا تعمر له دار • وقال
بعض البلغاء اقرب الاشياء صرعة الظلوم وانفذ السهام
دعوة المظلوم • وقال بعض حكماء الملوك العجب من ملك
استفسد رعيته وهو يعلم ان عزه بطاعتهم • وقال اردشير

عذابا

ابن بابك اذا رغب الملك عن العدل رغبت الرعية عن الطاعة
وعوتب انوشروان على ترك عقاب المذنبين فقال هم المرضى
ونحن الاطباء فاذا لم نداوهم بالعفو فمن لهم • والقسم الثاني
عدل الانسان مع من فوقه كالرعية مع سلطانها والصحابة
مع رئيسها فقد يكون بثلثة اشياء باخلاص الطاعة وبذل
النصرة وصدق الولاء فان اخلاص الطاعة اجمع للشمل
وبذل النصرة ادفع للوهن وصدق الولاء انفى لسوء الظن
وهذه امور ان لم تجتمع في المرء تسلط عليه من كان يدفع
عنه واضطر الى اتقاء من كان يتقيه كما قال البحتري

متى احوجت ذا كرم تخطى ❁ اليك ببعض افعال اللئيم ❁

وفي استمرار هذا حل نظام جامع وفساد صلاح شامل
وقد قال ابرويز اطع من فوقك يطعك من دونك • وقال
بعض الحكماء الظلم مسلبة النعم والبغي مجلبة النقم •
وقال بعض البلغاء ان الله تعالى لا يرضى خلقه الا بنا دينه
حقه شكر النعمة ونصح للامة وحسن الصنيعة ولزوم
الشريعة والقسم الثالث عدل الانسان مع اكفائه وقد
يكون بثلثة اشياء بترك الاستطالة ومجانبة الادلال

عن

وكف الأذى لأن ترك الاستطالة آلف ومجانبة الإدلال أعطف
وكف الأذى أنصف • وهذه أمور إن لم تخلص في الأكفاء أسرع
فيهم تقاطع الأعداء ففسدوا وأفسدوا • وقد روي عن عمر بن
عبد العزيز عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم ألا أنبئكم بشرار الناس قالوا بلى يا رسول الله
قال من نزل وحده ومنع رفده وجلد عبده ثم قال أفلا أنبئكم
بشر من ذلك قالوا بلى يا رسول الله قال من لا يرجى خيره ولا
يؤمن شره ثم قال ألا أنبئكم من ذلك قالوا بلى يا رسول الله قال
من يبغض الناس ويبغضونه • إن عيسى بن مريم قام خطيبا
في بني إسرائيل فقال يا بني إسرائيل لا تكلموا بالحكمة عند
الجهال فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ولا تكافوا
ظالما فيضل فضلكم يا بني إسرائيل الأمور ثلاثة أمر تبين رشده
فاتبعوه وأمر تبين غيه فاجتنبوه وأمر اختلف فيه فردوه إلى الله
وهذا الحديث جامع لآداب العدل في الأحوال كلها • وقد قال
بعض الحكماء كل عقل لا يداري به الكل فليس بعقل تام • وقد قال
بعض الشعراء • ما دمت حيا فدار الناس كلهم فإنما أنت في دار المداراة •
وقد تتعلق بهذه الطبقات أمور خاصة يكون عدلهم فيها بالتوسط

ولا تكافئوا

في حالتي التقصير والسرف لأن العدل مأخوذ من الاعتدال
فما جاوز الاعتدال فهو خروج عن العدل • وقد قالت الحكماء
الفضائل هيئات متوسطة بين حالتين ناقصتين • وأفعال الخير
توسط بين رذيلتين فالحكمة واسطة بين الشر والجهالة والشجاعة
واسطة بين التهور والجبن والعفة واسطة بين الشره وضعف
الشهوة والسكينة واسطة بين السخط وضعف الغضب •
والغيرة واسطة بين الحسد وسوء العادة والظرف
واسطة بين الخلاعة والفدامة والتواضع واسطة بين الكبر
ودناءة النفس والسخاء واسطة بين التقتير والتبذير
والحلم واسطة بين إفراط الغضب وعدمه والمودة واسطة
بين الخلابة وحسن الخلق والحياء واسطة بين القحة
والحصر والوقار واسطة بين الهزل والسخافة • وإذا كان
ما خرج عن الاعتدال إلى ما ليس باعتدال خروجا عن العدل
إلى ما ليس بعدل كان ما خرج عن الأولى إلى ما ليس بأولى خروجا
عن العدل إلى ما ليس بعدل • وقد قال بعض البلغاء السلطان
السوء يخيف البريء ويصطنع الدنيء والبلد السوء يجمع السفل
ويورث العلل • والولد السوء يشين السلف ويهدم الشرف

والجار السوء يفشي السر ويهتك الستر فجعل هذه الاشياء بخروجها
عن الاولى الى ما ليس باولى خروجا عن العدل الى ما ليس بعدل ولست
تجد فسادا الا وسببه نتيجة الخروج فيه عن حال العدل الى ما ليس
بعدل من حالتي الزيادة والنقصان فاذا لا شيء انفع من العدل
كما انه لا شيء اضر مما ليس بعدل ⁂ واما القاعدة الرابعة فهو امن
عام تطمئن اليه النفوس وتنتشر فيه الهمم ويسكن اليه البريء
ويانس به الضعيف فليس لخائف راحة ولا لحاذر طمانينة • وقد
قال بعض الحكماء الامن اهنى عيش والعدل اقوى جيش
ولان الخوف يقبض الناس عن مصالحهم ويحجزهم عن تصرفهم
ويكفهم عن اسباب المواد التي بها قوام اودهم وانتظام جملتهم
ولئن كان الامن من نتائج العدل فالجور من نتائج ما ليس بعدل
فقد يكون الجور تارة بمقاصد الادميين الخارجة عن العدل
وتارة قد يكون باسباب حادثة عن غير مقاصد الادميين فلا
تكون خارجة عن حال العدل فمن اجل ذلك لم يكن ما سبق
من حال العدل مغنيا عن ان يكون الامن في انتظام الدنيا قاعدة
كالعدل فاذا كان ذلك كذلك فالامن المطلق ما عم والخوف
قد يتنوع تارة ويعم فتنوعه بان يكون تارة على النفس وتارة على الاهل

وتارة على المال وعمومه ان يستوعب جميع الاحوال ولكل واحد
من انواعه حظ من الوهن ونصيب من الحزن وقد يختلف
باختلاف اسبابه ويتفاضل بتباين جهاته ويكون بحسب اختلاف
الرغبة فيما خيف عليه فمن اجل ذلك لم يجز ان يختص حال واحد
من انواعه بمقدار من الوهن ونصيب من الحزن لا سيما والخائف
على الشي مختص الهم به منصرف الفكر عن غيره فهو يظن الا خوف
الا اياه فيغفل عن قدر النعمة بالامن فيما سواه فصار كالمريض
الذي هو بمرضه متشاغل وعما سواه ولعل ما صرف عنه اعظم
مما نزل به وانما يوكل بالادنى وان جل ما يمضي ⁂ حكي ان رجلا
قال لاعرابي ما اشد وجع الضرس فقال الاعرابي
كل داء اشد داء كذلك من عمه الامن كمن استولت عليه العافية
فهو لا يعرف قدر النعمة بامنه حتى يخاف كما لا يعرف المعافى
قدر النعمة بعافيته حتى يصاب • وقال بعض الحكماء انما يعرف
قدر النعمة بمقاساة ضدها • فاخذ ذلك ابو تمام الطائي فقال
⁂ والحادثات وان اصابك بؤسها فهو الذي انباك كيف نعيمها ⁂
فاولى بالعاقل ان يتذكر عند مرضه وخوفه قدر النعمة فيما سوى
ذلك من عافيته وامنه وما انصرف عنه مما هو اشد من مرضه

دل

غافل

وخوفه ليستبدل بالشكوى شكرا وبالجزع صبرا فيكون
مسرورا فرحا • وحكي أن يعقوب قال ليوسف عليهما السلام
حين لقيه أي شيء كان خبرك بعدي قال لا تسألني عما فعله بي
إخوتي وسلني عما صنعه ربي • وقد قال الشاعر

لا تنس في الصحة أيام السقم • فإن عقبى تارك الحزم ندم •

وأما القاعدة الخامسة فهي خصب دار تتسع به الأحوال
ويشترك فيه ذوو الإكثار والإقلال فيقل في الناس الحسد وينتفي
عنهم تباغض العدم وتتسع النفوس في التوسع وتكثر المواساة
والتواصل وذلك من أقوى الدواعي في صلاح الدنيا وانتظام أحوالها
ولأن الخصب يؤول إلى الغنى والغنى يورث الأمانة والسخاء
كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري
لا تستقضين إلا ذا حسب أو مال فإن ذا الحسب يخاف العواقب
وذا المال لا يرغب في مال غيره • وقال بعض السلف إني وجدت
خير الدنيا والآخرة في خصلتين في التقى والغنى وشر الدنيا
والآخرة في الفجور والفقر • وقال بعض الشعراء

• شهدت صروف الدهر كهلا وناشئا • وجربت حاليه على العسر واليسر •
• فلم أر بعد الدين خيرا من الغنى • ولم أر بعد الكفر شرا من الفقر •

ويحسب الغنى يكون إقلال البخيل وإعطاؤه وإكثار الجواد وسخاؤه
كما قال دعبل

لئن كنت لا تولي يدا دون إمرة • فلست بمول نائلا آخر الدهر
وأي إناء لم يفض عند ملئه • وأي بخيل لم ينل ساعة الوفر

وإذا كان الخصب يحدث من أسباب الصلاح ما وصفت كان
الجدب يحدث من أسباب الفساد ما ضادها وكما أن صلاح
الخصب عام فكذلك فساد الجدب عام وما عم به الصلاح
إن وجد وعم به الفساد إن فقد فأحرى أن يكون من قواعد
الصلاح ودواعي الاستقامة والخصب يكون من وجهين خصب
في المكاسب وخصب في المواد فأما خصب المكاسب فقد يتفرع
عن خصب المواد وهو من نتائج العدل المقترن بها وأما القاعدة
السادسة فهو أمل فسيح يبعث على اقتناء ما يقصر العمر عن
استيعابه ويبعث على إنشاء ما ليس يوثق في دركه بحياة أربابه
ولولا أن الثاني يرتفق بما أنشأه الأول حتى يصير به مستغنيا
لافتقر أهل كل عصر إلى إنشاء ما يحتاجون إليه من منازل
السكنى وأرض الحرث وفي ذلك من الإعواز وتعذر الإمكان
ما لا خفاء به فلذلك ما أرفق الله تعالى خلقه باتساع الآمال